وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب
والعلوم الإنسانية

مخبر البحث
في الدراسات الأدبية والإنسانية

منشورات مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

3

أعمال الندوة العلمية:

الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر

أعدّ الندوة وأشرف على تنظيمها الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

2006/1427

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القار للعلوم الإسلامية

كلية الآداب
والعلوم الإنسانية

مخبر البحث
في الدراسات الأدبية والإنسانية

منشورات مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

3

أعمال الندوة العلمية:

الأمير عبد القادر

وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر

(أعد الندوة وأشرف على تنظيمها الأستاذ الدكتور عميراوي احميده)

2006/1427

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القانوني 3266 / 2006 المكتبة الوطنية
ردمك 9947 - 0 - 1505 - x

تم الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة
www.elhouda.com

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعد،

فإن الحديث عن نشاط بعض التيارات الفكرية الأوروبية في الجزائر، وعلاقتها بالشخصيات الجزائرية الفاعلة هام جدا؛ خاصة لما يطرح هذا الموضوع في ندوة علمية متخصصة ومتميزة، وبتنظيم مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية، وفي جامعة الأمير عبد القادر الهادفة إلى بناء جسور التواصل المعرفي، وإلى إرساء تقاليد ثقافية عالمة.

فهذه الموضوعات المبرمجة في هذه الندوة موضوعات هامة جدا، لأنها تتناول موضوع التيارات الفكرية الأوروبية ومنها الماسونية في الجزائر، وعلاقتها بالأمير عبد القادر، مع التركيز على قناعاته وحواراته، ومن ثم على الحصانة الذاتية للشخصية الجزائرية.

وأتمنى أن تكون هذه الندوة كسابقاتها ثمرة طيبة، كما أشكر باسمي الخاص وباسم الأسرة الجامعية جميع الذين ساهموا في إنجاح هذه الندوة. والله ولي التوفيق

18 شعبان 11/1427 سبتمبر 2006

أ. د. عبد الله بوخلخال

مدير الجامعة

افتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،

وبعد؛

فباعتقادنا إن عقد ندوة علمية متخصصة؛ في يوم واحد، وحول موضوع محدد، يكون أكثر فائدة من عقد ملتقى وطني ذي طابع مهرجاني. ولهذا حرصنا على تنظيم هذه الندوة الموسومة بموضوع: **الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر**، وفي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وبإشراف مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية.

والفكرة الرئيسة، لهذه الندوة هي محاولة التعرف على علاقة الأمير عبد القادر بتيارات فكرية أوروبية، من خلال عرض مجموعة من البحوث حول: نفوذ اليهود في الجزائر وعلاقة الأمير عبد القادر بهم، ووجود الماسونية في الجزائر، وما إذا كانت للأمير علاقة بهم. بجانب خطاب الإخاء الديني وملامح الفكر الإنساني في فكر الأمير عبد القادر. وتأثير المعلمين الفرنسيين في اتجاهات المثقفين الجزائريين. ومنهج وآليات انتشار بعض التيارات الفكرية غير العربية الإسلامية في الجزائر. والحصانة الدينية للذات الجزائرية. مع محاولة التعرف على مكانة الأمير عبد القادر في كتابات أوروبية ومغربية.

ونأمل أن تساهم موضوعات هذه الندوة في إثراء الفكر التراثي الجزائري والعالمي.

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

مدير مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

قسنطينة في 18 شعبان 1427 / 11 سبتمبر 2006

الجدل الفكري حول صلة الأمير عبد القادر بالماسونية

-دراسة تحليليّة نقدية-

الدكتور محمد بوالروايح

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

بدأت فكرة هذا الموضوع من قراءتي لكتاب "الإسلام والنّصرانية بين العلم والمدنية" لمحمد عبده[1]، وقد مررتُ على ما نقله من آراء المتكلّمين وآرائه بشأن الموازنة بين مفهوم التعصّب الدّيني في الإسلام[2] والمسيحية إذ لم يكن لي قصد إليها لهذا لم يقف نظري لأوّل وهلة من الحشد المعرفي الذّي ساقه إلاّ على ما ذكره عن الأمير عبد القادر الجزائري، من حيث إيمانه بوحدة العقيدة الدّينية السّماوية والذّي أوّله بعض الباحثين والنّاقدين على غير مراده وخلافا لمقاصده إذ ادّعوا-بإطلاق ومن غير تحقيق -أو تدقيق- بأنه يؤكّد فكرة الاختراق الماسوني للفكر الإسلامي وبخاصّة في جوانبه الإنسانية التي يمثّل الأمير عبد القادر قطبا من أقطابها وواحدًا من أشهر دعاتها، ومن الخلط والخبط الذّي وقع فيه المتحمسّون لفكرة الاختراق أنّهم خلطوا بين الإنسانية التي آمن بها الأمير

---

1 – انظر: محمد عبده، **الإسلام والنّصرانية بين العلم والمدنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 128، 129، 130.

2 – هكذا ذكره محمد عبده، في بيان الفرق بين المتعصبين أي التعصّب الديني في الإسلام والمسيحية؛ ولا مانع عند أهل الاصطلاح من نسبة التّعصب إلى الدين، لأنّ التعصّب قسمان قسم مذموم وقسم محمود وهو ما كان تعصّبا لنحقّ كما في الحديث: "ليس منّا من دعا إلى عصبيّة" رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة.

عبد القادر ودعا إليها في علاقة الأديان[1] السّماوية بعضها ببعض وبين الإنسانية الصّورية التّي قام عليها الفكر الماسوني، وعلى خلفية هذا الخلط صنّف الفكر الدّيني عند الأمير عبد القادر –بطريقة تطويع وتأويل النّصوص– من قبل من تولّوا كبر ذلك على أنّه فكر ماسوني أو يقترب منه شيئا كثيرًا، والحقيقة أنّ هذا الزّعم زعم متهافت وادّعاء غير مؤسّس يتنافى مع المذهب العقدي للأمير عبد القادر ومشربه ومنزعه الفكري، وبيان ذلك يتأتّى من عدّة وجوه نكتفي بذكر وجهين اثنين:

الوجه الأوّل: كلام محمد عبده عن الأمير عبد القادر الجزائري:

إنّ كلام محمد عبده عن الأمير عبد القادر الجزائري جاء في سياق استشهاده ببعض ما قاله هانوتو[2] عن رسوخ عقيدة التّسامح الدّيني في الإسلام، ومحصّل كلام هانوتو كما نقله، محمد عبده[3]: "إنّ القواعد الجديدة الّتي يجب أن يكون عليها العمل في إفريقية هي مخالفة القواعد القديمة الّتي كانت تجري عليها السّياسة الاستعمارية فيما مضى من الزّمان"، ثمّ بيّن هانوتو القواعد الجديدة

---

1 – الأديان بصيغة الجمع لفظ جرى عليه الاصطلاح، لكنّ الدين في الأصل واحد وقد ورد بصيغة الإفراد في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: "إنّ الدّين عند الله الإسلام". آل عمران 19 وقوله: "شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا" الشورى 13 وقوله: "لكم دينكم ولي دين" الكافرون 6.

2 – مفكر فرنسي قال عنه محمد عبده إنّه طعن في الإسلام من خلال ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في مارس سنة 1902 متعلّقا بإفريقيا فرد عليه محمد عبده ردًّا دمغ به جبينه بالأديان والتّاريخ فرجع عنه واعتذر.

3 – محمد عبده، مرجع سابق، ص129.

التي يُعامل بها المحكومون فقال "إنّها الأمن والسّلم" ثمّ قال كما ينقل عنه محمد عبده[1]: "إنّنا مدينون لهم بالتّساهل الدّيني، ولستُ أشيرُ إلى هذا الموضوع الخطير الذّي له علاقة بكل ما يُثير النفس البشرّية إلاّ إشارة خفيفة فأقول: إنّ التمدّن الأوروبي يجد في طريقه في إفريقية لاسيّما في شمالها ذلك الدّين القديم العظيم الذّي هو دين الإسلام، والذي هو في هذه الجهات (أي الشّمال الإفريقي) أكثر نشاطا منه في غيرها، وهذا الدّين يدعو إلى إله واحد، ويجعل الإيمان بالتّوحيد مصدرًا لكلّ الفضائل الذاتية والاجتماعية، ويستولي على المؤمن استيلاء شديدا فلا يعود يقدر على التفلّت منه"، ثمّ يخلص هانوتو من هذا الكلام إلى بيت القصيد فيقول: "فمن المفروض علينا التّساهل في هذا الشأن، بل ليس التساهل[2] بكافٍ وحده، فمن الواجب أن ندرس هذا الدّين ونبذل جهدنا في فهمه، وعلينا أن نتّخذ الكلمة الإسلامية "لا إكراه في الدّين"[3] شعارًا لا نخرج عن حدود معناها، وأن نحترم الدّين الإسلامي ونحميه من كلّ طارئ سوء، ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي: "إنّ أصحاب الأديان الثّلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمّهات"[4].

---

1 - المرجع نفسه، ص 130.

2 -هكذا استخدمها محمد عبده، والشائع عند أهل الاصطلاح التسّامح الدّيني وكسلا اللّفظين يؤدي المعنى ويحقّق المراد.

3 - البقرة: 256.

4 محمد عبده، مرجع سابق، ص 130.

ويمكن أن أستنبط من كلام هانوتو كما نقله محمد عبده عدّة حقائق تجلّي كثيرًا من الجوانب الخفيّة المتعلّقة بالشّخصية والخصوصية الفكرية لفكر الأمير عبد القادر الجزائري، والتّي يمكن تلخيصها في أمرين اثنين:

الأمر الأوّل: وحدة الأديان في فكر الأمير وحدة المصدر:

ولقد أكدّ عباس محمود العقّاد[1] هذه الوحدة الدّينية المصدرية حيث يقول: "من العسير على الكثيرين من المتدّينين المؤمنين بالأنبياء أن يذكروا أسبابا عقلية لتفضيلهم الدّين الذّي يعتقدونه على سائر الأديان التّي لا يعتقدونها، وغاية ما عندهم من التعّليل لهذا التّفضيل أنْ يؤمنوا بهذه العقيدة، لأنّها عقيدة نبيّهم ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى، لأنها عقائد أنبياء آخرين لا يؤمنون بهم ولا يقولون لماذا ينكرونهم مع إيمانهم بأمثالهم، ولا يستطيعون أن يردّوا هذا الإنكار إلى سبب معقول... وهذا العجز العقلي عن تعليل اختيارهم لبعض الأنبياء دون بعض يكاد أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطّر إليها من يؤمن برسالة دون سائر الرّسالات، فإنّ رسالات الأنبياء جميعًا لن تخلو من فضائلها ومسوّغات الإيمان بها.

ولن تنحصر الفضائل ومسوّغات الإيمان في رسالة واحدة، مع تقادم الزّمن وتفاوت الأمم والإيمان بوجود الله وهدايته للنّاس منذ تهيّأت عقولهم وضمائرهم لقبول الشرّائع والمعتقدات"، ويبيّن عباس محمود العقّاد الإيمان الشّمولي في الإسلام بكلّ العقائد الدّينية الرّبانية فيقول:...لأنّ المسلّم يؤمن بجميع الرّسالات التي سلفت قبل محمد عليه السّلام ولا ينكر منها إلاّ ما نسخته

---

1 – انظر: عباس محمود العقّاد، **التفكير فريضة إسلامية**، مكتبة رحاب، الجزائر، ص 91.

الشرائع النّبوية نفسها لاختلاف مقتضيات الزّمن، وما ينكره العقل لما أضافه المتديّنون إليه من خرافاتهم أو من أو شوائب العبادات التّي اختلطت ببقايا الوثنية والعقائد الجاهلية من جيل إلى جيل"[1].

ولقد أكدّ الأمير عبد القادر وحدة الأديان من حيث المصدر وذلك في سياق قوله: "إنّ أصحاب الأديان الثّلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمّهات"، وهو في ذلك يتمثّل حديث الرّسول –صلى الله عليه وسلّم– في الصّحاح: "نحن معاشر الأنبياء أبناء علاّت أبونا واحد وأمّهاتنا شتّى"[2]، ويفهم من هذا أنّ الأمير عبد القادر يؤمن بالمصدر الرّباني المشترك لعقائد الأديان الثّلاثة، وهذا ما ينافي القول المطلق بوحدة الأديان الذي لا يقيم وزنا للصّحيح منها والمحرّف والنّاسخ والمنسوخ، فهذا الإطلاق ليس له ما يسوّغه أو يبرّره، ولا يمكن أن يكون إلاّ شكلاً من أشكال العبث الفكري، الذّي يمثّله ثلّة من الباحثين والمؤرخين.

الأمر الثّاني: موقف الأمير عبد القادر من الأديان نابع من أصول العقيدة الإسلامية:

وما يؤكّد هذه الحقيقة ما ساقه محمد عبده من محصّل كلام هانوتو عن الأمير أسأل القارئ: هل سمع مثل هذه الكلمة ممنّ يُماثل الأمير عبد القادر –

---

1 – المرجع نفسه، ص 91.

2 – الحديث ورد بهذا اللفظ في الصحّاح. وهو دليل على وحدة الدين في المصدر ويقابل توحّد الدين تعدّد واختلاف الشرائع.

في نسبه إلى صاحب الرّسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه؟ وسمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى"[1].

ولقد ذكرت بديعة الحسني الجزائرية[2]، أنّ فكر الأمير عبد القادر فكر إسلامي أصيل ليس فيه دخن وأنّ الباحثين لم يختلفوا في أصالة شخصيته الإسلامية وإنّما اختلفوا في تأويل مواقفه الدّينية حيث تقول: "لقد كثر الكلام حول الأمير عبد القادر الجزائري وحقيقته وانقسم الباحثون في تاريخه بين مادح وقادح ومتردّد، والحقيقة أنّ شخصية الأمير وحياته المملوءة بالعلم والعمل في حقبة من التّاريخ مضطربة حافلة وتنقلاته في الآفاق الواسعة واتّصالاته الرّفيعة بالشّخصيات التّاريخية الهامّة لابدّ أن يثير حوله من القضايا والأفكار ما يحيّر المعنيين".

وإن كانت بديعة الحسني الجزائرية، لم تفصح عن حقيقة الجدل بين الباحثين حول شخصية الأمير عبد القادر إلاّ أنّ السّياق العام ومدلول العبارات ينصرف إلى الإشارة إلى الجدل الذّي أثير حول صلته بالفكر الماسوني، وهي الشّبهة التّي راجت لمدّة طويلة ولا يزال يتشبث بها بعض الباحثين، وما يؤكد ضمنا هذا الانصراف ما ذكرته بديعة الحسني الجزائرية في مواضع أخرى كقولها: "والحقيقة أنّ مقاومة الأمير عبد القادر لم تتوقّف ضدّ أعداء دينه بل تابعها الأمير وأصحابه حتّى في سجنهم في فرنسا، فلقد قاوم الأمير أعداءه بالصّبر

---

1 – محمد عبده، **مرجع سابق**، ص 130.

2 – بديعة الحسني الجزائرية، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، حقائق ووثائق، دار الفكر، سورية، دمشق، ط1، 2001 المقدمة.

والتّقوى ولم يحن رأسه ولم يستسلم ولم يستعبد ولم يستنجد، وتابع مقاومته حتّى في بلاد الشّام والأدلّة كثيرة ومتعدّدة وموثّقة"[1].

إنّ الأمير عبد القادر –كما ذكرت بديعة الحسني الجزائرية– لا يرضى بالمساومة على الإسلام فكرًا وعقيدة بعرض من الدّنيا قليل، كما أنّ شخصيته الفكرية النّاضجة لا يمكن أن تكون هدفا سهلا بالماسونية حتّى توقعه في شراكها رغم أنّها أوقعت في أحابيلها كثيرًا من الأغرار الذّين عندهم رقّة في الدّين وخلل في العقيدة حيث غرّهم الفكر الماسوني فاعتنقوه من غير إعمال فكر أو نظر.

وممّا ينفي عن الأمير عبد القادر شبهة الردّة الفكرية، ومنها انتسابه –على رأي بعض الباحثين– إلى الماسونية العالمية ما أردفت به بديعة الحسني الجزائرية في موضع آخر حيث تقول: "إنّ جهاد الأمير يفنّد كلّ الشائعات[2] التّي قيلت عنه، لأنّه بقي متمسّكا بإسلامه عاضًّا عليه بالنواجذ حتّى في حالات الضّعف الإنساني، وقد أشفعت بديعة الحسني الجزائرية كلامها هذا عن الأمير عبد القادر بما ذكره هو نفسه في كتابه: "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام".

الوجه الثاني: المرجعية العقدية للأمير عبد القادر مخالفة للأدبيات الماسونية:

---

1 – بديعة الحسني الجزائرية، **وما بدّلوا تبديلا**، دار الفكر، سورية دمشق، ط1، المقدمة.

2 – بديعة الحسني الجزائرية، **مجموعة ردود على كتاب "حياة الأمير عبد القادر" لشارل تشرشل**، دار الفكر، سورية، دمشق، ط1، 2001، ص 35–45.

وحول هذه المسألة، ذكر حسن عمر حمادة[1] أنّ الأدبيات الماسونية تشمل على عقيدة شمولية خاصّة تواجه العقائد الدّينية الرّبّانية وذلك بمنظومة من القيم والمعايير المتصّلة بنصوص العقائد اليهودية التلمودية المنبثقة من شروحات العهد القديم؛ ومنذ أن حضرت الماسونية في الحياة الاجتماعية البشرية بدأت مرحلة جديدة في حياة الإنسانية الإسلامية والمسيحية، على المستويات النّفسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والسياسية والقانونية والجمالية" ويضيف حسين عمر حمادة مبيّنا وجهة الفكر الماسوني ومخالفته للفكر الإسلامي بل الفكر الدّيني الإنساني بصفة عامة: "وقد أدرك الباحثون خطورة نشاطات المنظومة الفكرية الماسونية الشاملة فقاموا بدراسة وصفية تحليلية شاملة للأدبيات الماسونية متّخذين الدّولتين الفرنسية الكاثوليكية والعثمانية المسلمة نموذجين في هذا المجال"[2].

والأمير عبد القادر الذّي عُرف عنه صفاء العقيدة وكمال الدّين، لا يلتقي مترعه العقدي ومشربه الفكري مع الفكر الماسوني وذلك بالنّظر إلى عدّة مفارقات:

أولاً: المفارقة بين الإنسانية في فكر الأمير والإنسانية الماسونية: تُجمع كتب التّاريخ والتّراجم على أنّ الأمير عبد القادر الجزائري أعطى مفهومًا شاملاً وعالميا لما أصبح يُعرف بالتّشريع الدّيني الإنساني، الذّي يتجاوز

---

1 - انظر حسين عمر حمادة، **الأدبيات الماسونية وصلتها بالعقائد اليهودية الصهيونية وخططها لتقويض المجتمعات الإسلامية والمسيحية**، دار الفكر دمشق.

2 - المرجع نفسه، ص 103.

خصوصيات كلّ دين ليركزّ على القواسم المشتركة التّي تدور حول إثبات التّوحيد ومسّوغات الإيمان، وقد عقد في هذا الصدّد ملتقى دولي[1] سلط الضوء على شخصية الأمير عبد القادر وملامح التسّامح والكازرماتية فيها، فالملتقى الذّي كان حول "شخصية الأمير عبد القادر واجب الذاكرة وتحدّيات العصر" تميّز بتقديم مجموعة من المداخلات تمحورت حول شخصية الأمير عبد القادر وعلاقته بأهل الكتاب وكذلك دوره في صقل الذاكرة الجماعية الجزائرية[2]، وقد ذكر محمد بن رضوان[3] في مداخلته حول علاقة الأمير عبد القادر بأهل الكتاب بأنّ هذه العلاقة تميزّت بالتّسامح وبالتربية الإيمانية العالية للأمير والتّي تنبع كما قال من تربية عربية إسلامية سليمة، ولأجل البرهنة على البعد العالمي للفكر الدّيني وبخاصّة ما تعلّق منه بالإسلام والمسيحية عمل الأمير عبد القادر عام 1860م على إنقاذ 12 ألف مسيحي من جبل لبنان وضواحي دمشق بما فيهم قنصل فرنسي، وهذا السّلوك الإنساني هو في سواء الحقيقة تطبيق لما يدعو إليه الإسلام من حسن معاملة أهل الكتاب، ودعوتهم إلى كلمة، والأمير عبد القادر الذّي عرف بالرؤية الدّينية العالمية، يمقت العصّبيات الدّينية التّي تحرّك مشاعر

---

1 – عقد هذا الملتقى بالجزائر العاصمة بمبادرة من مؤسسة الأمير عبد القادر وبالتعاون مع جامعة الجزائر، وعنوان الملتقى: "شخصية الأمير عبد القادر: واجب الذاكرة وتحديات العصر" وذلك بمناسبة مرور 122 سنة على وفاة مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة الذي توفي في دمشق في 26 ماي 1883م.

2 – نقلا عن محمد بغداد، موقع www.middle-eastonline بتصرف

3 – محمد بن رضوان، "علاقة الأمير عبد القادر بأهل الكتاب"، ملتقى: شخصية الأمير عبد القادر واجب الذاكرة وتحديات العصر: الجزائر: 25 ماي 2005.

الكراهية بين أهل الأديان الثلاثة، فقد شرح الكاتب الفرنسي إيتيان برينو[1] مختلف المناورات التّي تعرّض لها الأمير عبد القادر من فرنسا وانجلترا، وهو في منفاه في سورية حيث حاولت هاتان القوتان الاستعماريتان استعمال الأمير عبد القادر ومصداقيته في خلق مملكة عربية في سورية ولبنان لضرب الوجود العثماني.

وقد أوضح إيتيان برينو[2] أنّ البعثات المتكرّرة التّي كانت تقصد الأمير عبد القادر لتقترح عليه منصب حاكم الشّام كانت كلّها تقابل بالرّفض من قبل الأمير الذّي فضّل حياة الاعتكاف والتّصوف.

وجاء في مداخلة عمي كبير في الملتقى المذكور آنفا أنّ هناك صلة وثيقة بين القيم الدّينية التّي كان يؤمن بها الأمير عبد القادر وقيم الإنسانية وحقوق الإنسان المعاصرة كما نصّ عليها القانون الدولي الإنساني. يقول عمي كبير: "إنّ الأمير عبد القادر الجزائري هو بالفعل رجل نفتقده في هذا العصر، لأنّه لم ينغلق على نفسه بل كان رجلاً حرّا وأخا لكلّ إنسان بغض النظّر عن الدّين أو العرق[3].

وذكّر احميدة عميراوي بنضال الأمير عبد القادر ومقاومته من أجل إيجاد ضمير جمعي يتعدّى المنطقة الجغرافية الضّيقة والقبيلة إلى مستوى أشمل يصل إلى أعلى مراتب الإنسانية، يقول احميدة عميراوي: "لقد لعب الأمير عبد القادر

---

1 – إيتيان برينو، مداخلة بالملتقى السابق، قُرأت باسمه (الأمير عبد القادر ومشروع المملكة العربية).

2 – ايتيان برينو، ملتقى الأمير.

3 – عمي كبير (أستاذ مغربي)، الأمير عبد القادر رجل من زماننا ملتقى الأمير.

دورا مهمًّا في جمع شمل القبائل التّي توحدّت تحت رايته عن طريق نظام البيعة التّي تعمّق ارتباط الحاكم بالمحكوم وارتباطهما معًا بالأرض والدّفاع عنها"[1].

فالفكر الإنساني الذي كان الأمير عبد القادر من أوعيته وحملته يخالف دعوى الإنسانية التّي يزعم أقطاب الفكر الماسوني أنّهم أوائل الدّاعين إليها.

ثانيا: الفكر الماسوني هادم للقيم الدّينية:

إنّ البروتوكول الرّابع عشر من بروتوكولات حكماء صهيون يؤكدّ هذه الحقيقة، فقد جاء فيه: "حينما نكمّن لأنفسنا فنكون سادة الأرض –لن نبيح قيام أيّ دين غير ديننا، أي الدّين المعترف بوجدانية الله الذّي ارتبط حظّنا باختياره إيّانا كما ارتبط به مصير العالم ولهذا السّبب يجب علينا أن نحطّم كلّ عقائد الإيمان، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين فلن يدخل هذا في موضوعنا، ولكنّه سيضرب مثلا للأجيال القادمة، التّي ستصغي إلى تعاليمنا على دين موسى الذّي أوكل إلينا –بعقيدته الصّارمة- واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا"[2].

وهناك تناقض واضح في الفكر الماسوني، بين ادّعاء حرية العقيدة وبين العمل بكلّ السّبل لمحاربة العقائد والأديان، ومنها المسيحية، فقد جاء في البروتوكول السّابع عشر: "اليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان، ولن يطول الوقت إلاّ سنوات قليلة حتّى تنهار المسيحية بعدها انهيارا تامًّا، وسيبقى ما هو أيسر علينا

---

1 – حميدة عميراوي، الأمير عبد القادر وذاكرتنا الجماعية، ملتقى الأمير.

2 – انظر: **بروتوكولات حكماء صهيون**: نشر مكتبة الزهراء، الجزائر، ص 101.

للتصرف مع الدّيانات الأخرى[1]، على أنّ مناقشة هذه النّقطة أمر سابق جدًا لأوانه.

وقد توعدّت الماسونية العالمية بتحطيم البيت البابوي، حيث جاء في البروتوكول السّابع عشر: "حينما يحين لنا الوقت كي نحطّم البلاط البابوي the popal court تحطيما تامًا فإنّ يدا مجهولة، مشيرة إلى الفاتيكان The Vatican ستعطي إشارة الهجوم، وحينما يقذف الناس في أثناء هيجانهم بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح، وبهذا العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط، وحينئذ لن يكون لقوّة على وجه الأرض أن تخرجنا منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية، إنّ ملك إسرائيل سيصير البابا pope الحقّ للعالم بطريك patrich الكنيسة الدولية"[2].

وتعلن الماسونية العالمية الحرب على أماكن العبادة ومنها الكنائس المسيحية، وذلك بطريق تدجين التعليم الكنسي ليفقد صبغته المسيحية، فقد جاء في البروتوكول السّابع عشر: "ولن نهاجم الكنائس القائمة الآن حتّى تتمّ إعادة تعليم الشّباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة، ثمّ عن طريق عقيدتنا الخاصّة بل سنحاربها بالنّقد criticism الذّي كان سيظّل ينشر الخلافات بينها.

ثالثا: الفكر الماسوني هادم للقيم الإنسانية: بالإضافة إلى أنّ الماسونية تلّح على ضرورة محو الأديان ومحاربة أتباعها، فإنّها تزعم أنّها جاءت لإصلاح السرائر الإنسانية وذلك ببث الفضيلة الأخلاقية، والعمل بها. وقد ورد في

---

1 - المرجع نفسه، ص 126.

2 - المرجع نفسه، ص 126.

كتاب الآداب الماسونية"[1] – الدستور الأدبي الذّي يسير الماسون بموجبه، حيث جاء في بعض بنوده أنّه على الماسوني أن يخضع للحكومات التّي يعيش في كنفها، مهما كانت ظالمة أو مستبدة: "احترم الحكومة واخضع للشّرائع ولا تدخل في مؤامرة بل إذا مست الحاجة فقدم للحكومة المساعدة والعضد: تجنّب المجادلات في أمر الدّين والسّياسة لكي تحفظ العلائق المرتبط بها النوع الإنساني"[2].

وحسبنا أن نذكر هنا أنّ القيم الإنسانية المثالية التّي تزعمها المؤسسة الماسونية، ما هي في الواقع إلاّ دموع التّماسيح.

ولقد أثبت الواقع أنّ الماسونية عملت على إذكاء روح التعصّب الدّيني والعرقي والسّياسي والثّقافي. بين أهل الأديان، وكان من نتائج هذا التعصّب حدوث صراعات دينية كتلك التّي حدثت بين المسلمين والمسيحيين بعد أن أكره المسلمون على خوض حرب دينية أشعل فتيلها بعض السّاسة والقساوسة المسيحيين.

ووجود الصّراعات الدّينية بين أهل الأديان، لا يعني نفي وجود الاختلاف بينهم لأنّ هذا الأمر نابع من الجبلّة والطبيعة الإنسانية مادام الإنسان تتحكم فيه

---

1 –بكير سعيد أعوشت، **إسلام اليوم بين الأصالة والتحريف**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، (بدون طبعة وتاريخ نشر)، ص 18.

نقلا عن كتاب **الآداب الماسونية**، لشاهين بك مكاريوس، مطبعة المقتطف، مصر سنة 1895م.

2 – شاهين بك مكاريوس، **الآداب الماسونية**: من المادة 35 و36.

نزعات الخير والشّر، وهي الحقيقة التّي أكدّها القرآن الكريم: "ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين"[1].

ويقول ابن خلدون تأكيدا لهذه الحقيقة: "إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة، والانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة، سنة الله التّي خلت في عباده"[2].

وما يمكن قوله إنّ توحيد الأديان الذّي تدعو إليه الماسونية مؤامرة على الأديان وفي مقدمتها الإسلام، ولا أعتقد أنّ الأمير عبد القادر يرضى بهذا المسخ الدّيني الذّي يهدم كلّ الأسس الإنسانية التّي جاءت بها رسالات السّماء، ولذلك فإنّه من غير المعقول تصديق الشّبهات التّي تذهب إلى تأكيد صلة الأمير عبد القادر بالماسونية، وهي صلة وهمية افتراضية لا يسندها دليل، وليس لها تعليل إلاّ الهذيان الذّي يتخبّط فيه بعض الباحثين.

مناقشة آراء القائلين بثبوت صلة الأمير عبد القادر بالماسونية:

هناك حقيقة تاريخية لا ينبغي إنكارها وهي أنّ شبهة الانتساب إلى الماسونية قد طالت كثيرًا من الأعلام المفكّرين، ويجهد أصحاب هذه الشّبهة أنفسهم لذكر الشّواهد التّي يدّعون أنّها تؤكدّها تأكيدًا قاطعا، فقد قيل عن محمد عبده

---

1 - هود 118.

2 - انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 22.

إنّه عضو في المحفل الماسوني وإنّه قد تبنّى الأفكار الماسونية وأصبح من دعاتها في الشّرق.

والأمير عبد القادر الجزائري قيل عن انتسابه إلى الماسونية ما قيل عن أسلافه العلماء، فقد ذكر أحمد برقاوي[1] في مقال له، نقلا عن وجيه كوثراني[2] أنّ الأمير عبد القادر كان صديقا لفرنسا وهذا ما تنبّته –حسب زعمه– تقارير القناصل الأجانب إلى جانب كونه شخصية عربية إسلامية مرموقة.

ويذكر برقاوي أنّه: "ليس أدلّ على أثر الغرب في فكر عبد القادر الجزائري من انتسابه إلى الحركة الماسونية، والحق أنّ المحافل الماسونية –كما أضاف– والّتي تأسسّت في نهاية القرن التّاسع عشر إنّما كانت تعبيرًا عن نزوع تحرّري تنويري لدى النّخبة العربية في مصر وبلاد الشّام ولهذا ليس غريبا أن نجد أن جلّ رواد النهضة من مسلمين ومسيحيين كانوا أعضاء في هذه المحافل أو من مؤسسيها كالأفغاني والكواكبي وجرجي زيدان وأديب إسحاق ويعقوب صروف وغيرهم.

وقد أشار كراتشوفسكي إلى أنّه كان لبطاقة "ماسوني" في المشرق العربي في منتصف القرن التاسع عشر نفس الأهمّية الّتي كانت لكلمة روتاري في روسيا

---

1 – انظر، أحمد برقاوي، **عودة إلى ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر**، موقع معابر maaber.com ص 1 إلى 11 وانظر، عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، بيروت 1966، ص 34 وما بعدها.

2 – انظر وجيه كوثراني، **الاتجاهات الاجتماعية والسّياسية في جبل لبنان والمشرق العربي**، بيروت 1982، ص 143.

في بداية القرن التاسع عشر[1]. وهذا يعني حسب أحمد برقاوي أنّ قوى المعارضة من النخب المثقفة للنظام التقليدي قد تحلّقت حول الماسونية بما عرضته آنذاك من أفكار حول التّسامح الدّيني والحرية والمساواة والإخاء، بمعنى آخر، وقد وجد المثّقفون العرب في القرن التاسع عشر في ليبيرالية الماسونية سندًا ايديولوجيا لمواجهة المجتمع التقليدي والتحّرر منه.

ويورد حسين عمر حمادة[2] قصّة انتساب عبد القادر الجزائري إلى الماسونية، مستندًا إلى أكثر من مصدر من ذلك قول جرجي زيدان: "إنّ الماسونية دخلت دمشق بمساعي الأمير عبد القادر الجزائري، وأنّ أول محفل ماسوني تأسس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق، ويورد حسين حمادة قول شاهين مكاريوس إنّ الأمير عبد القادر الجزائري اغتنم فرصة مروره بالإسكندرية في أثناء عودته من الحجاز سنة 1814م، فانتظم في سلكها في الثامن من شهر حزيران بمحفل الأهرام التابع للشرق الشامي الفرنسي[3].

ويُنقل عن عبد الجليل التميمي قول الأمير عبد القادر الجزائري: "إنّي أعتبر منظمة البنّائين الأحرار (الماسونية) كأوّل مؤسسّة في العالم، وفي رأيي أنّ كلّ رجل لا يجاهر بالعقيدة الماسونية يعدّ رجلا ناقصا وآمل يوما ما أن أرى انتشار

---

1 – نقلا عن كتاب كوتلوف، **تكّون حركة التحرر في المشرق العربي دمشق** 1981، ص 255.

2 – حسين عمر حمادة: **الماسونية والماسونيون في الوطن العربي**، دمشق 1986، ص 103.

3 – المصدر نفسه، ص104.

مبادئ الفرماسونية[1] في العالم، ويومئذ فإن كلّ الشعوب ستعيش في سلام وأخوة"[2].

ويدّعي برقاوي أنّ أهمية أن يكون عبد القادر الجزائري ماسونيا —وهو ما تجمع عليه المصادر في زعمه- تكمن في فهم كتابه" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، الذّي يحمل في طياته كثيرا من مضامين وأفكار الماسونية، ويدعّي برقاوي[3] حسب ما نقله عن المصادر التي أخذ عنها أنّ الظاهر أنّ الأمير عبد القادر الجزائري كان على دراية كافية —حتى قبل كتابة هذا الكتاب أو بعده- بالماسونية وحتّى قبل الانتساب إليها، غير أنّه لم يعوّل فقط على الصيغة الغربية في إطارها الفكري الماسوني بل أشفعها بآرائه الفكرية ذات الصبغة العربية الإسلامية.

وما سقاه برقاوي من نصوص وشهادات يعتقد أنّها تؤكد كلّها صلة الأمير عبد القادر الجزائري بالماسونية، تفتقر في حقيقة الأمر إلى الأدّلة الدامغة ممّا يجعلها مجرّد تخمينات وقراءات فكرية ذاتية لفكر الأمير عبد القادر، وهذا ما يجعلنا نتحفّظ كثيرًا على قبول قصّة انتسابه إلى الماسونية كما ترويها —بل تحكيها بعض الجهات الفكرية، التّي لا يخلو موقفها من هذه المسألة من إفراغ وإسقاط فكري ذاتي لا يعبّر بالضرورة عن الرأي الجامع.

---

1 – الفرماسونية ومعناه البناء الحر وأنصار هذه الفكرة فيطلق عليهم أنصار البناء الحـرّ الـذين يؤلفون جمعيات سرّية أوجدها اليهودية قديما لاحتواء الدّين المسيحي والدّين الإسلامي خصوصًا. انظر: شاهين بك مكاريوس: كتاب **الآداب الماسونية**، ص1.

2 – حسين عمر حمادة، **الماسونية والماسيون**، مرجع سابق، ص 106.

3 –أحمد برقاوي، مقال سابق، ص 3.

إنّ ما ساقه برقاوي من نصوص عن قصّة انتساب الأمير عبد القادر الجزائري إلى الماسونية، لا يمكن أن تَرقى إلى الرواية الجامعة المتواترة، خاصّة وأنّ كثيرًا من الوثائق التّاريخية لم تحظ بالتّمحيص الكافي، وبقيت عرضة للتأويلات الغربية الاستشراقية التّي تحترف تشويه الفكر الإسلامي وسيرة الأعلام العرب والمسلمين.

إنّ القول الذّي نسبه عبد الجليل التّميمي[1] إلى الأمير عبد القادر الجزائري والذّي مؤّداه أنّه –أي الأمير– يعترف بإعجابه وانتسابه إلى الماسونية، يحتاج إلى وقفة نقدية تمحيصية، فلا ينبغي ولا يقبل عقلا أن يفهم كلّ فكر تحرّري على أنّه فكر ما سوني بالضرورة، فقد وجد الفكر التحرّري في المنظومة الفكرية العربية الإسلامية، قبل أن تقول به الماسونية، فالأفكار ليس لها لون عقدي أو فكري، ومن ثمّ فإنّه من الخطأ الاعتقاد بأنّ الفكر التحرّري التّنويري من ابتداع الماسونية.

إنّ الزّخم المعرفي الذّي ينطوي عليه الفكر الإسلامي، والذّي يتّسع لكلّ الأفكار التحررية، والذي كان الأمير عبد القادر من أكبر المتبصرين فيه بحكم قوّة ملكته، وما يتمتّع به من حضور البديهة وفصاحة العقل، حتّى قال النّقاد عن الأمير عبد القادر إنّه صاحب نزعة عقلية، وهو بالإضافة إلى ذلك خلدوني النزعة الاجتماعية ديكارتي في الدفاع عن العقل بيكوني في الهجوم على الأوهام ماسوني أي صاحب فكر متحرّر ولكنه مع ذلك إسلامي في نزعته.

خاتمة البحث: والآن وقد انتهيت إلى الخاتمة فإنّه يمكن رصد النتائج الآتية:

---

1 – المرجع نفسه، ص. 3

1- رغم قولي إنّ الأمير عبد القادر لم يكن حاملا للفكر الماسوني بصيغته الشمولية العنصرية المعادية للعقائد والأديان، إلاّ أنّ هناك حقيقة تاريخية وهي أنّ الفكر الماسوني، وجد طريقة إلى عقول النخبة العربية والإسلامية، مع اختلاف في الحدّة والتأثير، ويشير المؤرخون إلى وجود شحّ كبير جدّا في المعلومات والوثائق الخاصّة بانتشار الماسونية في بلدان المشرق العربي وحتى المغرب العربي بعد ذلك.

2- وجود الفكر الماسوني وحضوره في البلاد العربية كان نتيجة عاملين أساسين هما:

أوّلا: الحداثة الأوروبية التي ألقت بظلالها وكَلكلها على الشّرق وتلقفّتها كثير من الزعّامات والنخب الفكرية العربية، من أجل إحداث نهضة عربية على شاكلة النهضة الغربية.

ثانيا: وجود خلفية وأرضية للفكر الماسوني في البلاد العربية، وبخاصّة في الامتداد التاريخي للمنطقة العربية الذي شهد ميلاد النواة الأولى للفكر الديني بما فيه الفكر اليهودي، والفكر الماسوني بعد ذلك.

3- ينبغي على النّخبة العربية والمسلمة أن تتخلص من هيمنة الفكر الغربي، وذلك بشقيّه المسيحي الصهيوني واليهودي الماسوني، وخاصّة أنّ الفكر العربي الإسلامي يحمل في طياته كثيرًا من العوامل والخصائص التي تساعد على إيجاد خصوصية فكرية متحرّرة إلى أبعد الحدود.

4- يجب أن يسهر الباحثون والمؤرخون على إفراغ تاريخ الأعلام المسلمين من النزّهات والشبهات التي حيكت بشأن سيرتهم، وهناك ثلّة من الباحثين تعمل على تحقيق هذه المقاصد عن طريق إعادة النّظر في التّاريخ الإسلامي والكشف

عن مكنوناته وصفحاته المشرقة التّي طالما عمل الغربيون والتّغريبيون على طمسها.

الأمير عبد القادر والماسونية

الأستاذ الدكتور اسعيد عليوان

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

مقدمة:

تعد الماسونية حركة ضاربة بجذورها في القدم، مما جعل الآراء تختلف حول تاريخ نشأتها إلى حد اعتبار البعض أنها تعود إلى جمعية إيزيس السرية المصرية القديمة، ولكنها ارتبطت باليهودية ارتباطا وثيقا، وهو ما يظهر من نص القسم الماسوني المرتبط بالتوراة، وإذا كان الباحثون قد اختلفوا في تاريخ نشأتها فقد اختلفوا اختلافا بينا في تعريفها نكتفي بإيراد تعريف صابر طعيمه فعرفها "بأنها حركة تنظيمية خفية قام بها على الأرجح حاخامات التلمود وخاصة في مرحلة الضياع السياسي الذي تعرض له يهود العهد القديم، فأخذ الخامات على عاتقهم إقامة تنظيم يهودي يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية"[1]، ويتوصل إلى أن الماسونية حركة تنظيمية يهودية الأهداف، عالمية الانتشار، تتبنى كل ما يمكنها من تحقيق أهدافها، متدثرة بما في المجتمع الذي توجد فيه من معتقدات وأفكار حفاظا على الإنسان اليهودي وتمكينه من السيطرة على المجتمعات

---

1 – صابر طعيمة، **الإنسان ذلك العالم المجهول**، دراسة في الأسرار التنظيمية لليهودية العالمية، ط.5، دار الجيل، بيروت، 1986، ص.11.

البشرية وتوجيه مسارها توجيها لائكيا لاقيميًّا[1] وهو ما جعل الماسونية معبرة عن أشنع الكلمات المهينة التي لا تطلق إلا على الأفراد السيئين جدًا[2].

إذا كان ما سبق هو حال الماسونية، فهل يمكن أن يكون للأمير عبد القادر بها صلة؟ هل يمكن أن يضحي بماضيه الجهادي العظيم الذي استمر 17 عامًا وبمكانته الصوفية والعلمية والسياسية؟ إنّ الأمير عبد القادر يعد أحد عظماء البشرية في تصورنا، فهل يمكن أن يكون الأمير عبد القادر قد ضحى بكل ذلك وصار ماسونيا يخدم أغراض اليهود ويمكّن لهم؟.

لقد اتهم بعض الباحثين الأمير عبد القادر بالماسونية، ومنهم: جرجي زيدان، وشاهين مكاريوس —وهو ماسونيان-

ونسيب نمر وتشرشل وعبد الجليل التميمي؛ ونتساءل نحن: ما مدى صحة هذه الاتهامات؟ ولو فرضنا صحّتها فهل قضى بها الأمير على ماضيه المشرف في الجزائر؟ هذا ما سنحاول في هذه الورقة الإجابة عنه.

اتهام الأمير عبد القادر بالماسونية:

من المتفق عليه أن الأمير عبد القادر لم تكن له أي صلة بالماسونية في الجزائر، ولم نجد أحدا من الباحثين حدد جزائريين أصليين انخرطوا في الماسونية بها، والذين تحدثوا عن علاقة الأمير بالماسونية إنما ذكروا ذلك بعد استقراره ببلاد الشام ومن هؤلاء جرجي زيدان وذلك حين ذكر أن انتشار الماسونية في

---

1 – **المرجع نفسه**، ص– ص.11–12.

2 – حسين عمر حمادة، **الماسونية والماسونيون في الوطن العربي**، دار الوثائق، دمشق، 1995، ص.14.

لبنان وسوريا بدأ في 1864م على يد الأمير عبد القادر[1]. وقد زاد هذا توضيحا شاهين مكاريوس حين ذكر أن الأمير بعد أن سمع بها أعجب بها فانخرط بها في الإسكندرية في 18 حزيران 1864م بمحفل الأهرام التابع للشرق الأعظم الفرنسي، وذلك خلال عودته من الحج فأحبها وأحب أهلها، وكان يجاهر بانتمائه إليها[2] ولكن لويس شيخو ذكر أن أول محفل تأسس في بلاد الشام إنما تم في سنة 1862م وهو ما ذكره جرجي زيدان أيضا، مما يجعل كلام جرجي زيدان متناقضا، فهو مرة يتهم الأمير عبد القادر بأنه أول من أدخلها إلى بلا الشام في 1864، ومرة أخرى يقول بأن أول محفل تأسس في 1862م أي قبل اعتناق الأمير المزعوم لها بسنتين. أما نسيب نمر فقد حاول أن يثبت انخراط الأمير في الماسونية أثناء سجنه بفرنسا ويرى باحتمال تدخل الماسونيين في فرنسا لدى نابليون الثالث لإنقاذه من الأسر وذلك إذا استطعنا أن نثبت اعتناقه لها قبل محفل الأهرام الأسكندري[3] وسنفند هذا الرأي أثناء حديثنا عن التميمي.

1- اسكندر شاهين، **الماسونية ديانة أم بدعة**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت 1999، ص.27.

2 - حسين عمر حمادة، **الماسونية والماسونيون في الوطن العربي**، ص 104.

3 - نسيب نمر، **الأمير عبد القادر الجزائري والاستشراق**، الأنوار البنانية، 24 آذار، 1983، ع 1979، ص.9.

أما تشرشل فقد أورد في الفصل 24 من كتابه عن الأمير أنه انخرط بها في محفل الأهرام الإسكندري وقد دعي هذا المحفل خصيصا للاجتماع بهذه المناسبة عشية 18 يونيو 1864م[1].

ولكن نلاحظ أن هذا الفصل (24) وهو الأخير من كتاب تشرشل لم يدونه من إملاء الأمير عكس الفصول الأخرى. وهو ما اعترف به في مقدمة الكتاب فذكر انه غادر دمشق في ربيع 1860- أي قبل اعتناق الأمير- المزعوم للماسونية بأربع سنين- وأن المعلومات التي دونها عنه في الفترة 1860-1864 نقلها عن شهود عيان، ولكنه يقصد بهم فقط ما يتعلق بأحداث دمشق 1860م كما هو واضح من النص[2] وليس ما يتعلق بالماسونية.

وأهمّ اتهام للأمير إنما هو اتهام عبد الجليل التميمي الذي يجب أن نتوقف عنده لعرضه ومناقشته.

اتهام عبد الجليل التميمي الأمير عبد القاجدر بالماسونية:

ينطلق عبد الجليل التميمي من اتهام أغلب الباحثين بإهمالهم لدراسة حياة الأمير عبد القادر بدمشق عدا تدخله في أحداث 1860م ويبدأ حديثه عنه بدمشق بتجريمه وجعله شرها للمال غير مبال بالحرام ويستخدم كلمات لا تليق بالأمير ولا بالبحث العلمي النزيه، فيقول: "إن المتتبع لحياة الأمير عبد القادر بدمشق سوف يثير انتباهه تكالب الأمير على اقتناء الدور والأراضي الفلاحية

---

1 - شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم وتعليق أبي القاسم سعد الله، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص.371.

2 - **المرجع نفسه**، ص- ص.59-60.

والحصول على المال مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك"[1] ولكن الوسائل التي ذكرها عندما نتمعنها بدقة لا تدل لا على تكالب ولا على شره أو حرام، ولكنها تعد طبيعية وفقًا لمنطق تطور الأحداث فيقول: "ففي البداية أقرت الحكومة الفرنسية منح الأمير راتبا سنويا بما قدره 15 ألف ف فرنسي، وقد بلغ مع السنين ما قدره 300 ألف ف.ف.- ولسنا ندري هل قدره نظريا أم عمليا؟!- وهو مبلغ خيالي للغاية، وعندما قرر الأمير أن يقوم ببعض الإصلاحات على الدارين اللتين سلمتهما له الإدارة العثمانية بعد أن قامت بتأثيثهما ألحّ الأمير لدى وزير خارجية فرنسا والسفير الفرنسي باستنبول للقيام بتدخلات لدى الحكومة العثمانية في تمليك الدارين...كما ألحّ على السفير نفسه للحصول على مبلغ مالي من الحكومة العثمانية، وقد قدمت له الدولة العثمانية مبلغا قدره مائة ألف فرنك، ويبدو أن الأمير قد سعد كثيرا خاصة وأنه المبلغ يمثل ثلاث مرات المبلغ الذي قرر أن يشتري به مسكنا"[2].

بعد ذلك ينتقل التميمي إلى الحديث عن إخماد الأمير لفتنة 1860م في بلاد الشام فيرى بان تدخله مع ألف من رجاله لإنقاذ المسيحيين وإقرار الأمن والنظام في دمشق يعد مرحلة متطورة للقضاء على حالة الشك والتوتر اللذين لازما الأمير خلال الأربع سنوات الأولى من إقامته، ونتيجة لذلك أخذت تنتشر في أوروبا التآليف التي مجدت الجانب الإنساني للأمير وتسامحه، وعلى

---

1 - عبد الجليل التميمي، "الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق (المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام 1516-1939"، كلية الآداب -جامعة دمشق، مطبعة الطرابيشي، 1979م، ج2، ص.423.

2 - المرجع نفسه، ص.425.

الأخص وفاؤه لوعد الشرف الذي قطعه على نفسه لنابليون بعدم محاربة فرنسا، هذا على الرغم من المصاعب الجمة التي عرفتها الجزائر خلال العقد السادس من القرن 19، ويرهن التميمي على هذا "أننا لا نعرف وثيقة واحدة صادرة عن الأمير تشجع الحركات الانتفاضية في بلاده، أو على الأقل مساندته المعنوية لعدد من الزعماء الجزائريين الذين أبلوا البلاء الحسن حتى آخر رمق من حياتهم —ويرى— أن الأمير ذهب الاحترام وعده إلى حد التنكر لابنه محي الدين الذي تحول سرا لإنقاذ البلاد من فرنسا سنة 1870"[1].

ويرى أن تدخله في فتنة 1860 وتماطل الأوسمة والنياشين عليه من عدد كبير من رؤساء الدول الأوربيين ولاسيما نابليون الثالث الذي قلده وسام الشرف الفرنسي استوجبا انخراط الأمير في الماسونية بعد قناعته بذلك معتقدا أنها ذات طابع إنساني إلى حد اعتقاده أن من لم ينخرط فيها يعد رجلا ناقصا كما ذكر التميمي[2] الذي نشر ثلاث وثائق بخط اليد بالعربية تبين انخراط الأمير في الماسونية.

ويتوصل التميمي إلى النتيجة الآتية:

الأمير عبد القادر حتى معاهدة استسلامه سنة 1847م كان يعد إحدى الشخصيات المغربية الكبيرة، ولكنه انقلب بعد هذه الفترة على عقبيه وضحى دون شك بسمو ماضيه المشرف وفقد منه الكثير بسبب صمته الكامل الذي لازمه حتى مماته[3].

---

1 – المرجع نفسه، ص.431.

2 – المرجع نفسه، ص.453.

3 – المرجع نفسه، ص.431.

تقييم موقف التميمي:

يلاحظ تحامل عبد الجليل التميمي على الأمير حتى من خلال العبارات المستخدمة وإن التحليل النفسي لنصه يدل على وجود أفكار مسبقة في اللاشعور أخرجت إلى مجال الشعور. وإلا لماذا استخدم مصطلح تكالب، فهل هذا المصطلح يليق استخدامه في جناب رجل مثل الأمير عبد القادر؟ وهل هو مصطلح علمي؟ هل يليق أن نصف الأمير بالإصابة بمرض الكلب وهستيريا جمع المال؟ إلى حد عدم المبالاة بالطريقة التي تتبع في جمعه "مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك"، كل هذا من اجل دارين لا من أجل قصرين. وهي البرهنة التي استخدمها التميمي على تكالب الأمير وهي في الواقع ليست برهنة، ولكنها عندما نربط الأحداث مع بعضها نجد أن الأمير حارب فرنسا 17 عاما واحتلت أرضه وسجن بفرنسا 5 سنوات كاملة وفي كل هذه المرحلة كان حكام تونس غير مبالين بما يحدث بل ساهموا فيه بمحاولة شراء قسنطينة ووهران بمليون فرنك لكل منهما[1] مما يعني أنهم اعتبروا استعمار فرنسا للجزائر فرصة لا تعوض وفي كل هذه الظروف، فإنه بعد استعمار فرنسا للجزائر واعتراف الدولة العثمانية بهذا الاستعمار في 1847م[2] فإن الأمير وفقا للقانون الفرنسي آنذاك أصبح أحد رعايا الدولة الفرنسية فما العيب في أن تجري له راتبا سنويا ونحن نعلم أن عشرات الألوف من الجزائريين والتونسيين الآن

---

1 – حمدان خوجة، المرآة، ترجمة محمد العربي الزبيري، ط.2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص-ص.299-300.

2 – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، م.و.ك، الجزائر، 1992، جـ.1، ص.373.

يتقاضون رواتب مختلفة من فرنسا ولا يقومون بأي عمالة لها، وإن المرء يتساءل: هل يعقل أن يتحول الأمير فجأة من النقيض إلى النقيض؟! ناهيك أن تحريم الأمير وجعله شرها للمال غير مبال بالحرام يناقض طبيعته وأخلاقه كما سنذكر.

ونطرح تساؤلا على التميمي؟

ألا يتلقى التميمي إعانات كثيرة من جهات أجنبية –وهو ذو المكانة العالية المرموقة– بماذا أقام مؤسسته المسماة باسمه ومجلتيه وعقاراته؟! من أين له كل ذلك المال والأملاك التي تفوق كثيرا ما كان يملكه الأمير عبد القادر الذي تساوي مكانته مكانة رئيس جمهورية حقيقي، فهل يعد هذا طعنا في شرف التميمي وتكالبا على جمع المال؟!، عندما تقدم له بلده أو دولة أجنبية مبلغا معتبرا من المال هل يرفضه؟ ولو أخذه هل يكون ذلك طعنا في شرفه بالضرورة؟.

إن الأمير عبد القادر عندما يقارن، يجب أن يقارن بأقرانه، ومن العيب أن نتهمه بالتكالب على المال بسبب ترميم دارين.

لقد وصل الأمر بالتميمي إلى حد التهكم بالأمير والسخرية منه، ومن ذلك قوله "ويبدو أن الأمير قد سعد كثيرا خاصة وأن المبلغ يمثل ثلاث مرات المبلغ الذي قرر أن يشتري به مسكنا"، ثم كيف يحتاج الأمير إلى وساطة السفير الفرنسي ووزير خارجية فرنسا للتوسط لدى العثمانيين وهم الذين توسطوا لدى نابليون الثالث كما سنذكر لإطلاق سراحه؟ وهل الأمير كان يصعب عليه الحصول على المال في دمشق وله آلاف الرجال وقد ذكر التميمي أنه تدخل في فتنة 1860م مع ألف من رجاله؟.

وهل كان الأمير يعيش حياة البذخ حتى تحصل له كل السعادة التي ادعاها التميمي؟ لقد بين تشرشل أن الأمير لم يكن يعيش حياة البذخ، وأنه لم يكن يأخذ من المرتب الذي خصصته له فرنسا إلا ما هو ضروري، فكان يعيش حياة التقشف وينفق الباقي على رجاله وعلى المؤسسات الخيرية والمساجد والفقراء وأوجه الخير المختلفة، وكان كثير الصيام ويتناول وجبة في 24 ساعة تتمثل في الخبز والزيتون[1]. فهل يعد هذا متكالبا على جمع المال؟!. يقول تشرشل عن تقشفه "وكان قد أنهك هذا التقشف القاسي الطويل قواه حتى ظهر على بدنه الحديدي"[2] وأما الوعد الذي قطعه لنابليون الثالث على عدم محاربة فرنسا، فهل كان الأمير قادرا على محاربتها؟ إن الأمير لم يستسلم في 1847م إلا بعد نفاد كل ما لديه من طاقة وخذلان ملك المغرب له ومحاربته له وعجزه عن مواصلة الجهاد، وهنا لا نكون منطقيين عندما نلوم الأمير على التراخي في بلاد الشام إن حصل، لأن 17 عاما من الجهاد تضاف إليها 5 سنوات من السجن ليست بالأمر الهين، فإنها قد تقتل الإنسان وتجعله غير قادر على العمل، ناهيك أن إطلاق سراحه كان مكفولا من السلطان عبد المجيد بأن لا يعود لحرب فرنسا وأن إقامته في اتفاقية إطلاق سراحه محدودة ببنود اتفاقية الاستسلام إلى سوريا أو مصر[3] وهو ما يعرفه التميمي جيدا[1].

---

1 – تشرشل، **المصدر السابق**، ص-ص. 349-369.

2 – **المرجع نفسه**، ص 369.

3 – مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، ط.1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، جـ.2، ص.280.

إن الأمير عبد القادر ظل تحت الإقامة الجبرية في بروسة ولَمْ يؤذن له بمغادرتها إلا بعد الزلزال الذي دمرها في 1855م و لم يتخذ دمشق مقرا جديدا له إلا بعد موافقة فرنسا على ذلك بعد ذهاب الأمير إليها والاتفاق مع امبراطورها[2]. فكان إذن شبه سجين في بروسة كما يقول أبو القاسم سعد الله "وتحت إقامة جبرية في دمشق لأنه كان تحت نظر القنصلية الفرنسية من جهة، وعيون والي دمشق العثماني من جهة أخرى حتى أنه كان لا يتحرك لأي مكان إلا برخصة"[3] إلى حد أنه لم يتمكن من الذهاب إلى الحج إلا بعد ترخيص من نابليون الثالث وقد عبّر تشرشل عن هذه الإقامة أحسن تعبير حين اعتبر إقامته في كل من بروسة ودمشق منفى[4].

ولكن التميمي رغم ما ذكرنا وعلمه بذلك فقد برهن على صحّة رأيه بعدم صدور أي وثيقة من الأمير تشجع الانتفاضات في الجزائر أو على الأقل المساندة المعنوية لزعمائها ويذكر أنه تنكر لابنه محي الدين عندما تحول سرا إلى الجزائر للجهاد. والواقع أن الظروف التي كانت موجودة آنذاك لم تكن تسمح له بالوثيقة، فقد كان وهو بدمشق بمثابة من كان تحت الإقامة الجبرية كما ذكرنا ولاسيما في فترة العلاقات الممتازة بين فرنسا والدولة العثمانية، ولكنه

---

1 – عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، 16 جويلية 1979م، ع.15، ص.5، عن مولود قاسم: المرجع السابق، ص.280.

2 تشرشل: المصدر السابق، ص.349.

3 أبو القاسم سعد الله: تقديم كتاب تشرشل **حياة الأمير عبد القادر**، ص.16.

4 – تشرشل، المصدر السابق، ص-ص. 57-58-36.

مع هذا فقد تدخل لمساندة أولئك الزعماء عكس ما ادعاه التميمي، وهو ما يدل على تتبعه لما كان يحدث في الجزائر، ومن الأمثلة على هذا:

فقد تدخل لدى باي تونس مرتين لصالح ابن ناصر بن شهرة، الأولى لدى الباي خير الدين التونسي بغية تصفية أملاكه التي خلّفها في تونس بعد أن طرده بايها خدمة لفرنسا في 1875م والثانية لدى الباي مصطفى ابن إسماعيل في قضية لازالت مجهولة، وعندما نعرف علاقة ابن شهرة بمحي الدين بن الأمير عبد القادر حيث أتى لمناصرته، فهو الذي مهد له الطريق عندما وصل إلى الحدود الجزائرية أوائل عام 1871م وكتب كثيرا من الرسائل إلى معظم الزعماء بالصحراء الشرقية الجزائرية يستحثهم على حمْل السلاح واللحاق به ومحي الدين ثم التحاق ابن شهرة بالأمير عبد القادر بدمشق بعد خروجه من تونس في 2 جوان 1875م، وظل بدمشق في جوار الأمير على وفاته في 1884م[1]. مما سبق ندرك مساهمة الأمير في تلك الثورات إن بطريق أو بآخر عكس ما ذهب إليه التميمي.

وأما قضية تنكره لابنه محي الدين، فرغم أن التميمي يستند إلى وثيقة تنسب إلى الأمير تأييد فرنسا أثناء ثورة 1871م وتنكره لابنه محي الدين، فإن هذه الادعاءات كما يقول أبو القاسم سعد الله غير مسلم بها، فتخليه عن ابنه قد يكون تقية فقط، والوثيقة المنسوبة إليه قد تكون مزورة[2].

---

1 - يحي بوعزيز، **ثورة الجزائر في القرنين 19 و20**، ط.1: دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980م، ص.181.

2 - أبو القاسم سعد الله، تقديم كتاب **تشرشل**: ص-ص. 48-49.

وهنا يمكن أن نتساءل عكس ما ذهب إليه التميمي: هل صدر من الأمير ما يثبط العزائم أو يدعو إلى التخاذل ووضع السلاح والاستسلام لفرنسا؟ وهنا بدل مهاجمة الأمير كان يجب على التميمي إدانة باي تونس الذي اعتقل ابن ناصر بن شهرة وصادر أملاكه خدمة لفرنسا وولاء لها وليس إدانة الأمير الذي تدخل لصالحه وألحقه به في دمشق.

وأما قضية احتمال انخراط الأمير في الماسونية بفرنسا ليُستنتج منها احتمال تدخل الماسونيين لدى نابليون الثالث لإطلاق سراحه، فهو أغرب من الخيال، وإلا متى كان الماسونيون يحبون الأمير حتى يسعون لتحريره، فهذا الاحتمال لا أساس له من الواقع، ونبرهن عليه من خلال ما يأتي:

1- الذي حارب الأمير عبد القادر في الجزائر -وهو على علْمٍ بهذا- كما يقول أبو القاسم سعد الله: جيوش فرنسا ومعمروها والكنيسة والماسونية الصهيونية- وهي التي كانت في الجزائر مع اليهود- ووفدت إليها مع جيوش الاحتلال- فتآمرت على دولة الأمير "الماسونية خصوصا في الدوائر المحيطة بالحكومة الفرنسية وحاشية الملك وقطعان التراجمة والمستشرقين الذين توافدوا على الجزائر، لأن دولة الأمير كانت دولة عربية سلفية شريفة لو انتصرت لكانت خطرا عظيما على مخططات الماسونية الصهيونية في الشرق، ولكانت أول دولة توحد العرب على كلمة الجهاد كما وحَّدتهم عليها زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وزمن الخلفاء الراشدين"[1]، ويبدو أن هذا هو السر الذي

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، دط، م.و.ك، الجزائر، 1992م، ج.1، ص.1، ص-ص. 274-275.

جعل الأمير وهو بدمشق يسعى لجعل حاكم بلاد الشام عربيا، ولكن تابعا للخلافة العثمانية بدل الحكام الأتراك الذين نخرهم الماسونية والفساد.

2- قضية إطلاق سراح الأمير محسومة تاريخيا ولا تسمح بتأويلات المتأولين واحتمالات المغرضين فهي تمت بوساطة "وكفالة السلطان العثماني عبد المجيد - لدى نابليون الثالث- بتدخل من شيخ الإسلام في الخلافة العثمانية عارف حكمت، على إثر مجلس خاص عقده الخليفة لذلك لإنقاذه من الأسر"[1].

وقد عبر الأمير عن هذا لدى وصوله إلى بروسة بتركيا لواليها صهر الخليفة بقوله: "لولا كفالة مولانا المعظم السلطان لدى نابليون الثالث ما خرجنا من قبضة الأسر"[2]، وهو ما جعله يمدح هذا الخليفة ومما قاله فيه:

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن &&& قد أكمل الله فيه الدين إكمالا

عبد المجيد حوى مجدا وعزا على &&& وجلّ قدرا. كما قد تم أقوالا

كهف الخلافة كافيها وكافلها &&& من لا عهدنا له في القرن أمثالا[3]

والنتيجة التي نتوصل إليها أنّ هذه القضية محسومة تاريخيا فلا يعقل إغفالها والذهاب إلى الاحتمالات التي لا تحتمل؛ وهنا يطرح تساؤل وجيه في تصورنا هو: لماذا استجاب نابليون الثالث لتوسط وكفالة الخليفة العثماني السلطان عبد المجيد؟

---

1 - مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل** سنة 1830. جـ.2، ص.280.

2 - محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1964م، جـ.2، ص.594.

3 - المرجع نفسه، ص.575.

والجواب في نظرنا يتمثل في العلاقات الممتازة التي كانت في هذه الفترة تربط بين تركيا وفرنسا، ونكتفي بالإشارة إلى بعض ما تم بينهما في عهد هذا السلطان أي السلطان عبد المجيد.

ففي عهده اعترفت تركيا باستعمار فرنسا للجزائر وذلك في 1847م كما ذكرنا قبلا.

وهو الذي توسط لدى نابليون الثالث لإطلاق سراح الأمير فأطلق سراحه في شهر ديسمبر سنة 1852م[1] بعد 5 سنوات من الأسر. ويبدو وأن هذا السلطان ضمن لدى نابليون الثالث عدم محاربة الأمير لفرنسا بعد إطلاق سراحه وهو ما يفهم من نص الأمير السابق ذكره "لولا كفالة مولانا السلطان". وهنا ماذا يضير فرنسا عندما تطلقه وقد ضمنت سكوت تركيا عن جرائمها في الجزائر وتوسعها في أقطار أخرى لاحقا؟.

وفي عهد هذا السلطان وقعت حرب القرم المشهورة في البحر الأسود بين الدولة العثمانية وروسيا، وذلك ابتداء من 1853م[2]، ويهمنا هنا أن فرنسا دخلت هذه الحرب كحليف للسلطان العثماني لعدة أهداف منها:

كسب ودّ الجزائريين وإخفاء جرائمها وتكوين رأي عام جزائري يثق في فرنسا ويؤيدها مادامت صديقة للدولة العثمانية كما يذكر سعد الله وتبييض وجهها في المشرق الإسلامي لمد نفوذها إليه ومنافسة الإنجليز، وقد شاركت فرنسا بقوات معتبرة انطلقت من الجزائر في 1854م تتمثل في 24540 من

---

1 - أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، جـ1، ق1، ص.408.

2 - يوسيل عكّولة وآخرون: **المنجد في اللغة والأعلام**، ص.453.

القنطازية و1600 فارس إضافة إلى المشاة وفرق الخدمات إضافة إلى ألفي جندي جزائري وكذا من شارك من الجزائريين من المشرق الذين رافقوا الأمير أو فروا بعده. وأطلق على كل هذه القوات: فرقة نجد الدولة العثمانية مبالغة في التأثير. وقد قاد هذا الجيش السفاح الجنرال بيليسييه[1]. وقد انتصر العثمانيون في هذه الحرب فرقت فرنسا جنرالها إلى مارشال بلقب الدوق دي مالكوف"[2].

والنتيجة التي نتوصل إليها أن الأمير أطلق في هذه الظروف ولا علاقة للماسونية بذلك. وفي عهد هذا السلطان صدر الخط الهمايوني (المرسوم السلطاني) وهو الذي أصدره في فبراير 1856م تحت ضغط الدول الكبرى، ويسمح هذا المرسوم للدول الغربية بالتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية عن طريق الأقليات المسيحية[3]، بمعنى أصبح من حق هذه الدول التدخل تحت غطاء حماية الأقليات المسيحية، ويعد هذا المرسوم تتويجا لمساعدة فرنسا وبريطانية ومكافأة لها على ذلك. وقد كرسته معاهدة باريس الموقعة سنة 1856م[4]، وفي إطار هذا المرسوم وقعت أحداث الشام التي سنتحدث عنها.

---

1 – من جرائمه: إبادة قبيلة أولاد رياح بناحية الظهرة في يونيو 1845م، وذلك أنها فرت إلى غار الفراشيش برجالها ونسائها وأطفالها وحيواناتها، وكان للغار بابان، جمع أكوام الحطب في مدخلي الغار وأشعل النار أياما فمات أكثر من ألف شخص إضافة إلى حيواناتهم (سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية: ص 238–240).

2 – أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ص–ص.404–405.

3 – **المرجع نفسه**، ص.412، هامش.13.

4 – تشرشل، المصدر السابق، ص.253.

نتوصل مما سبق إلى أن الاستنتاج الذي بني على احتمال تدخل الماسونيين في فرنسا لإطلاق سراح الأمير لا أساس له من الصحة، وأنه استنتاج شخصي يدخل ضمن التصور المسبق الذي انطلق منه، وإذن لا يمكن بناء أي شيء عليه، وننتقل الآن إلى الحديث عن الوثائق التي اكتشفها التميمي وذكر بأنها بخط يد الأمير.

وثائق خط اليد:

إن التعرف على خط الأمير ونسبته إليه يحتم نقد الوثيقة من حيث الشكل ومن حيث المضمون. ومما يقوم عليه النقد؛ هل تلك الوثائق أصلية؟ وهل هي فعلا للأمير؟ وفي أي تاريخ كتبت؟ وهل كل ما بها أصلي أم أضيف إليه ما لم يكن في الأصل إما تزويرا وتحاملا —ولا سيما أنّ أعداء الأمير كثيرون- وإما عن سوء فهم كما يقول محمود قاسم[1]. هذه التساؤلات تعد في تصورنا من الأهمية بمكان وذلك ليس طعنا في التميمي ولكنه لصعوبة التعرف على خط الأمير الحقيقي ونسبته إليه وهذا لسهولة تقليده، ودليلنا في ذلك المساجلة العلمية القيمة التي وقعت بين د.إسماعيل زروخي[2] والأميرة بديعة الحسني[3] حول كتاب المواقف.

1- محمود قاسم، **المنطق الحديث ومناهج البحث**، دار المعارف، القاهرة، ص-ص 502-206.

2- إسماعيل زروخي، "قراءة تحليلية لآراء الأميرة الحسني حول كتاب **المواقف** للأمير عبد القادر"، **مجلة الحوار الفكري**: مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة، الجزائر، جويلية 2001، ع.1، ص 146-155.

3- الأميرة بديعة الحسني، **فكر الأمير عبد القادر، مجلة الحوار الفكري**: نوفمبر 2004، ع4، ص ص 127-145.

وهنا نتساءل: لماذا لا يكون أحد أعداء الأمير هو الذي كتب تلك الوثائق تزويرا ونسبها إليه ليشوهه، وأعداؤه كثيرون ومنهم الماسونية التي حاربته في الجزائر كما ذكرنا قبلا.

وهل يعقل أن يصل الأمر بالأمير إلى حد التبجح بالماسونية ويعتبر من لم يعتنقها يعد ناقص العقل مما يعني أنها فوق الإسلام. فمحتواها يتناقض مع طبيعته وأخلاقه. ناهيك أن أغلب الماسونية لا يجاهرون بها.

ثم لو كان الأمير ماسونيا ووصل على حد التبجح بها فهل يخفى ذلك على ابنه حيث إنه لم يورد في تحفة الزائر خبر اعتناقه لها[1]. فكيف تخفى تلك الوثائق على ابنه؟ هل يعقل أن يخفي الأمير اعتناقه للماسونية عن ابنه ومع ذلك يكتب ثلاث وثائق كاملة مفتخرا ومتبجحا بالماسونية؟ أم أن ابنه يخجل مما كان يفتخر به أبوه؟ وهذا لا يمكن قبوله أبدا، إذ كيف يفتخر بها الأمير وينفيها ابنه عنه، ثم هل يعقل أن ينخرط الأمير في الماسونية في طريق عودته من الحج؟ وكأن إقامته بالحرمين الشريفين سنة ونصف قضاها كلها في الصوم والصلاة والطواف والذكر والزيارات الروحية وتعميق البعد الروحي- كانت فترة تربص في الماسونية ليعتنقها في الإسكندرية في طريق العودة.

لقد قضى الأمير عبد القادر سنة ونصف كما ذكرنا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، من 1 رجب 1279هـ إلى 19 محرم 1281هـ/13 كانون الأول 1862م إلى 24 حزيران 1864م وخصص كل وقته في الحرمين الشريفين

1- فؤاد صالح السيد، **الأمير عبد القادر في دمشق**، مجلة الثقافة وزارة الثقافة، الجزائر، ماي- جوان 1983م، ع75 (عدد خاص بالأمير)، ص 270.

للدراسات الدينية والتعبد والصلاة فكان لا ينام في اليوم إلا 4 ساعات ولا يأكل إلا مرة واحدة. وقد اخذ وهو بمكة الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة وخصص من تلك 4 أشهر في المدينة المنورة من 26 رجب 1280هـ إلى 27 ذي القعدة 1280هـ/ 6 كانون الثاني 1864م إلى 4 آيار 1864م متبعًا ما قام به في مكة المكرمة من الانقطاع للعبادة والعلم والإكثار من زيارة أحد وقبور الشهداء[1]. فهل يعقل بعد هذا العمل الروحي الجبار أنه يعتنق الماسونية وهو في طريق العودة وكأن تعميق هذا البعد لروحي كان تربصا للتمسين؟ إن الزعم بالانتساب إلى الماسونية أثناء العودة من الحج يهدف في تصورنا إلى الطعن في ورعه وتقواه.

يضاف إلى هذا تناقض الماسونية مع ما اشتهر به الأمير من التقوى وقوة التدين والالتزام بالخط الصوفي. وهو الخط الذي كان جزءا- كما يقول فضيلة أستاذنا عمار طالبي "جزءا من حياة أسرته التي لا تته عليه وأشرب قلبه منذ صغره بذاك الجو الروحي فكان والده محي الدين (1195هـ-1249هـ) صوفيا راسخ القدم في الطريقة القادرية...وصحب الأمير عبد القادر والده في رحلته إلى الحج وزار معه بغداد وضريح الصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلالي، فكان لذلك كله أثره في نفسه وفي اتجاهه في الحياة"[2]. وهو ما بينه الأمير عبد القادر نفسه فذكر غرامه بقراءة كتب المتصوفة منذ صباه[3] وختم حياته بالتمذهب بمذهب محي الدين بن عربي واشتغل بمطالعة كتبه وتفسيرها وألف

1- المرجع نفسه، ص ص 268-269.

2- عمار طالبي، الأمير عبد القادر والتصوف، مجلة الثقافة، ع سابق، ص 255.

3- الأمير عبد القادر، كتاب المواقف، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966م، ج1، ص 46.

كتابا ضخما في التصوف هو كتاب المواقف، وقد تكفل بطبع الفتوحات المكية لأول مرة، وأوصى بأن يدفن بجانب محي الدين بن عربي[1]. وقد دفن بجانبه بالفعل[2]. فالذي طغى على حياته إذن هو التصوف وليس التمسين. والتناقض بينهما واضح.

تضاف إلى ما ذكرنا سابقا قضية أخرى مهمة تتمثل في دحض حفيده محمد سعيد لتهمة التمسين حيث كتب مقالا بعنوان: "الأمير عبد القادر والجمعية الماسونية" برأ فيها الأمير عبد القادر من انخراطه في الماسونية وبين أن زيارته لمحفل الأهرام الإسكندري مجرد زيارة مجاملة بناء على طلب أعضائها و لم تكن انخراطا في سلكها فاغتنم البعض هذه الزيارة لاتهامه بها ونص كلامه "بينما كان الأمير عبد القادر عائدا لسوريا عن طريق الإسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها لتعرض عليه المبادئ الماسونية. وعندما ذكر الوفد المشار إليه فضائل الماسون وخدمتها في الإنسانية شكرها الأمير على عملها الذي ادعته، فاتخذ بعض المنتمين للجمعية ذلك الاجتماع ذريعة حسنة لنسبة دخول الأمير جمعيتهم"[3]. وقد دحض الدعوة السابقة بدليلين. أحدهم ورعُ الأمير وتقواه وقد اشرنا إليه قبلاً والثاني أن الماسونية كباقي الجمعيات، كل من يريد الانخراط فيها يقدم طلبا للانخراط بها بموجب استدعاء فإذا تم له ذلك وقبل طلبه كلف بوضع

1- عمار طالبي: **المرجع السابق**، ص 255.256.

2- فؤاد السيد صالح، **المرجع السابق**، ص 274.

3- الأمير محمد سعيد الجزائري، **الأمير عبد القادر والجمعية الماسونية**، مجلة **الحقائق**، دمشق 1329هـ ، مج2 ج2، نقلا عن فؤاد السيد صالح: **المرجع السابق**، ص 270.

إمضائه في سجل أعمالها وعليه أن يكتب بأنه انخرط بإرادته واختياره. هذه الوثائق المادية أقوى دليل، وكل من يتهم الأمير بالتمسين فما عليه إلا أن يظهر هذه الوثائق بخط الأمير وإمضائه[1]. وهذه القضية أيضا تعد من الأهمية بمكان مما يجعلنا نكرر طرحها بطريقة أخرى فنقول: هل عثر على بطاقة انخراط الأمير في محفل الأهرام؟ لأنه من المعروف أن كل منتمي تسلم له بطاقة انخراط؟ كذلك من المعروف أن كل محفل له قائمة اسمية بأعضاء منخرطيه. فيما أسماؤهم ووظائفهم في المحفل وإمضاءاتهم. فهل وجد اسم الأمير في قائمة أسماء أعضاء محفل الأهرام بإمضائه؟ والجواب: لا، في حدود علمنا، إذن ما هو الدليل على انخراطه في هذا المحفل؟

ما قيمة الانتساب إلى محفل الأهرام؟ لأن المعروف أن الانخراط في الماسونية يعني حضور اجتماعات منطقة تحتوي على جدول أعمال ينفذه الأعضاء وهذا يقتضي أنه يتمسين الشخص في محل إقامته ليتسنى له أداء الدور المنوط به والانتظام في سلكها أو يفتح محفلا جديدا في محل إقامته تابع للمحفل الذي انخرط فيه. ولم يعرف أن الأمير كان يتردد بانتظام على الإسكندرية، ولم يعرف محفل في دمشق تابع لمحفل الأهرام وكان الأمير يتردد عليه كما لم يعرف أن الأمير أسس محفلا في دمشق تابع لمحفل الأهرام.

يضاف على ما سبق: هل هناك من رأى الأمير يتردد على المحافل الماسونية في دمشق؟ وهل وجد اسمه بإمضائه في قائمة أعضاء محافلها، والجواب في حدود علمنا. لا، ولكن الثابت أن الأمير كان يتردد على مساجد دمشق إلى

---

1 - المرجع نفسه، ص 78.

حد أنه كان من عمارها. وكان وقته مقسّما بين التدريس والصلاة والتأليف والخلوة الصوفية كما سنبيّن وقد أوصى بأن يدفن بجانب محي الدين بن عربي كما ذكرنا لا بجانب أحد الماسونيين وهو أول من حقق الفتوحات المكية ونشره ممّا يعني أنه كان غارقا في التصوف. أي كان مسترسل الاتصال بالله عز وجل. وهذا كله يتناقض مع طبيعة الماسونية، يضاف إلى هذا مكانته الاجتماعية وسط المسلمين والمسيحيين على السواء، وهي مكانة لم يبلغها إلا القليل من العظماء. وقد ظلت هذه المكانة إلى الآن ويبدو أن التميمي ذهب إلى دمشق لتشويهها.

ثم هل أعلن الأمير في حياته الانخراط في الماسونية؟ وهل اتهمه أحد في حياته بالانتساب إليها وعلم بذلك وأقرّ أو سكت لما أعلن الأفغاني ومحمد عبده الانتساب إليها وأعلن محمد عبده خروجه منها وعدم فائدتها[1].

بينما الأمير لم يعلن ذلك. فلو كان يرى فيها ما ذكر في تلك الوثيقة التي نشرها التميمي فهل يعقل أن يخجل من التصريح بالانتماء إليها إن في الصحافة أو في مجالسه؟ أنه كتب "المواقف" في هذه المرحلة وهو يتناقض كليا مع طبيعة الماسونية.

كل ما سبق يدخل نسبة نلك الوثائق إليه، ومع ذلك فلو فرضنا بأننا تمكنا من نسبة تلك الوثائق إليه تحتم علينا نقدها من حيث الموضوع، ويتحقق ذلك إضافة على معرفة محتوياتها:

1- لويس شيخو، **السر المصون في شيعة الفرمسون**، الكراس الثالث: ص 49.

تقدير الظروف التي أحاطت بكتابتها، ومعرفة مدى مطابقة الآراء الموجود في الوثيقة لما حدث بالفعل[1].

ونتساءل:

هل عبر الأمير عن حقيقة انتمائه أم أن ذلك مجرد استراتيجية اتخذها لتحقيق أهداف معينة؟ ذلك أن المسؤولين الكبار كثيرا ما يعبرون على غير ما يعتقدون مجاملة أو إستراتيجية. وهنا نتوصل إلى عكس النتيجة التي توصل إليها التميمي وتتمثل نتيجته في أن الأمير عبد القادر صار في بلاد الشام شخصية أخرى ضحت بسمو ماضيها المشرف واتسمت بالصمت الكامل إلى الوفاة. هذه النتيجة غير صحيحة في تصورنا وبرهاننا يتمثل في الإشارة إلى الأمير في بلاد الشام

الأمير في بلاد الشام:

عندما وصل الأمير إلى الشام في 1855م واستقر بها[2] وجد بها ظروفا أخرى تختلف عما عليه الحال في الجزائر أدت إلى وضع صعب يتمثل —من ضمن ما يتمثل فيه– في ثلاثة عناصر جوهرية.

1– الصراع الطائفي.

2– تربص الدول الغربية الصليبية بالمنطقة.

3– الظلم التركي.

1– محمود قاسم، **المرجع السابق**، ص–ص 519–520.

2– أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص 408.

وإذن يمكن القول بأن الأمير وجد في بلاد الشام معطيات جديدة جعلية يتعامل معها بكيفية جديدة تختلف عن معاملة مع أوضاع الجزائر يمكن تلخيصها في النشاط السياسي الفكري لأنه هو الأنسب للمنطقة ناهيك عن انه لم تكن النزعة الوطنية آنذاك مبثوثة كما هي اليوم كان الطابع الإسلامي هو المهيمن على المسلمين فأخذ يعمل على أن لا تتكرر مأساة الجزائر في بلاد الشام لأنها هي أيضا بلده بحكم المنطق الإسلامي فأخذ يعمل بكل ما لديه من قوة على صد الاستعمار عنها. ولا يمكن صده إلا بمعرفة مخططاته سلفا ولا سيما في مرحلة تقاسم تركة الرجل المريض ومن هنا فحتى لو فرض انخراطه في الماسونية. لماذا لا يفسر ذلك بإمكانية أن يكون بهدف الوصول من الداخل أي من داخل هذه الدوائر الاستعمارية ذاتها إلى معرفة ما يدور بداخلها من دسائس وتخطيطات ليتمكن من حماية بلاد الشام من الاستعمار فلا يقع له ما وقع للجزائر.

ومهما يكن من أمر. فها هي جوانب مهمة متعددة من حياة الأمير في بلاد الشام. تبين عكس ما توصل إليه التميمي.

جوانب من حياة الأمير في بلاد الشام: وتتمثل فيما يأتي

1- الاشتغال بالتدريس والتأليف والانقطاع للعبادة والتصوف والتأثير الاجتماعي:

هو وأتباعه، ومنهم صهره مصطفى بن التهامي، وصالح السمعوني (والد الشيخ طاهر الجزائري)[1] وقد صار بيته وأسرته مدرسة، ويكفي أن تعرف بأن إحدى حفيداته هي التي أسست أول مدرسة للبنات في بلاد الشام.

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى بعض ما قام به الأمير في ذلك:

يذكر الباحثون أن الأمير قضى 27 عاما (1856-1883م) في دمشق في القراءة وحلقات العلم والتأليف والعبادة والتأمل الصوفي.

فما يتعلق بالتدريس، فقد طلب منه علماء دمشق وفقهاؤها أن يكون أستاذهم وقد حصل وكانوا يجتمعون به بالجامع الأموي ثلاث ساعات يوميا ابتداء من صلاة الظهر. وقد كان محور الدروس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بمنهجية جديدة لم تعهد من قبل بسبب تضلعه في الفلسفة وتوظيفها في التدريس والمناقشة. كما درس أيضا بالمدرسة الأشرفية (دار الحديث النووية) والمدرسة الجقمقية (شمال الجامع الأموي) كما درس أيضا بزاوية أبي النصر ببيروت كما درس في منزله ابتداء من 1864م ومن الكتب التي درسها. فقد ختم صحيح البخاري في 24 شوال 1274م/ 3حزيران 1858م بدار الحديث النووية والإتقان في علوم القرآن للسيوطي وكتاب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز لأحمد المبارك في المدرسة الجقمقية وفي شهر رمضان 1275هـ/نيسان 1859م واعكتف بالجامع الأموي وقرأ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض والصحيحين في مشهد الإمام الحسين والمشهد

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 408.

السفر جلاني من جامع سيدي يحي[1] كما قرأ كتاب الإحياء للغزالي أما الإنتاج العلمي فقد تولى الأمير طبع الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي لأول مرة[2] وذلك بعد أن قام بتحقيقه إذ نجده في سنة 1871م يرسل نسخة منه مع عالمين جليلين إلى قونية بتركيا الأسيوية لمقابلتها وتصحيحها طبقا للنسخة الأصلية الموجودة بها بخط محي الدين ابن عربي. وبعد التصحيح قرأها على بعض الخاصة من العلماء في بيته قبل أن ينشرها[3].

ويجب أن نذكر هنا بأن بيته صار مأوى للعباد الذاكرين وكبار علماء التصوف ومنهم الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت/1916م) والشيخ محمد الخاني (ت 1279هـ/1862)[4] وغيرهم: ومن خلال هذه اللقاءات أنتج الأمير كتاب المواقف[5].

نتوصل مما سبق إلى أن الجانب العلمي والتعبدي استحوذ على الأمير بدمشق إلى وفاته، فكيف يعقل أن تتسرب إليه الماسونية وهو في هذا الجو المشحون بروح الإيمان والقرآن والسنة والتصوف؟. وها هي حياته اليومية في دمشق كما نص على ذلك تشرشل (كان ينهض ساعتين قبل الفجر وينغمس في الصلوات والعبادة حتى الشروق، ثم يذهب إلى المسجد. وبعد أن يقضي هناك نصف ساعة في الصلاة العامة —صلاة الضحى– يعود إلى منزله فيتناول

1- فؤاد صالح السيد، **المرجع السابق**، ص-ص. 263-265.

2- عمار طالبي، **المرجع السابق**، ص 257.

3- فؤاد السيد صالح، **المرجع السابق**، ص 265.

4- ومن أراد ترجمتهافليرجع إلى فؤاد صالح السيد، **المرجع السابق**، هامش ص 266.

5- **المرجع نفسه**: ص-ص.265-266.

وجبة سريعة، ثم يدخل مكتبه للدراسة إلى نصف النهار، وعلى صوت الأذان يعود إلى المسجد فيأخذ مكانه ويفتح الكتاب المعين للمناقشة ويقرأ بصوت عال. وكان يتوقف باستمرار عند طلب تلك التوضيحات التي تفتح المستودعات المتنوعة والمتراكمة لسنواته المضطربة من دراسته الشاقة ومن التحقيق والبحث. وكان هذا الدرس يستغرق ثلاث ساعات. وبعد صلاة الظهر يعود عبد القادر على مترله حيث يقضي ساعات مع أطفاله، متفحصا تقدمهم في دراستهم، ثم يتناول الطعام، وعند الغروب يعود إلى المسجد حيث يعطي درسا يستغرق ساعة ونصفا. وبذلك ينتهي واجبه اليومي كأستاذ. ولكن ما يزال في اليوم بعض الساعات وهي التي يقضيها في مكتبته. ثم يذهب للراحة"[1].أما سخاؤفها هو ما يقوله تشرشل: (إن عبد القادر شديد الاحتفاظ بتوقيت الصدقات ففي كل يوم جمعة يشاهد المرء الشارع الذي يقود إلى مترله مليئا بالفقراء الذين تجمعوا لأخذ نصيبهم من الخبز في الموعد المحدد. وكان الموتى من الفقراء يدفنون من حسابه الخاص سواء كانوا من صيدا أو من دمشق كلها. إذا كانوا حقا معوزين. ومهما كانت مشكلة العوز فإنها لا تحتاج إلى أكثر من لفت انتباهه إليها حتى يقوم بحلها. وكان يقدم بانتظام وفي كل شهر من عشرين جنيها إنكليزيا هبات خيرية[2].

أين الماسونية في هذا الجو المشحون بروح الإيمان والاتصال المستمر بالله عز وجل؟

1- تشرشل، **المصدر السابق**، ص 367.

2- تشرشل، **المرجع نفسه**، ص-ص 367-368.

وأين التكالب على المال في هذا السخاء بالمال؟

2- إخماد فتنة 1276هـ/ 1860م الطائفية بين الدروز والنصارى في دمشق:

يعد إخماد الأمير لحقدة الفتنة من أكبر أعماله. بحيث يقم بغيره لكفاءه، وهو موقف يدل على تشبعه بقيم الإسلام الذي جاء رحمة للعاملين "وما أرسالناك إلا رحمة للعاملين"[1]، وهو أيضا موقف إنساني نبيل. وقد شرع الأمير في إخمادها قبل وقوعها حيث جمع العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وحثهم على إخمادها والتجنيد لذلك. ومما قاله في تلك الخطب: "إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، أجل وأقدس من أن يكون خنجره جهالة، أو معول طيش. أو صرخات نذالة تدوى بها أفواه الخثالة من القوم... أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو يكون له على نفوسكم سبيلا"[2] ورغم هذا الجهد فإن الفتنة انطلقت بدمشق يوم الإثنين 20 ذي الحجة 1276هـ/ 9 تموز 1860م وبقيت سبعة أيام متوالية. وبين جرجي زيدان أن الأمير لم يغتر فيها لحظة عن نصرة النصارى وإنقاذهم من القتل وتطبيب الجرحى، وتعزية الثكالى والأرامل واليتامى: وكان يقظي أكبر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرسا على حمايتهم إلى حد أنه إذا غلبه النعاس أسند رأسه إلى فوهتها قليلا"[3]، وشهادة جرجي زيدان هنا لها وزنها ودلتها. شارك الأمير

---

1 - الأنبياء/ 107.

2 - فؤاد السيد صالح، **المرجع السابق**، ص 266.

3 - جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق**، ج1، ص 192 عن فؤاد السيد صالح. المرجع السابق، ص 267.

بأكثر من ألف رجاله كما ذكر التميمي بحيث جهز جيشا من الجزائريين الذين هاجروا معه أو قبله- أو بعده- إلى دمشق وحمى النصارى المهددين في داره وأملاكه- وقلعة دمشق- بالسلام[1]. فبلغ عدد الذين أنقذهم من الموت ممن ألتجأ إلى داره وقلعة دمشق نحو 15 ألف مسيحي مما جعل كل نصارى دمشق مدينون له[2]. واستحق بذلك شكر وثناء ملوك ورؤساء دول العالم والجمعيات العلمية والمؤسسات الخيرية[3].

وهنا نتسأءل: ماهي أسباب هذه الفتنة؟ وماهي الدوافع التي حركت الأمير لإخمادها؟.

سبب الفتنة: سببها الدول الأوروبية، فهي التي أثارت الفتنة لإيجاد مبررات التدخل لمواصلة الإجهاز النهائي على الرجل المريض [4] وتقاسم تركته، انطلقت الفتنة بين النصارى والدروز في جبل لبنان بسبب ما ذكرنا من وجود أصابع خارجية –أوروبية- لإيجاد مبرر للتدخل في شئون الدولة العثمانية، مستغلة الجهل والتعصب، ثم امتدت إلى دمشق بين المسلمين والنصارى رغم قرون من

---

1 – أبو القاسم سعد الله. **الحركة الوطنية**. ج1. ق1، ص 408.

2 – فؤاد السيد صالح، **المرجع السابق**، ص 267.

3 – أبو القاسم سعد الله، **الحرية الوطنية**، ص 408.

4 – الحبيب الجنحاني، **حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19**، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي فرد وزراة التعليم الأصلي والشئون الدينية، الجزائر، 1973، م3، ص 1062.

التجاور والتآلف والتصافي [1]. ويكفي أن نعرف بأن هذه الفتنة وقعت بعد صدق الخط الهمايوني (المرسوم السلطاني) في عهد السلطان عبد الحميد في فبراير 1856م أي بعد 4 سنوات من صدوره وهو المرسوم الذي يسمح للدول الكبرى الاستعمارية بالتدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية عن طريق الأقليات المسيحية[2]. وهو ما بينه الأمير محمد بن الأمير عبد القادر بقوله:((إن الباعث له- الأمير عبد القادر- على حمل تلك المشاق تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها، إذ لو لم يقف في وجه الغوغاء لا ستأصلوا النصارى واستحلموهم، وتفاقم الأمير أكثر مما وقع وبذلك يحصل للدولة العثمانية من الارتباك ما لايخفى[3]. ويؤكد هذا تواجد الأسطول الفرنسي بيروت وعلى متنه 10 ألاف جندي فرنسي[4]، وقد أحتلوا مدينة بيروت وأحوازها وهددوا باحتلال دمشق وقنبلتها [5]. إضافة إلى أساطيل الدول الأخرى، وبذلك تمكن الأمير تدخله أن يحول وجهة الجنود الفرنسيين إلى فرنسا بعد أن كانوا يستعدون لتدمير بيروت بقنابلهم وأن يغرق جميع المراكب الحربية التي كانت

---

1 – عز الدين إسماعيل وآخرون، **الأمير عبد القادر الجزائري**. أبطال الغرب 13، وط. دار العودة. بيروت، 1975م، ص 139.

2 – أبو القاسم سعد الله. **الحركة الوطنية**، ص 412 هامش 13.

3 – عز الدين إسماعيل وآخرون، **الأمير عبد القادر الجزائري**. أبطال الغرب 13، وط، دار العودة، بيروت، 1975م، ص 39م.

4 – أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص 412، هامش 13.

5- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، ص634

ترابط بالمنطقة، شرقية ما سيؤوله إليه الأمير لإيجاد مبرر التدخل[1]. كما يؤكده أيضا ما وقع بعد الفتنة من تهاطل المساعدات القرينة على نصارى الشام وإرسال الخبراء لدراسة الأوضاع عن كتب تمهيدا الاحتلالها، ومن الذين أرسلوا لافيجري (Lavigerie) (1825-1892م) الذي أرسلته فرنسا ليحمل الإعانات المالية التي وجهت في أقربها لأولئك النصارى [2] وقد قابل الأمير عبد القادر وتحادث معه فرجع يتصور يتمثل في وجوب تنصير المسلمين[3] وهو ما يجعله يمر أثناء رجوعه ببابا الفاتيكان ليبلغت انتباهه إلى أهمية مناصرة حركات التنصير في العالم الإسلامي[4] ومن المنطق أن ينتبه بلده إلى وجوب احتلال بلاد الشام وهو الذي حدث لاحقا، ومما يدل على صحة ما ذكرنا أن أحداث دمشق هذه جاءت كرد فعل بين المسلمين على النصارى الذين اظطهدوا الدروز المسلمين بجبل لبنان[5] وهنا ندرك بعد النظر للأبد عبد القادر لأنه أدرك كل هذه المخططات وعمل على حماية الخلافة العثمانية وحماية المسلمين، وهنا نوصل إلى الدوافع التي حركت الأمير عبد القادر للقيام بهذا العمل العظيم:

العوامل التي أدت بالأمير إلى التدخل: يمكن أن نذكر منها ما يأتي:

---

1 - يحي بوعزيز، **بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري**/ ص 85.

2 - عبد المجيد الشرفي، **الحركة التبشيرية في تونس في القرن 19**، حوليات الجامعة التونسية، تونس، 1971م، ع8، ص ص 143-144.

3 - **المرجع نفسه**. ص 146.

4 - الحبيب الجنحاني، **المرجع السابق** ص 1062 ص 84.

5 - يحي بوعزيز، **بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائر** ص 84.

1- ما بينه الأمير بنفسه في الرسالة التي أرسلت إلى ملكة بريطانيا ردا على الهدية التي أرسلتها إليه وهي مؤرخة بتاريخ 20 محرم 1278هـ/1862م "أنني لم أفعل إلا ما توجه علي فرائض الإيمان ولوازم الإنسانية[1] وإذن أرجع الأبد ندخله إلى عاملين أو دافعين مهمين جوهريين، هما: الإسلام والإنسانية وهذان الدافعان كافيان وقصدهما للتدخل وعلى ذكر الإنسانية بأن الأمير عبد القادر يعد أول من ابتكر مصطلح حقوق الإنسانية.

2- قطع الطريق أمام الدول الغربية وعدم تكرار مأساة الجزائر في بلاد الشام وقد ذكرنا أن الدول..... التي اضطرت السلطان العثماني إلى إصدار المرسوم ..... لها بالتدخل تحت غطاء ..... الأقليات. وبذلك لا تتكرر حادثة المروحة في بلاد الشام. ذلك أن الأمير عبد القادر كان على دراية تامة بمخططات الغرب وتصارعه حول تركة البطل المريض. وهو ما بينه الأمير عبد القادر في النص السابق ذكره في أسباب الفتنة.

وقد حقق الأمير عبد القادر أهدافه السابقة وتركها وقد ارتفعت مكانته في العالم أجمع فهنأه أباطرتها برسالة مختومة بنجاحها وكرمته الولايات المتحدة الأمريكية بإطلاق اسمه على إحدى مدنها هي مدينة .....

ويكفي الأمير أنه أخر الاستعمار الفرنسي بلاد الشام.

مساعيه لدى قيصر روسيا نقولا الأول ونابليون الثالث لإطلاق سراح الإمام شميل (الزعيم الداغستاني) من سجون روسيا ونجاحه في ذلك:

---

1 - جواد المرابط، **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري** ص 48 عن فؤاد السيد صالح المرجع السابق، ص 267.

الإمام محمد (شامل) كان صديقا للأمير عبد القادر تبادلا المراسلات عن 1860إلى 1865 تجمع بينهما أشياء كثيرة كالثقافة الإسلامية الواسعة والاستبسال في مقاومة الاحتلال الأجنبي، فالأمير قاوم الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1832إلى 1859م وأسس كل منها دولة قوية وحصر صفوف الشعب ونظم الجيش. وكلاهما أجير على ايقاف القتال وزج به السجن ولم يطلق سراحه إلا بعد سنوات طويلة من العذاب[1]. ولنشر بإيجاز إلى هذا الإمام.

ولد في 1799 باغستان شرق القفقاز. وكانت تابعة للفرس أصلها الروسي في بداية القرن 19 ثار سكان داغستان فتسلم زمام المقاومة ابتداء من 1832 بعد استشهاد شيخه واصل الجهاد ونظم الدولة والجيش قبل الأمير عبد القادر وكانت شخصيته قوية وصارمة أبلى بلاء حسنا في كثير من المعارك ولكنه أسر مثل الأمير وأبقى به سجينا في مدينة كالوغا قرب موسكو يوم 6 سبتمبر1859م بعد 25 سنة من المقاومة. وقد توسط الأمير في إطلاق سراحه لدى نابليون الثالث أثناء زيارته لباريس طالبا منه الاتصال بقيصر روسيا نقولا الأول لإطلاق سراحه ويبدو أن الامبراطور استجاب لذلك كما توسط أيضا لدى قيصر روسيا بواسطة السفير الروسي لدى الدولة العثمانية فوعده بإطلاق سراحه والأمر له بالسفر[2]. وقد استجاب القيصر لمساعي الأمير عبد القادر. فأطلق سراح الإمام شميل[3] سنة 1869..... الحجاز ليحج ويقيم بها إلى وفاته

---

1 - أبو عمران الشيخ: مراسلة الأمير عبد القادر مع الإمام شميل القفقاز مجلة **الثقافة**، الجزائر، ماي، جوان، 1983م. ع75 (ع خاص)، ص 169.

2 - **المرجع نفسه**، ص ص 170-171.

3 - أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ص 313.هامش ص رقم 67.

في 14 فبراير 1871 [1] تتوصل مما سبق إلى أن الأمير ظل يعيش في ظل محن المسلمين ويعانيها ويسعى في حملها مما يعني أنه لازال على خطه الأول الذي كان عليه في الجزائر ولم يتحول إلى شخصية جديدة عكس ما يذهب إليه التميمي.

4- **العمل على إصلاح النظام السياسي للخلافة العثمانية:** أدرك الأمير عبد القادر فساد النظام السياسي العثماني القائم على سياسة التتريك. ورأى رأي العين ظلم الولاة الأتراك للعرب مسلمين ونصارى في بلاد الشام، ورأى كيف تسبب الوالي العثماني في تلك الفتنة التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين وكيف عمل على تجريد الأمير عبد القادر بما له من السلاح [2] لتنتقص المحنة أكثر ولو رفض الأمير لطلبه لحدثت الكارثة. أدرك الأمير كل هذا فرآى فيه مسلمو بلاد الشام سنةوشيعة ونصاراها أنه الرجل المناسب لمبايعته وجعله أميرا لبلادهم مستقلا عن الخلافة العثمانية وكان بإمكان الأمير أن يقبل هذه الإمارة التي شنو يدها الدول العربية وقد بدأت الاتصالات به سرا وعلنا إثر مؤتمر انعقد في 1877م ومن أهم الزعماء الذين كانوا على اتصال بالأمير يوسف بك الذي كان منفيا برومة وأحمد الصالح [3] ومفتي مدينة دمشق وتميب أشرافها حسن تقي الدين الحصني. ولكن الأمير عبد القادر اشترط عليهم أن يقبل

---

1 - أوبو عمران الشيخ، **المرجع السابق**، ص 171.

2 - تشرشل، **المصدر السابق**، ص 363

3 - أبو القاسم سعد الله، تقديم كتاب **تشرشل**، ص 50. أيضا : فؤاد السيد صالح. المرجع السابق، ص 272.

الإمارة شريطة بقاء بلاد الشام تابعة للخلافة العثمانية[1]. بمعنى أنه نتيجة للظلم التركي للعرب عمل الأمير على تعريب نظام الحكم مع الاحتفاظ بالولاء التام للخلافة العثمانية. وهو المنطق السليم الذي يمكن به مواجهة الدول الغربية التي كان الأمير يدرك أطماعها في احتلال المنطقة. ودليلنا على صحة هذا التصور أن فكرة انفصال العرب عن تركيا بدأت في عهد ولاية مدحت باشا على سوريا وهو ماسوني جبار معروف وهنا نتساءل: لو كان الأمير ماسونيا كيف يقف ضد مدحت باشا؟

5- إفشال مشروع فرنسا بتنصيب ملك الشرق: وهو ما بينه الأستاذ شوفالي قاصرون وذلك أن الأمير عبد القادر بعد موقفه المشرف من فتنة 1860م انقلب الرأي العام الفرنسي لصالحه فرأى نابليون3 أن الفرصة مواتية ليعرض عليه مملكة المشرق. ولكن الأمير عبد القادر رغم المغريات الكثيرة رفض الفكرة من أساسها وقال لرسول نابليون كلمة رائعة: ((إن هدفي لم يكن في يوم من الأيام تولية المملكة، وإنما ظروف بلادي جعلتني أتولى الدفاع عنها فقدت جيوشها. وشاء الله أن تطوى صفحة الجهاد، فانتقلت للجهاد الأكبر وهو خدمة العلم والدين))[2] وإذن لا يمكن أن يكون الأمير عميلا. فأين الماسونية وأين التكالب على المال وقد جاءته الملكة والملك ورفض؟!

وقد علق شوفالي فاجرون على هذا الرفض قائلا: "لم تكن أمنية رجال الحكم الفرنسي العثور على رجل عربي قوي يتولى حكم بلاد المشرق بإعانتهم،

---

1 - حسين عمر حماده، **الماسونية والماسونيين في الوطن العربي**، ص 107

2 - المهدي البوعبدلي، وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر مجلة الثقافة. وزارة الثقافة. الجزائر، ماي، جوان، 983م، ع75 (خاص). ص 148.

عن كان يشارك الفرنسيين في البلوغ إلى هذا الهدف الإنجليز أيضا. وقد بلغت إنجلترا هدفها إذ وجدت المَلك فيصل إلا أن فرنسا من سوء حظها وجدت في طريقها الأمير عبد القادر، وشتان ما بين الشخصيتين"[1]. وقد بين المهدي البوعبدلي بعد عرض لجوانب من حياة الأمير بان حياته "لم تتغير من بدايتها إلى نهايتها... وإن طرأ شك لبعض المصطادين في الماء العكر واتهموا الأمير بأنه كان يستجدي ويستغل المناسبات لطلب الإعانات، فيكفينا أنه عرض عليه ملك الشرق العربي من رئيس فرنسا نفسه وفرضوا له ميزانية تعجز عن مثلها كبار دول الشرق والغرب كما ذكر الأستاذ Agéron في ملتقى باريز... ورفض وعلل رفضه. فمحاولة إلصاق هذه التهمة نجد وراءها بقية المسعورين وأذنابهم"[2].

6- تدخله لدى حكام تونس مرتين لصالح المقاومة الجزائرية: -وهذا- عكس ما ادعاه التميمي- وقد كان هذا التدخل لصالح ابنا ناصر بن شهرة الأولى لدى الباي خير الدين التونسي لتصفية أملاكه التي خلفها بتونس والثانية لدى الباي مصطفى بن إسماعيل في قضية لازالت مجهولة لأن رسالة الأمير تحيل إلى رسالة ابن شهرة، وهذه الأخيرة لم يعثر عليها.

وقد التحق ابن شهرة بالأمير عبد القادر بعد أن أرغمه باي تونس على الرحيل، فغادرها يوم 2 جوان 1875م من حلق الوادي على متن باخرة إلى

---

1 - المرجع نفسه: ص 148.

2 - المرجع نفسه، ص 150.

بيروت ليستقر مجاورا لمحي الدين مليا ثم يلتحق بالأمير عبد القادر بدمشق إلى وفاته عام 1884م بعد وفاة الأمير بسنة[1]. وهنا نتوصل إلى ختام هذا البحث.

الخاتمة: بعد جولتنا في حياة الأمير عبد القادر ببلاد الشام تبين لنا عكس ما ادعاه التميمي، فقد ظل الأمير هو هو. رغم أنه كان تحت إقامة جبرية تحت أنظار القنصلية الفرنسية من جهة والوالي التركي من جهة أخرى وأنه كان شخصية فعالة، وقد أحصينا بعض جوانب حياته في ستة جوانب جوهرية، هي:

- الاشتغال بالتدريس والتأليف والانقطاع للعبادة والتصوف والتأثير الاجتماعي.
- إخماد فتنة 1860 الخطيرة ففوت الفرصة على الدول الاستعمارية وأنصف المظلومين
- السعي لدى قيصر روسيا لإطلاق سراح الإمام شميل وقد نجح في ذلك.
- العمل على إصلاح النظام السياسي للخلافة العثمانية.
- إفشال مشروع فرنسا بتنصيبه ملك الشرق.
- تدخله لدى حكام تونس لصالح المقاومة الجزائرية.

هذا ولقد ظل الأمير محترقا على الجزائر ولا أدل على هذا من كثرة زيارته لأحد أثناء تواجده بالأراضي المقدسة، وإلا لماذا لم يكثر من زيارة بدر؟ وهو يدل على ثباته وعدم تغيره وأن حرقته على الجزائر لازمته حتى وفاته ولكنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان، ونتوصل مما سبق إلى ما يأتي: حياة الأمير لم

1- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، دار البعث، قسنطينة 1980، ص181

تتغير من بدايتها إلى نهايتها. قضى طفولته في أحضان التصوف والتحصيل العلمي، وشبابه وكهولته في الجهاد وشيخوخته في التصوف والعبادة وفعل الخيرات والنشاط السياسي البناء ودفن بجانب محي الدين بن عربي بناء على وصيته. وإذن لا أثر للماسونية في حياة الأمير، فالذي طبع حياته هو التصوف والانقطاع للعبادة والتأليف والعمل الخيري وعلاقته بالماسونية لو وجدت لما تجاوزت كونها علاقة مجاملة ناتجة عن أن كثيرا من الجمعيات المختلفة صارت تتباهى باحتضانه بعد فتنة 1860 وحتى لو فرضنا انخراطه فيها لماذا لا يفسر ذلك بمحاولة منه لاستخدامها لا لتستخدمه وذلك لأنه لا أثر لها في حياته كما ذكرنا. لا أثر لتكالبه على المال ولكن الذي طبع حياته هو الزهد والتقشف والإنفاق في سبيل الله.

تمكن وهو ببلاد الشام أن يحبط المشاريع الاستعمارية للمنطقة ومن ذلك إخماده لفتنة 1860م وإفشال مشروع فرنسا بجعله ملكا على بلاد الشام، كما ساهم في أحداث الجزائر ومن ذلك دعمه لابن ناصر بن شهرة وإذن لم يضحي الأمير بماضيه المشرف في الجزائر ويتحول إلى شخصية أخرى عكس ما ادعاه التميمي الذي يلاحظ تكالبه على الأمير والنية المبيتة من البداية للنيل منه وهذا لا يليق بالباحث التربه، ويكفي الأمير شهادة الأمير عبد الكريم الخطابي ذلك الأسد الذي لقّن الأسبان والفرنسيين المرارة، فقد كان يكرر باستمرار بأن الأمير عبد القادر أستاذي"[1].

---

1 – مولود قاسم نايت بلقاسم، مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، يوليو-أغسطس 1986، ع 94، ص 41.

تيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر

(الماسونية أنموذجا)

الأستاذ الدكتور احميده عميراوي

جامعة الأمير عبد القادر ـــ قسنطينة

مقدمة:

يكون إن ما نقصده في حديثنا عن تيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر هو التيارات الأوروبية وبخاصة عن تيار الماسونية، وهذا انطلاقا من السؤال الآتي: ما هي أهم التيارات الفكرية الدخيلة على الجزائر منذ بداية الاحتلال الأوروبي؟

وللإجابة على هذا السؤال سنخصص الموضوع بالحديث على تيار الماسونية؛ اعتمادا على نقطتين هما:

1- موجز عن مستوى الفكر الجزائري ومستجدات أوروبية

2- موجز عن تيار الماسونية في الجزائر

1- موجز عن مستوى الفكر الجزائري ومستجدات أوروبية

كان أغلب الفكر الجزائري مشدودا إلى القرآن الكريم، وإلى الحديث الشريف وإلى فقه كل من صحيح البخاري والشيخ خليل بن إسحاق

المصري[1]. ولم تعرف الجزائر حركة أدبية فكرية خلال العهد العثماني، وتمحيء الاستيطان الأوروبي نشطت هذه الحركة الفكرية، وأحدثت مستجدات تمثلت في الرواية والقصة، وفي شتى الفنون الأدبية الأخرى. ونتج عن هذا النشاط الأوروبي طبع مؤلفات كثيرة، ففي خلال الفترة الممتدة من عام 1830 إلى عام 1925 ألفت حوالي 200 قصة ورواية في الجزائر وعن الجزائر[2]. وكانت هذه الأعمال الفكرية مشدودة إلى قناعات عقدية وجدت في أوروبا قبل الثورة الفرنسية وبعدها. ونذكر عينات من إنتاج هذه الحركة الأدبية الفكرية[3]:

Année	Ecrivain	titre
1841	LOUIS VEUILLOT	Voyage de dix mois en Algérie, comme secrétaire de Bugeaud: expédition de Médéa; voyage à Blida. Mostaganem
1845	THEOPHILE GAUTIER	Séjour en Algérie, écrit scènes d'Afrique dans loin de Paris (1865)
1846	DUMAS PERE	visite l'Algérie mais n'en rapporte qu'une bimbeloterie si prisée à l'époque.
1846	THEOPHILE GAUTIER	voyage pittoresque en Algérie, Alger, Oran, Constantine, la kabylie; seule une première livraison illustrée de vignettes aurait été publiée, ce qui faisait mentionner ce travail comme une «rapeté bibliographique» dans le catalogue de EMILE BERGERAT

1 – لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه في: **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى، الجزائر 2005، بداية من صفحة 63

2 – لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 385

3 - Grenaud, P. **Notre Algérie littéraire**, T. I, édition Fouquet, Oran 1959, 61 p.

1849	JULES ET EDMOND DE GONCOURT	PAGE RETROUVEES, préface de Gustave Geffroy: Alger, notes au crayon, impression décisives pour l'orientation des deux écrivains
1857	FROMENTIN	tire de sa palette les images d'un monde algérien qui a disparu. Un été dans le Sahara (1857) – une année dans le sahel (1859)
1857	DUVYRIER	Premier voyage, à l'âge de 17 ans, jusqu'à Laghouat, rédige son journal d'un voyage dans la province d'Alger première étage de longues explorations
1858	FLAUBERT	Voyage à Carthage, va de Philippeville à Constantine en diligence, puis par mer, de Philippeville à tunis. Par voie de terre, Guelma, Constantine, Bône. Notes de voyage, Salammbô
1860	ERNEST FEYDEAU	passe à Alger plusieurs mois de l'été de 1860; en donne une vue d'ensemble dans Alger- étude
1861	ALOHONE DAUDET	voyage, de décembre 1861 à février 1862 avec son cousin Reynaud, voyage qui donne lieu aux aventures algériennes de tartarin de Tarascon, à certaines nouvelles algériennes des contes de lundi et des lettres de mon moulin
1881	MAUPASSANT	Envoyé comme reporter en Algérie lors de l'insurrection de Bou-amama: articles qui lui fournirent la matière de «au soleil»en attendant d'autres nouvelles «Marocca» dans «mlle fifi». «Mohamed fripouille» dans «Yvette» et allouma dans la main gauche
1890	FERNAND FOUREAU	Mission au tademayt, premier étape avant sa mission chez les touareg en 1894-1895 et la grande mission saharienne foureu-lamy: d'Alger au Congo par Tchad
1894	PREMIERS FASCICULES	de Cagayous, le héros algérois de musette
1894	STEPHEN CHASERAY	Aventures du père robin, petit colon laborieux de l'oued melfouf, algérien cent pour cent qui connurent la même vogue que Cagayous
1896	ROBERT RANDAU	avec Sadia levy écrit son premier roman: rabbin. Les deux écrivains pénètrent dans le monde fermé des juifs en voie d'évolution
1898	LOUIS BERTRAND	LE SANG DES RACES, publié d'abord dans la revue de Paris, puis la cina, pépite le bien aimé, dans la première édition parue chez fayard en 1904, l'épopée de plèbe algéroise

وبالمقارنة يمكن القول إن الفرنسيين والأوروبيين كتبوا عن الجزائر شيئا كثيرا على خلاف الجزائريين الذين لم يكتبوا عن فرنسا، وعن غيرها بقدر مماثل. وازدادت الكتابات الأوروبية عن الجزائر بعد احتلالها، لأنهم وجدوا فيها وفي عالم الشرق الأرض الخصبة، أي المادة الخبرية الساحرة للكتابة. فجاءت الكتابات الفرنسية في وقت كان الخيال الأوروبي رومانسيا؛ ومس هذا اللون الفكري مختلف جوانب الحياة العلمية والسياسية والإدارية والاقتصادية والأدبية.

فشجعت هذه الكتابات الأوروبيين على الهجرة إلى الجزائر، وفرضت على الجزائريين الاحتكاك بهذه الثقافة. وقد تطور الأدب الفرنسي وبالتالي اللغة الفرنسية بما أضافته الجزائر من مضامين فكرية، وصور إبداعية حية.

2- موجز عن تيار الماسونية في الجزائر:

كان الكاثوليك والماسون والسان سيمونيون والليبراليون وراء هذه الحركة الفكرية الدخيلة على الجزائر، فهذا بيليسييه صاحب كتاب الحوليات الجزائرية كان من السان سيمونيين. إذ تأسست المحافل والكنائس والمدارس والمنشآت الصناعية في الجزائر.

وكان دور الماسونية فاعلا في الحياة الاجتماعية الجزائرية، قد كان للوسيط اليهودي بين الفرنسيين والجزائريين دور هام في عملية الاستيطان الأوروبي، وفي احتكاك الثقافة الجزائرية بالثقافة الأوروبية.

إذ وجدت بعض الجاليات اليهودية في الجزائر عيشا طيبا، ومنهم الذين طردوا من أسبانيا الذين وجدوا تضامنا جزائريا كبيرا، فصارت لهم أحياء

خاصة في أغلب المدن الجزائرية، مارسوا فيها شعائرهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم بحرية، مثلما مارسوا مهنهم وتجارتهم بكل آمان. وتطور بهم الحال إلى أن صاروا أصحاب بنوك، وبالتالي أصحاب نفوذ، عهد الدايات والبايات وعهد الأمير عبد القادر، هذا الأخير الذي كانت له صلات مع هذه التيارات الفكرية الأوروبية[1]

ومن خلال حديثنا عن بداية الماسونية في الجزائر[2]، ومن خلال القراءة لبعض الدراسات[3] يمكن تقديم مختصر نذكره كالآتي:

– إن الماسونية منظمة عالمية، تعرف باسم "البناؤون الأحرار" وهي ذات ذات شعارات ومبادئ بعضها منشور ومتداول وبعضها يحيط به الغموض والسرية، ولا يعرفه إلا الخاصة من مؤسسيها.

–نشأت الماسونية في أوروبا خلال القرون الوسطى، دون أن يحدد المؤرخون تاريخا معينا لها، أو مكانا محددا، كما أن الغموض يحيط باسمها ((فالماسون)) أو البناءون يقصد بهم بحسب بعض الروايات بناة هيكل بابل الذي جرى بعد السبي حين حملوا الحجارة للبناء في يد والسيف في اليد الأخرى.

---

1 – لمعرفة صلة الأمير عبد القادر بمثل هذه التيارات يراجع كتابنا:

2 – يراجع كتابنا: **من تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2004.

3 – أحمد عطية الله، **القاموس السياسي**، دار النهضة العربية، ط.3، القاهرة 1968، ص–ص. 1100-1101

– ارتبطت الماسونية باليهودية العالمية أو الصهيونية، وأقامت لها محافل في انجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها وانتقلت بالتبعية إلى المستعمرات.

– وعليه فالماسونية لا تعني التطابق بينها وبين اليهودية، أي أنها تلتقي معها في نقاط كثيرة.

– تشير البيانات المنشورة عن الماسونية إلى أنها منظمة خيرية، وأنها وطنية صميمة، وأن شعارها المساواة والإخاء والحرية، وأنها بعيدة عن مشاكل السياسة، وأنها تؤمن بالتسامح والسلام، غير أن الدارسين لنشاط المنظمات الماسونية في أنحاء مختلفة من العالم يأخذون على الماسونيين انغماسهم في الطائفية والسياسة ومناهضة الروح الوطنية والقومية باعتبار أن الأخوة الماسونية تعلو على الأخوة في الوطن.

– تعددت الدراسات والبحوث لاسيما منذ الحرب العالمية التي أبرزت علاقة الماسونية باليهودية العالمية كما أبرزت التقاء الماسونية والصهيونية حول أهداف مشتركة تتبلور في عودة يهود الأرض إلى فلسطين، وبناء هيكل سليمان مرة أخرى، وإقامة مملكة إسرائيل على الأرض العربية بعد اغتصابها بالمداهنة أو بحد السيف من سكانها.

– تتفق الماسونية مع التيارات الفكرية الأوروبية من الناحية العملية، وتختلف معها في الهدف. وقد عملت الماسونية كغيرها من تلك التيارات على تكريس الاستعمار في الجزائر. وقد جهدت نفسها لتكون واسطة "إنسانية" بين الجزائريين لتحضيرهم والفرنسيين لمساعدتهم على نشر المدنية في إفريقيا. وهي تكون قد حملت الأفكار نفسها التي جاء بها البيان الشيوعي تجاه

الجزائريين حين أعتبر أنجلز عملية احتلال الجزائر مرحلة حضارية هامة، وبواسطتها يمكن القضاء على "الهمجية" البربرية الجزائرية. ووجهة نظر هذين التيارين تجاه الجزائريين تتفق مع ما دعت إليه كل من الكاثوليكية والليبرالية وحتى السان سيمونية.

- تضاعف نشاط الماسونيين حين أسسوا عام 1832 محفلا في الجزائر العاصمة تابعا للمحفل العالمي الكبير. وتلا ذلك تأسيس محافل أخرى، مثلما سنبينه لاحقا. مثلما حدث حين أسس الكاثوليكيون كنائس. وأيضا التيار الشيوعي الفرنسي التابع للحزب الشيوعي العالمي الذي أسس حزبا في الجزائر في الثلاثينيات من القرن العشرين.

وقد أدعى الماسونيون أن الطرق الصوفية -وسموها الطرق السرية- هي نفسها ماسونية على أساس النظرة المشتركة العالمية القائمة بينهما على مبدأ خدمة الإنسانية. وعلى ما تشابه بين لفظ الورد للطريقة و(لوردر) باللاتينية. وعلى أساس كلمة الأخوان (لي فرار). واعتمادا على طريقة وكيفية إجراء الانخراط في البداية لكل مريد.

والغريب أن كثيرا من الناس انضموا إلى الماسونية بما فيهم من الكاثوليكيين ومنهم الأسقف دوبيش، الذي كانت له لقاءات مع الأمير عبد القادر.

ويتبين من هذا التوضيح مدى انتشار المحافل الماسونية في الجزائر.

وقد انخرط بعض الأهالي في المحافل الماسونية بالجزائر ما بين عام 1841 و1875

رقم	اسم ولقب	سنة	من مدينة	عمره	المحفل	الصفة	درجة ماسونية
1.	بن زردة براهم	1841	بجاية	30	إخوة نوميديا	مجند	ثمرن
2.	أحمد بن حاج علي	1843	بجاية	40	إخوة نوميديا		ثمرن
3.	حسان بن حسان	1843	بليدة	21	إخوة الأطلس	فلاح	ثمرن
4.	حسان بن زرقلي	1845	عنابة		هيبون	إمام	معلم
5.	سيدي حامد	1846	بجاية		إخوة نوميديا		معلم
6.	حسان بن علي إقلش	1846	قسنطينة	38	سان فانسان دي بول	فلاح	معلم
7.	محمد بن أحمد	1846	قسنطينة	33	سان فانسان دي بول	فلاح	ثمرن
8.	إبراهيم بن نوة	1848	عنابة	31	هيبون	ضابط	معلم
9.	عصمان بن عصمان	1848	عنابة	33	هيبون	ضابط	ثمرن
10.	محمد	1848	جيجل		شيبون		ثمرن
11.	محمد بن كريم	1850	عنابة	36	هيبون	تاجر	معلم
12.	عبد الرحمن	1850	قسنطينة	42	سان فانسان دي بول	ضابط	ثمرن
13.	قدور بن إبراهيم	1850	قسنطينة	30	سان فانسان دي بول	ضابط	ثمرن
14.	سليمان دي مملوك	1852	قسنطينة		سان فانسان دي بول	ضابط	ثمرن
15.	كريمي بن علي	1852	عنابة	33	هيبون	فلاح	ثمرن
16.	حسان بن خضر	1854	عنابة	26	هيبون	عامل	معلم
17.	مصطفى بن بايا	1854	مليانة		إخوة زكار	مجند	ثمرن
18.	محمد بن أحمد	1855	سطيف	35	إخوة بوسلام	ضابط	معلم
19.	محمد بن عمر	1856	قسنطينة		سان فانسان دي بول	سعاجي	مرافق
20.	عبد الله دي منترة أنطوان	1857	سيدي بلعباس		Les Maçons réunis	ضابط	معلم
21.	أحمد بن محمد	1859	دويرة	34	إخوة الساحل	مترجم	ثمرن
22.	حسان بن خضر	1854	عنابة	26	هيبون	عامل	معلم
23.	مصطفى بن بايا	1854	مليانة		إخوة زكار	مجند	ثمرن
24.	محمد بن عمر	1856	قسنطينة		سان فانسان دي بول	سعاجي	مرافق
25.	سي عمار بن خلفات	1856	قسنطينة		سان فانسان دي بول	ضابط	مرافق

26.	علي بن محمد	1864	عنابة	46	هيون	ضابط	معلم
27.	لعربي بن طيب	1864	عنابة	27	هيون	أمين	معلم
28.	محمد بن قاسم	1864	عنابة	34	هيون	ضابط	معلم
29.	بن إسماعيل	1865	معسكر		النجم	آغا	ممرن
30.	مصطفى بن بشطارزي	1869	باتنة	45	الوازيس	قائد	معلم
31.	محمد بن طيب	1870	عنابة	21	هيون	بيطري	ممرن
32.	أمير محمود شبو	1872	أرليون فيل		إخوة تجميع الشلف		ممرن
33.	إسماعيل بن المهدي	1873	عنابة		هيون	مترجم	ممرن
34.	عمر بن خوجة	1873	عنابة		هيون	مدرس	ممرن
35.	خوجة عمر بن أحمد	1873	فيليب فيل		أبناء مارس	مترجم	ممرن
36.	حمود جوزيف	1873	الجزائر	43	بيليزار	صاحب ورشة	معلم
37.	أحمد جوزيف	1873	الجزائر	43	بيليزار	تاجر	ممرن
38.	عبد الرحمن بن محمد بن الثاني	1873	الجزائر	34	بيليزار	موظف	ممرن
39.	لعرابة بن سليمان	1875	عنابة		هيون	جزار	ممرن
40.	علي بن محمد	1875	عنابة		هيون	قائد	ممرن

يتبين من هذا الجدول أن عدد المنخرطين من الجزائريين بلغ 40 شخصا، من 13 مدينة. وأن أصغر عمر المنخرطين هو 21 سنة وأكبر عمر منخرط هو 46 سنة. وأن أكثر المنخرطين هم مجندون وعددهم 19 من 44 منخرطا. وأن أغلب الرتب الماسونية هي الرتبة الدنيا "ممرن" كانت لـ 24 منخرطا. وأن أعلى رتبة للمنخرطين هي "معلم" كانت لـ 15 منخرطا.

عنما وأن عدد المنخرطين بالمحافل في الجزائر بلغ 311 منخرطا من جنسيات كثيرة. أغلبهم كانوا يمارسون مهنا حرة ووظائف عسكرية. ورتبهم الماسونية أغلبها في درجة معلم بمجموع 139 عضوا و 62 برتبة ممرن

و 34 برتبة روزة كروا وهذه الأخيرة هي أعلى رتبة منحت للمنخرطين في الجزائر، وباقي الرتب كانت من درجة أخرى مثل "مرافق"[1].

1 – من المراجع الهامة التي اعتمدنا عليها هي دراسة ياكونو:

Yacono (X.), **Un siècle de franc -maçonnerie algérienne (1785-1884)**, Maisonneuve et Larose, Paris 1969

تأثير المعلمين الفرنسيين
في اتجاهات المثقفين الجزائريين إلى نهاية القرن 19

الدكتور الطاهر عمري

المدرسة العليا للأساتذة –قسنطينة

سوف نحلل في هذه المقالة كيف أدى التعليم الاستعماري الفرنسي في الجزائر –والمعلمون الذين تولوا توصيله إلى الأجيال–دوراً هاما في التأثير الفكري والروحي على توجّهات النخبة الجزائرية مع نهايات القرن التاسع عشر الميلادي.

1. **بين الثقافة والأيديلوجيا:** يرى بعض المحللين أن الثقافة مهما كان أصلها هي في جوهرها عملية سياسية[1]. فهل كانت الثقافة الاستعمارية، في الجزائر في يوم من الأيام مستقلة أو متعالية عن الصراعات السياسية والاجتماعية. أم أنها ظلت دوما الميدان الرئيس الذي تمارس فيه هذه الصراعات وتعبر عن نفسها؟ إن الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى وأحيانا الوحيدة المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية، بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية، أو تريد الحفاظ عليها[2]. ومن هنا فإن دراسة تبادل التأثير بين التعليم في المدارس الفرنسية وبين الأيديولوجية(*) الاستعمارية، التي سوف تستمر طويلا في تاريخ الجزائر المستعمرة، هي من الأمور التي ينبغي

---

1 الجابري (محمد، عابد)، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988،ص.6.

2 نفسه، ص. 7

أن لا نهملها في صراع البنى الاجتماعية والثقافية ومدى تأثير ذلك في مسار تكوين المثقفين الجزائريين بمختلف اتجاهاتهم وكذا تصورهم لمشروع مجتمع جزائري جديد.

وبما أن تكوين الأيديولوجيا، أية أيديولوجيا، لا يمكن أن يتم بمثل السرعة التي يتم بها إنشاء إمارة أو تأسيس دولة إذ إن التحول الأيديولوجي على مستوى الدولة والمجتمع يتطلب وقتا أطوال فهو لا يتم إلا عبر أجيال[1]، فإننا سوف نتابع في هذا المقال تبلور هذه الأيديولوجية الاستعمارية، وأشكال المقاومة أو التكيف التي عرفها المجتمع الجزائري خلال نهاية القرن التاسع عشر. وبما أن البنية الاجتماعية لها وجود حقيقي، وليست مجرد تصور نظري، فإن تفاعلها مع الأحداث التاريخية يجعل منها مصدرا لفهم العلاقات[2] الناتجة عن هذه الجدلية بين تبلور الأيديولوجيا الاستعمارية ونفي البنى الأصلية للمجتمع الجزائري. وإذا كان توغل الاستعمار بجهازه التعليمي قد حمل إلى المجتمع

(*) ينبغي الإشارة هنا إلى أن **الأيديولوجيا** الاستعمارية كما نوظفها هنا، هي كما عرفها ماركس « نوع من التقدم الوهمي عن الحقيقة »فإذا كان العلم والثقافة يمثلان عناصر واقعية فإن الأيديولوجيا تمثل تعبير كل فئة عن مصالحها من خلال خطاب معين. والأيديولوجيا بهذا المعنى تمثل وعيا زائفا، أو أنها الصورة التي أرادت السلطة الاستعمارية أن تكونها عن وضعها كسلطة وعن المجتمع الجزائري بصورة عامة. . ينظر بهذا الصدد:

ملحم (حسن)، **التفكير العلمي والمنهجية**، منشورات دحلب، الجزائر 1993، ص. 421

1 نفسه، ص. 298

2 Piagat (J.), **Le structuralisme**,"Que-sais-je",P. U. F,Paris1974, p. 94

الجزائري عناصر الحداثة(**)، التي سوف يكون لها دورها عندما تتوفر الظروف لتطورها، فإنه قد حطم المجتمع القديم مما أثر على التوازن الاجتماعي والثقافي وكرامة الجزائريين[1].

لقد كان على التعليم الاستعماري الفرنسي في الجزائر-في نظر منظريه- أن يؤدي دورا هاما في التأثير الفكري والروحي على الأهالي، إذ كان عليه- من ناحية- أن يمنح الشرعية للغزو العسكري ويضمن -من ناحية أخرى- استمرار النتائج السياسية لهذا الغزو، والمتمثلة في فرض السلطة على المجتمع الجزائري. وكما قال أومال فإن افتتاح مدرسة وسط "الأهالي" هو أكثر جدوى في تهدئة البلاد من فيلق كامل من الجيش[2].

2. **تصوّر المعلمين الفرنسيين لمهمتهم بالجزائر:** كانت الدفعة الأولى من الأساتذة والمعلمين الذين استقدمهم جول فيري إلى الجزائر، يؤدون واجبهم التعليمي في الجزائر بحماس تبشيري كان له أثر لا يمكن إنكاره. وكان أبناء

(**) يقول أدونيس بشأن الحداثة: « يمكن القول من ضمن نظرة العرب إلى "الإحداث" و"المحدث" ومن ضمن الشروط الاقتصادية-الاجتماعية الخاصة أن الحداثة في المجتمع العربي بدأت كموقف يتمثل الماضي ويفسره بمقتضى الحاضر؛ وبمعنى ذلك أن الحداثة بدأت سياسيا بتأسيس الدولة الأموية وبدأت فكريا بحركة التأويل وهكذا تولدت الحداثة تاريخيا من التفاعل أو التصادم بين موقفين أو عقليتين في مناخ من تغير الحياة ونشأة ظروف وأوضاع جديدة. . » انظر: أدونيس (علي أحمد سعيد)، **الثابت والمتحول**، الطبعة الرابعة، دار العودة، بيروت1983، ج. 3، ص. 9

1 Harbi (M), **l'Algérie et son destin , Arcantère** Ed. , Paris 1982, p. 26

2 Pervillé (G.), **Les étudiants algériens de l'université française**, Casbah Ed-Alger, 1997
p. 16

الأعيان من الجزائريين الذين يرتادون هذه المدارس الفرنسية يعتبرون من الناحية الفكرية كأنهم رهائن des otages d'opinion[1] لدى هؤلاء المعلمين. لقد كان هؤلاء المعلمون الفرنسيون في معظمهم يحضّرون(بفتح الضاد)خصيصا لمواجهة وضعية تعليمية تختلف عن تلك التي عرفوها في فرنسا، وكان تكوينهم لمهنة التعليم يتم بمدارس المعلمين Ecoles de formation des maîtres في المستعمرة الجزائرية، ففي هذه المدارس المتخصصة كان هؤلاء المعلمون يخضعون للتكوين من خلال برامج تكوينية خاصة، وكانت تُعطى لهم من الميدان طرق تدريس تتماشى مع الواقع الاستعماري بالجزائر ومع ذهنيات الأهالي حسب التعبير الاستعماري. كما كان هؤلاء المعلمون أنفسهم يمثلون النخبة الفرنسية، وكان تصورهم لمهنة التعليم هو الذي يجعلنا نصنفهم بين النخبة، فقد كان لهم كل إيجابيات وسلبيات معلم الجمهورية الثالثة، كما كان لهم -خصوصا- حماس ضروري لأداء رسالتهم خصوصا بالنسبة إلى المكلفين منهم بتعليم الأهالي.

ومن المفيد لموضوعنا أن نعرف التصور الذي كان يحمله هؤلاء الموظفون من المعلمين والأساتذة للمهمة التي وكلوا بها. فيذكر موريل، الذي بحث في أطروحة أكاديمية بفرنسا دور التعليم في تكوين النخبة الجزائرية، أن هؤلاء المعلمين والأساتذة كانوا مشبعين بالمثل الإنسانوية وكانوا يمجّدون الحرية والمساواة والأخوة بين الشعوب والعدالة وباختصار فإنهم كانوا يرتكزون إلى قيم الثورة الفرنسية[2]. وكان هؤلاء ينقلون معطيات الثقافة الغربية التي كانت

1 Sahli (M-C), **Décoloniser l'histoire**, Maspéro Paris1967, pp. 113-114

2 Morel (J.), **L'école et la formation de l'élite en Algérie de** 1919 à 1939 (Mémoire dactylograghiée présentée en vue dc l'obtention de la maîtrise en histoire sous la direction de J. L. Miège, Faculté des lettres et des sciences, Aix-En-Provence, p. 105

خلال نهايات القرن التاسع عشر في تجدد مستمر؛ إذ كان العلمانيون والمتدينون منهم على السواء يؤمنون بالتقدم وأنوار الحضارة الغربية، التي كانت في نظرهم تمثل الحضارة الأرقى، كما أن كل ما هو خارج عنها كان يمثل لديهم ظلمات البربرية[1]. ويظهر أن أغلب المعلمين والأساتذة الفرنسيين- خصوصا- كانوا يؤدون خدمة للاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تتمثل في ممارسة الغزو الفكري والروحي على المتمدرسين الجزائريين بواسطة المدرسة[2]. لقد صرّح أحد المتحمسين من منظري السياسة التعليمية التابعين للحكومة العامة في الجزائر:«لقد حقق المعلّمون العلمانيون في الجزائر تقدما هاما في مناهج التدريس. فهؤلاء المعلمون يفهمون أنهم مطالبون، في الجزائر كما في فرنسا، أن يعلموا مبادئ الديمقراطية وأفكارا أكثر رحابة وأكثر عدالة وحبا للوطن الفرنسي ومؤسساته[3]». وقد ذكر إسماعيل حامت بكل امتنان فضل المعلمين الذين كرّسوا كثيرا من جهدهم ووقتهم لتعليم الشباب الجزائري المسلم، واعتبرهم ذوي فضل كبير بالنسبة على الأهالي، وذكر من بين هؤلاء المعلمين بيرون وشربونو الأب الذين كانا من أوائل الذين يتولون إدارة المدرسة العربية- الفرنسية بالعاصمة، وكانا مستشرقين لامعين وفيين للمهمة التي أوكلت لهما، « فكثير من هؤلاء المربين للشباب الجزائري -يقول حامت- لا يوجدون بيننا اليوم بأجسادهم ولكن عملهم لا يزال ظاهرا في التلاميذ الذين قاموا بتكوينهم والذين بدورهم صاروا معلمين للأطفال الجزائريين والأوربيين في نفس الأقسام

1 Pervillé (G.), Op. cit. , p. 16

2 Agéron (Ch-R), **Histoire de l'Algérie contemporaine**,(Que sais-je?), p. 69

3GGA. Exposé de la situation générale en Algérie,1901, p. 238

التعليمية مثل المعلم بلقاسم بن سديرة والسادة إبراهيم بن فاتح ومحدوب بن خلفات وصوالح محمد والسعيد بوليفة وغيرهم. . وهؤلاء كلهم يعطوننا اليوم إحساساً بانصهار الأجناس. . »[1]. وشهد مالك بن نبي في مذكراته بكون الأساتذة الفرنسيين من جهة عامة كانوا يصبون في نفوس طلبتهم «محتوى ديكارتيا يبدد ذلك الضباب الذي تمت فيه العقلية الميتولوجية التي تتعاطف مع الخرافات النامية في الجزائر»[2].

3. ميادين التأثير

تذكر المصادر الاستعمارية أنه منذ سنة 1880، وعندما تمكنت فرنسا من فرض الأمن على مجموع التراب الجزائري شرعت في التأثير الروحي والفكري على رعياها الجدد، وبدأت بتأسيس وتطوير المؤسسات التعليمية ودخول الطلبة الشباب إلى المؤسسات الثانوية والعالية. وهكذا شيئا فشيئا بدأت تظهر بالجزائر نوع من البرجوازية الفكرية التي تتغذى من ثقافة أوربية لا تستوعبها تماماً في غالب الأحيان، كما أنها كانت متعطشة إلى معاني الليبرالية ومتلهفة إلى لعب دور في الحياة الاجتماعية، والظهور أمام مجتمعها الأصلي كرائدة لعهد جديد من الحرية والتقدم[3]. وقد حلل موريل دور المدرسة الفرنسية فقال: تساهم المدرسة في تكوين النخبة من حيث أنها تقود كل واحد من تلاميذها إلى اكتشاف مواهبه الخاصة وتدفع الأفضل من بين هؤلاء إلى فرض وجوده والانخراط في

---

1 Hamet (I.), **Les musulmans français du nord de l'Afrique**, Librairie Armand Colin, Paris 1906, pp. 260-261

2 بن نبي (مالك)، **مذكرات شاهد القرن**: الطفل- الطالب، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق 1984 ، ص. 65

3 « Rapport de Mr. Leheureux 1923 », 27H23, **AOM**, Aix-En-Provence

مختلف الميادين اهامة(. .) ويمكن التفريق بالنسبة إلى النخبة المكونة في المدرسة بين فئتين: العامة من التلاميذ الذين لم تسمح لهم ظروفهم الاجتماعية من الاستفادة من الامتيازات المذكورة سابقا ولكن هذه الفئة-يقول موريل- حسنت-على الأقل- من ظروف عملها كما أن نظرتها إلى العالم صارت أكثر تطورا. وهناك فئة أخرى تمثل "نخبة النخبة" وهي منحدرة خصوصا من التعليم الثانوي أو العالي التي تحدث لها في بعض الأحيان أزمة ضمير وأحيانا أخرى تدخل العمل السياسي[1].

ووصف فرحات عباس في كتابه (الشاب الجزائري) التأثير الذي مارسته المدرسة على سلوكه وطريقة تفكيره في أبلغ عبارة بقوله: حين كنت أبلغ من العمر اثني عشر سنة كنت أعدو في الحقل حافي القدمين دون أن أسمع كلمة واحدة من الفرنسية، لا فرق في ذلك بيني وبين راعي الماشية في قريتنا. واليوم بفضل المدرسة صرت قادرا على بناء أسرة وتربية أولادي، كما صرت قادرا على أن أعيش وأموت من أجل وطني[2]. وإذا كان دخول الميدان السياسي بالنسبة للمثقفين الجزائريين مع نهايات القرن التاسع عشر ما يزال أمرا بعيدا، فإن التعليم الفرنسي المفتوح للشباب الجزائريين- حسب إسماعيل حامت- قد أنتج متعاونين مخلصين مع الإدارة الاستعمارية، أدوا دورا هاما في التأثير على الأهالي»[3]. وكان من بين هؤلاء المتخرجين من التعليم الاستعماري مترجمون عسكريون ساعدوا الغزاة في اختراق المجتمع الجزائري ،وصار بعضهم- فيما

1 Morel (J.), Op. Cit. , p. 88
2 Abbas(Ferhat), **Le jeune algérien**, La jeune Parque-Paris1931 , p. 91
3 Hamet (I.), Op. Cit. , p. 190

بعد- من كبار ملاك الأراضي. وكان منهم ضباط في الجيش أمثال ابن داود وقاضي، ومدرّسون أمثال فاتح الذي كان خلال ثورة 1871 يساعد أومال في ميليشيات المعمرين. وكان منهم أيضا البروفيسور مجدوب بن خلفات، مؤلف كتاب (الإدماج وتعليم الأهالي[1].

ولكن هذا الحكم -في نظرنا- مما لا يمكن تعميمه على سائر المجتمع الجزائري، ذلك أن ردود الفعل على توغل الاستعمار بواسطة التعليم اختلفت- في رأينا- باختلاف الفئات المكونة للمجتمع الجزائري واختلاف مشاربها الثقافية، ومصالحها المادية أيضا، وهو نفس ما حدث مع بدايات الغزو. فلم تكن هذه الفئات- في نظرنا- تستجيب بنفس الكيفية ولا بنفس القدر لتوغل التعليم الاستعماري. كما أننا نحتاج للإطلاع على المصادر التي كتبها الجزائريون بهذا الشأن، لكي نقيس مدى تأثير التعليم الاستعماري في هذه المرحلة، وهي نادرة في حدود إطلاعنا. وهناك معطيات تاريخية تجعلنا نعتقد أن نصف القرن الأول للاستعمار في الجزائر لم يكن فاشلا تماما في مجال التعليم؛ إذ يذكر إسماعيل حامت أن الوزير جول فيري تفاجأ عندما التقى في قسنطينة، سنة 1891، عضوا جزائريا بالمجلس البلدي يرتدي الزي الفرنسي،هو الدكتور مرسلي(*). ولم يكن هو الوحيد من هذه النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية، والذين لم يكن يطلق عليهم بعد اسم "الشبان الجزائريين"[2]. وهذه الشهادة هي التي تؤكد لنا أن الأيديولوجية الاستعمارية بدأت تتغلغل في "فراغ" المجتمع

---

1 Sahli (M-C), Op. Cit. , p. 115

(*) ولد الدكتور مرسلي سنة 1856 وعين عضوا بالمجلس البلدي منذ 1885

2 Hamet (I.), Op. cit, pp. 190-191

الجزائري بواسطة التعليم. فقد كانت المدرسة الجمهورية التي أسسها جول فيري تنشر بين الشباب الجزائريين القيم الوطنية والمدنية الفرنسية، التي سوف يؤدي تمثلها-حسب الأيديولوجية الاستعمارية الجمهورية- إلى الوصول بالإنسان الأهلي لأن يكون عارفا بالقراءة والكتابة؛ لكي يصير مواطنا يدافع عن حقوقه ومصالحه، وليس مجرد رعية للسلطة الحاكمة، وخاضعا للأقوياء[1].

ولكن تكوين المواطن الذي يدافع عن مصالحه ويشعر بحريته كان له أثاره الإيجابية في أوربا، ولكن تنفيذ هذا المشروع الطموح في مجتمع يختلف عن أوربا في الدين واللغة ونمط الحياة، سيكون مظهرا من مظاهر تأثر بنى المجتمع الأصلية لتحل مكانها الأيديولوجية الاستعمارية. وكان الوضع كما وصفه عبد الله العروي بأنه نوع من تحطيم العلاقات بين المجال التاريخي المتمثل في الدولة والمدن والعدالة والتقاليد الإسلامية والثقافية والأخلاق العربية، وبين البنية التحتية للتاريخ المتمثلة في الزوايا بالريف والحياة الخاصة للإفراد. ثم جاءت الأيديولوجية الاستعمارية لتضع نفسها بين الطرف الأول والثاني، وتفرض نفسها على التاريخ، إذ دفعت البنية الأولى إلى تحطيم والتلاشي والثانية إلى التدهور والموت[2]. ويصف أوغسطين بيرك التدهور الفكري للنخبة الجزائرية وتغلغل الأيديولوجية الاستعمارية بينها، مع نهايات القرن التاسع عشر، بقوله: إن هذا الجيل فقد صلاته بوسطه الأصلي الذي كان قائما قبل 1830، ولم يعد لديه ما كان موجودا لدى أسلافه من الشعور المتقد بصدمة الاستعمار[3].

---

1 Perviillé (G.), Op. Cit, p23.

2 aroui (A.), Op. Cit, p. 320

3 Berque(A.),"Les intellectuels algériens ".**In: Revue Africaine** ,1947. p. 143

وكان هجوم الاستعمار على التعليم العربي الإسلامي بالجزائر بمثابة التأثير على آخر البنى التي يقوم عليها المجتمع الجزائري، ومن ثم فإن هذه الأرضية المتمثلة في التعليم ستكون آخر جبهة لمقاومة المجتمع ضد توغل الاستعمار في هذه المرحلة، كما أنها كانت الجبهة الأولى التي ستظهر من خلالها الصيغ الجديدة للمقاومة السياسية مع بدايات القرن العشرين، والتي سوف يتمحور حولها النضال الوطني فيما بعد[1]. إن قبول الجزائريين بالتعليم الاستعماري، بعد هزيمة المقراني سنة 1871، كان راجعا -في رأينا- إلى القوة العسكرية للاستعمار والقوة السياسية للإدارة التابعة له. ذلك أن الجزائريين ظلوا إلى غاية هذا التاريخ يعتقدون أن سلطة الاستعمار في الجزائر لن تطول. ولكن بعد فشل ثورة المقراني، اضطر الجزائريون لقبول هذا النوع من التعليم، إذ صرح بعضهم قائلاً لمسؤولي الإدارة الاستعمارية المسؤولة عن التعليم بالجزائر: إنكم أنتم السادة، فإذا طلبتم أن نبعث بأولادنا إلى مدارسكم فإننا نفعل ذلك[2]. وهذا الموقف إذا استثنينا منه بعض الفئات الساعية وراء مصالحها الخاصة وامتيازاتها، فإنه- في رأينا - لم يكن يعبر سوى عن خضوع مؤقت للقوة، ودليل ذلك أنه بعد هزيمة فرنسا أمام بروسيا، سنة 1870، سجّل الملاحظون هجر الجزائريين للمدارس الاستعمارية[3].

---

1 Djeghloul (A.) "M'hamed Ben Rahal et la question de l'instruction des Algériens"In , **Huit études sur l'Algérie**, CRASC , Oran, p. 74

2Colonna (F.), **Instituteurs Algériens**, p p. 36-37, Cf. Pervillé (E), Op. Cit, p 17

3 Pervillé (G.), Op. Cit, p17

والأقرب إلى الواقع التاريخي -في نظرنا- هو أن الجزائريين كانوا يرون في تأسيس جهاز التعليم الاستعماري اعتداء صارخا على ثقافتهم الأصلية، ولكنه اعتداء غير مباشر. ذلك أن هذا الجهاز التعليمي الجديد لم يكن يمس، سنة 1889، سوى2 % من الجزائريين في سن التمدرس، وهذا بسبب العقبات والعراقيل الموضوعة أمامه من طرف المعمرين الرافضين تعليم الأهالي. ثم إن المدرسة الاستعمارية(*) كانت تستعمل كذريعة غير مباشرة، لغلق الزوايا، التي لم يكن يتم تعويضها- غالبا- بأي مدرسة فرنسية. ولم يكن كثير من الجزائريين، إلى غاية الحرب العالمية الأولى، يطالبون بالتعليم الفرنسي لأنهم- كما ذكرنا- كانوا يعتبرونه تهديدا خطيرا لقيمهم الثقافية التي استمروا في المحافظة عليها، ولأن هذا النوع من التعليم كان يظهر للكثير منهم دون جدوى، لأنه لم يكن يمنح لكثير منهم أي فرصة للترقية داخل الوسط الاستعماري[1]. كما كانت المثقفون الجزائريون إلى سنة 1913 يرفضون التعليم المخصص للأهالي والذي يجعل الجزائريين في مرتبة دونية ويشكك في قدراتهم العقلية وقدرتهم على استيعاب البرامج الدراسية التي تعطى لزملائهم من أبناء المعمرين. وكان بن حبيلس يتساءل: هل الشاشية التي يحملها الجزائري فوق رأسه تعد رمزا للدونية؟ لقد أثبت كثير من زملائنا بتفوقهم على زملائهم خطأ هذه الفكرة[2].

(*) كانت المدرسة الاستعمارية في الجزائر تستمد مقرراتها ومناهجها من المدرسة الفرنسية بباريس ولكنها ظلت تكيفها مع الواقع الاستعماري في الجزائر، أما في جانب الإدارة المدرسية فكانت مستنسخة مباشرة من النموذج في فرنسا منذ 1919.

1 Djeghloul (A), "M'Hamed Ben Rahal ", Art. cité, pp 80-81

2 Benhabyles, Op. Cit. ,pp. 31-32

إنه يمكن -أيضا-فهم دوافع رفض المجتمع الجزائري للمدرسة الاستعمارية- في هذه المرحلة- بالنظر إلى البرامج المقررة بها، والتي كانت تهدد أبناؤهم في دينهم ووطنيتهم. ورغم أن الدين لم يكن مهددا بصورة مباشرة بسبب ضعف المدارس التنصيرية، في هذه المرحلة، ولأن الأفكار الحديثة التي كانت تنشرها المدرسة العلمانية(**) تخفف دون شك من الأحكام المسبقة الدينية، ولكن الأخلاق اللائكية ليست- في الواقع-سوى أخلاقا دينية تمت علمنتها كما يقول برفيي، وقد دعمت برامج 1898 هذا التوجه لصالح القيم الدينية المسيحية[1].

ـ **ظهور الفروق بين المثقفين الجزائريين:** لقد حافظت مدينة قسنطينة- عموما - على نمط حياتها، و لم يؤثر فيها حضور المعمرين، في هذه المرحلة، مثل المدن الأخرى كالجزائر العاصمة ووهران[2] وقد قامت جماعة من مثقفي مدينة قسنطينة بمبادرة سنة 1887 تتمثل في كتابة عريضة ممضاة من طرف ممثلي كثير

(**) من بين 2430 معلما في التعليم العام كان يوجد سنة 1900-1901 حوالي 2353 معلما ومعلمة من اللائكيين و77 من التابعين للمدارس الدينية المسيحية. وفي التعليم الخاص كان يوجد 53 معلما لائكيا و580 من التابعين للمدارس النصرانية وبناء على محاولات العلمنة لسنة 1900-1901 انحدر عدد المعلمين النصرانيين في التعليم العام من 105 إلى 77. وقد نصحت مصالح التعليم في الحكومة العامة بالجزائر أن تستمر علمنة التعليم العام في الجزائر لأنه في رأيها "في وضع يتسم بوجود عدة أديان في الجزائر يجب المحافظة على حيادية التعليم العام كما هو عليه الحال في فرنسا" انظر بهذا الصدد :

GGA, **Exposé de la situation générale de l'Algérie** (1900-1938) , p. 238

1Pervillé (G.), Op. cit. ,p. 25

2Emérit (M.), **l'Algérie à l'époque d'Abd El Kader**, La Rose-Paris1951.p. 237

من الفئات الاجتماعية بها، وهذه العريضة قد تضمنت- كما يقول مصطفى الأشرف- ما هو أفضل حتى من الأيديولوجيا[1]، ذلك أنها كانت عبرت عن مقاومة " بقايا " البنى الأصلية للأيديولوجية الاستعمارية و لم يكن الموقعون على هذه العريضة يطالبون، لأجل مقاومة التدهور الثقافي والاجتماعي، سوى بإعادة البنى التي كانت موجودة قبل دخول الاستعمار[2]. وقد اعتمد بعض الباحثين على هذه العريضة، الممضاة في سنة 1887م والموجهة إلى مجلس الأمة الفرنسي من طرف أعيان قسنطينة، في التعرف على نوعيات المثقفين داخل المجتمع الجزائري في هذه المرحلة. فقد ذكر محرروها أن عدد الموقعين عليها كان ألفاً وسبعمائة(1700) شخصية، كان بعضهم عضواً بالمجلس البلدي لمدينة قسنطينة وبعضهم أعضاء في المجالس العامة وغب الغرفة التجارية وكان بعضهم شيوخا وأئمة ومعلمين ومدرسين بالمدارس العليا وأعيانا من المدينة وملاكا وتجارا وصناعيين[3]. ولاحظ نفس الباحث أنه لم يرد في هذه الوثيقة ذكر للمثقفين المتخرجين من المدارس الفرنسية، فلم يرد في هذه العريضة ذكر للمعلمين ولا مدرسي الثانويات ولا ضباط الجيش ولا لمحامين ولا لأطباء، ورغم أن عدد هؤلاء قليل في هذه المرحلة-يقول هذا الباحث- ولكن كان ممن الممكن -في نظره- أن يرد ذكر لأسماء بعضهم في هذه العريضة وتساءل إذا لم الأمر يتعلق في بروز مبكر للاختلافات في الرؤى بين النخبة من الأعيان التي كانت متمسكة بالتقاليد الإسلامية ورفض كل ما لا يتماشى مع تعاليم الإسلام والنخبة "المتطورة" كما يسميها المعمرون والمتشكلة من المتخرجين من

1 Lacheraf (M.), L'Algérie: nation et société, Maspéro-Paris1976, p. 185
2 ibid.
3 ibid.

المدارس الفرنسية والذين والذي كانت لهم رؤى مختلفة خلال المذكرات التي كانت ترفع في هذه المرحلة إلى (لجنة الثمانية عشر) المشكلة من طرف مجلس الأمة الفرنسي برئاسة جول فيري مثل المذكرة التي أرسلها إلى هذه اللجنة المسمى لويس خوجة وكيل عدل بمدينة عنابة ونلاحظ من خلالها طرحا مختلفا

وهكذا فإن المدرسين الفرنسيين أثّروا على المثقفين الجزائريين على عدة مستويات: فبالنسبة إلى الفئة من الجزائريين التي لم تواصل تعليمها الثانوي والعالي كان التأثير يقتصر على تغيير نظرهم إلى الأشياء وإلى اكتساب مهارات معرفية وحرفية. أما بالسبة إلى الفئة التي واصلت تعليمها الثانوي والعالي فتجلى تأثرهم بمعلميهم في مظهرهم وفي طريقة تفكيرهم خصوصاً في إيمانهم المطلق بقيم الثورة الفرنسية، وكان تصورهم لمشاكل المجتمع الجزائري يمر بالضرورة عبر تصور النموذج المثالي المتمثل في فرنسا. وتجلى تأثير المعلمين الفرنسيين أيضا في تعميق الهوة بين المثقفين بالثقافة العربية التقليدية وبين المثقفين بالفرنسية وتجلت هذه الفروق في كثير من المواقف حول قضايا تهم المجتمع الجزائري.

الحصانة الدينية للذات الجزائرية
في العهد العثماني

الأستاذ خليفة حماش

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

يقصد بالحصانة الدينية هنا مقاومة التأثير الديني الذي يأتي من الذات الأخرى. وذلك التأثير ليس هو الذي يقود إلى اعتناق الأفكار فقط، وإنما إلى تغيير الدين لدى الفرد أيضا، أي الارتداد عن الدين الأصلي والدخول في دين آخر. وهذا الموضوع هو الذي أردنا أن نتناوله هنا ونبرزه بخصوص الذات الجزائرية في العهد العثماني بالنسبة إلى الذات الأخرى وهي أوروبا المسيحية، ويكون ذلك من خلال بعض المعطيات (أو المؤشرات) التاريخية التي على الرغم من قلتها وشح التفاصيل حولها، فهي ذات أهمية كبيرة في توضيح الخطوط العريضة للموضوع وفتح باب البحث فيه في المستقبل. ويقوم ذلك التوضيح على الإجابة عن ثلاثة أسئلة، يتعلق أولها بقنوات التأثير الديني الأوروبي على الجزائريين، والثاني بمظاهر الحصانة الدينية لدى الجزائريين تجاه ذلك التأثير، والثالث بحالات الاختراق التي حدثت لهم.

أولا: قنوات التأثير الديني:

إن قنوات التأثير الديني الأوروبي على الجزائريين في العهد العثماني كانت في الواقع جزءا من قنوات العلاقات العامة بين الجانبين، من سياسية وعسكرية وتجارية وغير ذلك، وهي علاقات كانت – ولا تزال– تفرضها عوامل متعددة، أهمها المصالح المادية والموقع الجغرافي. وكانت تلك القنوات هي الآتية:

1- **الوكالات (أو القنصليات)** التي كانت الدول الأوروبية تقيمهـا في مدينة الجزائر على وجه الخصوص، وبعض المدن الساحلية المهمة الأخرى مثـل وهران وعنابة والقل. وعلى الرغم من أن تلك الوكالات كانت مهمتها رعايـة مصالح الدول التي تمثلها في الميادين التجارية والـسياسية، إلا أن العـاملين بهـا والقائمين عليها كانوا في بعض الأحيان يخرجون عن نطاق تلك المهمة ويمارسون إلى جانبها أعمالا أخرى ومنها العمل الديني، وذلك بدعوة من لهم علاقة بهم من الجزائريين إلى اعتناق الدين المسيحي. ومثل ذلك العمل هو الذي كشفه لنا الأب دان LE PERE DAN الذي قدم من فرنسا إلى الجزائـر في عـام 1534م لافتـداء الأسرى، ثم زار الباستيون الفرنسي في مدينة القل بالشرق الجزائري. وقد تحدث الأب دان عن السيد صامصون نابوللون الذي كان وكيلا لذلك المركز التجاري الفرنسي ويرجع إليه فضل عقد معاهدة عام 1628م بين الجزائر وفرنسا، فقال بأن الوكيل الفرنسي تعرف عن شاب جزائري اسمه عبد الله، وقـد رآه الأب دان في الباستيون عندما زاره، وكان ذلك الشاب حيويا وفطنا، رأى الوكيل الفرنـسي في ملامحه ما يوحي بأنه سَيُقْدِمُ على القيام بعمل عظيم يحقق له مزايا كثيرة دينية ومادية، وذلك العمل هو الارتداد عن الدين الإسلامي واعتناق المسيحية، ولكي يدفعه الوكيل الفرنسي إلى ذلك العمل وعده بمكافأة مالية كبيرة إن هـو أقـدم عليه. ولم يتوقف الوكيل عند ذلك الحد في علاقته مع الشاب، وإنما أخذه برفقته إلى باريس عندما توجه إليها، وأقام له علاقات مع مقربيه في العاصمة الفرنـسية ليحتك بهم ويتعود على الحياة الفرنسية. وقد أفلح الوكيل الفرنـسي في تحقيـق

بعض مآربه؛ ومنها أن عبد الله تعلم اللغة الفرنسية. وعندما عاد صامصون إلى الباستيون عاد معه عبد الله أيضا[1]

2- الاحتلال الاسباني لوهران والمرسى الكبير:

إن الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير منذ مطلع القرن 16 م، لم يأت من دولة أوروبية عادية، وإنما من دولة أوروبية عظمى ومتعصبة دينيا في الوقت نفسه. وكانت تلك الدولة — وهي اسبانيا- تضع نشر الديانة المسيحية والدفاع عنها واحدا من أهدافها في حربها ضد المسلمين. وكما كانت قد طبقت تلك السياسة فوق أراضيها، فإنه من الطبيعي أن تنقلها إلى الأراضي الأخرى التي احتلتها خارج حدودها، ومنها وهران والمرسى الكبير في الجزائر. ولعل العشائر التي أفلحت في تجنيدها في الشرق الجزائري لتعمل إلى جانبها، كان واحدا من نتائج تلك السياسة. وهي العشائر التي أطلقت عليها المصادر المحلية اسم " العرب المنتصره"، وكذلك اسم "المغاطيس" أو "المغطسون"[2]، وكانت هي التي تقدم للإسبان الموارد التي يحتاجون إليها، وتزودهم بالأخبار التي يريدونها، وتدعمهم في الحملات التي يقومون بها والمعارك التي يخوضونها ضد الجزائريين[3]. وعلى الرغم من أن ذلك التعاون الذي أبدته تلك العشائر مع الإسبان يندرج ضمن العمل

1- Dan (le Père), **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, 2 éd., Paris, Pierre Rocotet, 1649, p 291

2 - عبد القادر المشرفي، **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**، تحقيق عمر بن عبد الكريم، بيروت، دار الحياة، د.تا، ص 12-14

3 - راجع تفاصيل ذلك في: عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص 12 وما بعدها. ابن زرقة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق مختار حساني، ضمن (تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني)، الجزائر، مخبر المخطوطات بجامعة الجزائر، 2003، ص 343-344؛ 346.

العسكري البحت، إلا أن ذلك لا ينفي وجود ما قد يعتبر تأثيرا دينيا عليها من جانبهم، ولو كان ذلك بشكل جزئي، وهو ما يمكن فهمه من بعض الإشارات الواردة في المصادر التي تناولت موضوع تلك العشائر، ومنها أن بعض عشيرة الونازرة قد توجهت بعد فتح وهران عام 1119هـ/1708م مع الاسبان "لعدوهم واستقروا بسبتة"[4]. ويبدو أنهم تنصروا. ثم الإشارة إلى أن هؤلاء المغاطيس كانوا يسرقون الأولاد والصغار ويبيعونهم للإسبان بوهران[5]، ويبدو أن ذلك من أجل تنصيرهم.

3- الأسر في أوروبا:

كان أسر الجزائريين على يد الأوروبيين في عرض البحر ونقلهم إلى المدن الأوروبية لبيعهم واستغلالهم في أعمال العبودية، واحدا من نتائج الحرب التي كانت قائمة بين الجزائر وأوروبا في البحر المتوسط. ولم يكن ذلك الأسرى يشكل حدثا عابرا في تلك الحرب، وإنما كان يشكل ظاهرة من ظواهرها، لأن عدد هؤلاء كان كبيرا، وكان منهم الأطفال والرجال والنساء والشيوخ، وكانوا موجودين في مدن أوروبية عديدة. وإذا كان بعضهم يطلق سراحهم أو يفلحون في الفرار ولو بعد سنوات طويلة من الأسر، فإن بعضهم الآخر كانوا يتوفون في الأسر ولا يعودون إلى أهاليهم بالجزائر مطلقا، وذلك ما تكشفه لنا ليس المصادر الأوروبية فقط كما بين ذلك الدكتور مولاي بلحميسي في دراسة له حول

---

4 - عبد القادر المشرفي: **المصدر السابق**، ص 39.

5 - **المصدر نفسه**، ص 14

الموضوع[6]، وإنما المصادر المحلية أيضا، ومنها عقود المحكمة الشرعية التي تعود إلى ذلك العهد على وجه الخصوص، حيث نجد معلومات معتبرة عن هؤلاء الأسرى، وذلك مثل مدة أسرهم وطرق افتدائهم، والظروف الاجتماعية التي تنعكس على عائلاتهم من جراء أسرهم وغير ذلك. وبخصوص موضوعنا هنا فإن هؤلاء الأسرى كانوا بالنسبة إلى الأوروبيين لا يشكلون عنصرا اقتصاديا فقط، وإنما مجالا لتأثير الديني ونشر المسيحية بينهم أيضا ، كما تكشف لنا ذلك بعض الحالات التي سيأتي ذكرها.

4- السفر إلى أوروبا:

إن الجزائريين في علاقاتهم مع الأوربيين لم يكونوا يمارسون الحرب والسياسة فقط، وإنما كانوا يمارسون إلى جانب ذلك أعمالا أخرى حرة أيضا، وكانت تلك الأعمال تقودهم إلى عدد من المدن الأوروبية، في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، ومن تلك الأعمال التجارة. ولدينا كمثال على ذلك حالة قدور البربري الذي سافر إلى مدينة ليفورن الإيطالية، (أو الجورنة كما تسمى في المصادر المحلية آنذاك)، وتوفي بها، وترك ديونا كثيرة عليه لبعض الأشخاص في مدينة الجزائر، وقسمت تركته على ورثته في أواسط جمادي الأولى 1236هـ[7] (1821م).

ولكن الجزائريين الذين كانوا يسافرون إلى المدن الأوروبية إذا كان أغلبهم يقوم بذلك لغرض التجارة، فإن هناك منهم من كانوا يقومون بذلك لغرض

6-Belhamissi (M), **les captifs algériens et l'Europe chrétienne**, Alger,ENLI, 1988

7 – الجزائر، الأرشيف الوطني، قسم المحكمة الشرعية، علبة (ع) 90-91، ميكروفيش (م)6، د23، سنة 1236. ع 90-91، م1. د17، سنة 1236-1237.

المغامرة، وذلك ما تكشفه لنا حالة سجلها لنا في مذكراته الديبلوماسي الفرنسي شوفالييه دارفيو في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، وجعل لها عنوانا هو: "جزائري يتزوج هولندية". وتتعلق تلك الحالة التي عاش الديبلوماسي الفرنسي بعض أحداثها عن قرب، بشاب جزائري اسمه حكمت hakmet، وكان ابنا لأحد رؤساء البحر، وقد قبض عليه القراصنة الإسبان وهو طفل لما كان برفقة والده على متن سفينة في عرض البحر، وبيع لأحد الوجهاء في اسبانيا، فاهتم بتربيته، وبعد بضع سنوات أطلق سراحه وعاد إلى الجزائر، ولكن حكمت ما لبث أن توجه بعد ذلك لممارسة القرصنة في عرض البحر، فقبض عليه القراصنة الإسبان مرة أخرى، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة. وعندما عاد إلى الجزائر قرر أن يعود إلى إسبانيا؛ ولكن ليس للقرصنة، وإنما للمغامرة، واستغل في ذلك معرفته للغة الاسبانية (القشتالية) وطبائع الإسبان وحياتهم. فلبس زيا اسبانيا وانتحل لنفسه اسما اسبانيا أيضا شهيرا هو Valesco dom Joseph de Herrera، ولما وصل اسبانيا طاف بتلك الشخصية المنتحلة مناطق كثيرة بها، وانتهى به المطاف إلى الدخول للعمل في الجيش الاسباني حيث نال شهرة واسعة بفضل شجاعته وطيبته وحسن سيرته. وقام برحلتين إلى الهند على متن الأسطول الاسباني، وبعد ذلك دخل فرقة الخيالة؛ ثم فرقة المدفعية، واستقر به المقام في نهاية الأمر بمدينة أنفرس Anvers في بلجيكا، وذلك كله "مع بقائه على دينه" كما ذكر شوفالييه دارفيو، ودون أن يكتشف أمره أحد من الاسبان، وفي هذه المدنية الأخيرة أقام علاقات واسعة مع وجهاء المجتمع، رجالا ونساء، وتعلقت به فتيات كثيرات، ولكن هو لم يتعلق سوى بواحدة منهن وتزوج بها ؛ وكانت بنتا هولندية اسمها Helene Danes ؛ وكان والدها يعمل في خزينة الملك الإسباني. وقد

جاء بها إلى الجزائر، وفي أثناء الطريق كشف لها أنه مسلم. ولما وصل إلى الجزائر وجد أن المحيط الاجتماعي لا يتقبل رؤية رجل مسلم متزوج بنصرانية، ولذلك فإن ضغوطا كثيرة بدأت تمارس على زوجته من أجل إرغامها على تغيير دينها، حتى ضاقت ذرعا بذلك و لم تطق مواصلة حياتها بالمدينة، ومن أجل التخفيف عليها قرر زوجها أخذها هي والطفل الذي رزق به منها، إلى استانبول، فركبوا جميعا البحر نحو الاسكندرية، ومن هناك توجوا إلى فلسطين حيث زاروا القدس و بيت لحم، ثم أكملوا سفرهم إلى لبنان ونزلوا بمدينة صيدا، وهناك توقفت رحلة حكمت كما توقفت علاقته بزوجته وابنه أيضا، لأن المسيحيين اكتشفوا أمره فهاجموه ليلا واستولوا على أمتعته وأمواله وقتلوه. وأما الزوجة وابنها فقد لجأت إلى دير تابع لليسوعيين، فقام الرهبان الذين كانوا به بنقلها إلى سفينة إيطالية لتحملها إلى البندقية، ومن هناك تركب البحر ثانية وتعود إلى مدينتها أنفرس Anvers في بلجيكا[8].

5- **التنصير المنظم:**

كما هو معلوم فإن التنصير المنظم الذي يعني نشر الديانة النصرانية بواسطة الدعوة إليها بالوسائل السلمية هو عمل شرعت الكنيسة الأوروبية القيام به بعد الحروب الصليبية، حيث أثبتت لها التجربة عدم جدوى استخدام القوة في نشر الدين. وكانت بلاد المغرب عموما واحدة من المناطق المستهدفة بذلك العمل .ولما كانت السلطة العثمانية القائمة آنذاك تعتبر الدفاع عن الدين واحدا من مبادئها الأساسية، فإن الدعاية الدينية الخارجية كانت تجد صعوبة كبيرة في

8 –Arivieux (chevalier d'), **Mémoires**, Paris, 1735, T6, p. 4 69-482

التسرب إلى المنطقة ومنها الجزائر، وإن حدث أن تسربت فإنها لم تكن تجد تجاوبا من جانب السكان مثلما تشهد المصادر الأوروبية المعاصرة آنذاك نفسها كما سنبينه في العنصر الموالي.

ثانيا: مظاهر الحصانة:

إن الذات الجزائرية في العهد العثماني ـــ كما بيناه في العنصر السابق- لم تكن منعزلة عن الذات الأخرى الممثلة في العالم الأوروبي، وإنما كانت في علاقة مستمرة معها، وكانت منافذ تلك العلاقات، في بعضها على الأقل، هي من منافذ للتأثير الديني. ولكن ذلك التأثير لم يكن يحقق نتائجه نظر إلى عامل الحصانة (أو المناعة) التي كانت تتمتع بها الذات الجزائرية آنذاك، ولنا في ذلك بعض الشواهد التاريخية ذات الأهمية، ونذكر في أولها ومرة أخرى حالة الشاب عبد الله التي سبق الإشارة إليها، وقلنا بأن "الأب دان" هو الذي سجلها لنا، وكان الوكيل الفرنسي في الباستيون "صانصون نابوللون" قد قرب إليه ذلك الشاب لما رآه فيه من خصال رفيعه، ووعده بمكافأة مالية كبيرة إن هو اعتنق المسيحية. وقد أخذه برفقته إلى باريس من أجل أن يقنعه بذلك. وكما يقول الأب دان الذي رأى ذلك الشاب في الباستيون بعد عودته من باريس، بأن اندماجه في المجتمع الباريسي بلغ حدا جعله يتعلم بعض اللغة الفرنسية، حتى أن الوكيل الفرنسي "اقتنع بأن هدفه قد تحقق، وأن ذلك الشاب قد تعود بالفعل على الحياة المسيحية، وأنه لن يرضى في المستقبل بأن يعيش بين المسلمين ويحيي حياتهم المنحرفة". ولكن عبد الله- كما يقول الأب دان، "ما أن خرج من الباستيون وذهب لزيارة إحدى القرى القريبة من الباستيون حتى شوهد بأنه رمى قبعته على الأرض، وخلع ثيابه ذات الزي النصراني، وترك رجليه حافيتين، ولبس برنوسا باليا وجده

هناك وغطى به جسمه، واعتقد بذلك العمل أنه كسر أغلالا حديدية كانت تكبله". ويضيف الأب دان بأن عبد الله "ظل يردد أمام أصدقائه بأنه لم يشعر أبدا لما كان وسط النصارى بسعادة أقوى من سعادته وهو يعيش حرا في وطنه ويحيى حياة المسلمين". ويعتبر ذلك كما يقول الأب دان، "قناعة راسخة في ذهنه لا يستطيع أن يثنيه عنها أحد، على الرغم من أنه يعيش في فقر مدقع ولا يوفر قوت يومه إلا بصعوبة"[9].

وإذا كان الأب دان قد عبر عن الحصانة الدينية للذات الجزائرية بواسطة حادثة تاريخية تمس فردا واحدا من الجزائريين، فإن رجل دين آخر فرنسي أيضا زار الجزائر بعده في عام 1785، وأنتقل إلى المنطقة الشرقية منها مثلة، قد عبر عن تلك الحصانة بواسطة حكم عام أصدره عن كل الجزائريين. وذلك الرجل هو القس بواري L' Abbé Poiret الذي قال بخصوص ذلك " إن شعبا مثل هذا ليس له قابلية لتغيير دينه (أي التنصير) أبدا، وذلك حتى بواسطة المعجزات untel peuple est inconvertissable même avec les miracles ". ثم يضيف قوله "إنهم يعتقدون بهذه الحياة (الإسلامية) سيسكنون بعد رفاقهم في الجنة مع الحور ذوات العيون الزرقاء، وينامون على أسرة من الورد، بينما سينام النصارى واليهود على الفحم المتأججة ناره، وذلك ما يقوله أولادهم الصغار في أنشودة يرددونها عندما يرون نصرانيا أمامهم"[10].

---

9 -Dan, op. cit.,p 291

10- Poiret (l'abbé). **voyage en Barbarie, ou lettres écrites de l'ancienne** Numidie,Paris, J.B.F, 1789, I ère partie, p 132

"والمعجزات" التي قصدها الأب بواري هي ما أخبره به أحد الأوروبيين المهتدين في الجزائر، من أن المسلمين رأوا مرة الكتاب المقدس (الإنجيل) يسبح فوق مياه الشاطئ، فحاولوا عدة أيام الإمساك به، ولكنهم كلما اقتربوا منه ابتعد عنهم، إلى أن جاء بعض اليهود وأمسكوا به بسهولة وأخذوه إلى معبدهم[11]. وإذا صحت هذه الرواية، فإنه حُق أن يُسأل عن مصدر ذلك الإنجيل، فهل وجد في مياه الشاطئ صدفة، أم أنه سرب إلى الجزائر في إطار عمل دعائي للمسيحية.

وأما المؤشر الثالث فيتمثل في الأسرى الجزائريين الذين كان عددهم كبيرا في أوروبا، وكان كثير منهم يبقى في الأسر سنوات طويلة قد تصل إلى بضعة عقود، وكان التأثير الديني يمارس عليهم من غير شك بقوة من قبل الأوروبيين، وعلاوة على ذلك فإن إطلاق سراحهم بواسطة الفدية كان عملا تتحمله أسرهم وليست السلطة أو منظمات خيرية كما كان الحال في أوروبا بالنسبة إلى الأسرى الأوروبيين في الجزائر. وإذا كانت بعض الأسر لديها من المال ما تدفعه في افتداء أبنائها ، فإن بعضها الآخر وهي كثيرة لم تكن تجد ما تدفعه في ذلك، وتضطر إلى بيع أملاكها من أجل ذلك كما تكشف لنا ذلك عقود المحكمة الشرعية[12]. ولكن مع ذلك فإن هؤلاء الأسرى كانوا يقاومون كل تلك الضغوط ويفضلون البقاء على دينهم الإسلامي على أن يرتدوا إلى النصرانية وما يجلبه ذلك إليهم من منافع مادية ومعنوية، وكان منهم من يعودون إلى الجزائر، ومنهم من يتوفون في الأسر ودون أن يغيروا دينهم. وقد حفظت لنا عقود المحكمة الشرعية في كلتا

---

11 – **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

12 – ع 32،م1، ق2، سنة 1074. حالة مصطفى بن محمد بلكباشي.

الحالتين نماذج منهم. فمن الأسرى العائدين نذكر حالة أحمد بن براهيم الكميليو الأندلسي الذي بقي أسيرا (15) سنة، ولما عاد وجد أبويه قد توفيا، وحصل على منابه إرثا من تركتهما من أخيه في أوائل محرم 1073هـ"[13] (1662م)، ثم حالة عمر بن شعوة الذي بقي في الأسر مدة (28)سنة، ولما عاد إلى الجزائر وجد زوجته قد طلقت منه، ولما يعترف له أقاربه بنسبه إلى أسرة ابن شعوة، وحاولوا منعه من أخذ منابه في الميراث، إلى أن ترافع معهم إلى المحكمة في أواخر شوال 1192هـ (1778)، ثم في أواسط ذي القعدة من السنة نفسها[14]. أما الأسرى الذين توفوا وهم في الأسر فلدينا منهم محمد بن علي الذي أثبتت وفاته في المحكمة الشرعية في أواسط ربيع الأول 1193هـ[15] (1779م) ، ومصطفى الانكشاري ابن بكير الذي أثبتت وفاته في عام 1222هـ(1807م)[16]

والمؤشر الرابع يتمثل في تلك العشائر التي تعاونت مع الإسبان في وهران والمرسى الكبير، وقلنا بأنهم سموا " العرب المتنصرة"، كما سموا " المغاطيش". فهؤلاء الأعراب كانوا في الواقع يمثلون حالة مميزة ليست لها علاقة بالدين، لأن هؤلاء الأعراب رغم ذلك التعاون الذي أبدوه مع الإسبان ضد بني وطنهم المسلمين، إلا أنهم لم يتنصروا (أي لم يدخلوا في النصرانية)، بل أنهم كما قال عنهم عبد القادر المشرفي آنذاك: "كانوا يعتقدون أنهم على الإسلام وصحيح

---

13 – ع89، م3، ق63.سنة 1073.

14 – ع 33ن م 1، ق 2ن سنة 1192 .

15 – ع 150، م 2، ق 20 ، سنة 1193 .

16 – ع 148 - 149، م 5 ، ق 69، سنة 1222.

الإيمان وأنهم في رحمة الله خالدون"[17]، وحتى عبد القادر المشرفي نفسه لم يقل عنهم أنهم غيروا دينهم، على الرغم من الصفات السيئة التي وصفهم بها، وهي لا تعبر عن الارتداد، وإنما على الانحراف عن الدين، ومن تلك الصفات : الزندقة والنفاق والكفر وضعف الإيمان والتلاعب بالدين وخيانة المسلمين وموالاة الكافرين. ولما كان ذلك التعاون لم يقم على الدين، فإنه قام من غير شك على الإغراءات المادية والنعرات العصبية. وذلك ما جعل "فرقة منهم تابت إلى الله تعالى وأنابت عن موالاة العدو ومواصلاته، وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا"، وجعلها عبد القادر المشرفي "واحدة من جماعة المسلمين إن لم يتقدم منها ما يبيح الدم "[18].

والمؤشر الخامس يتمثل في تدخل السلطة في حماية الدين ودعم الحصانة الدينية لأفراد المجتمع، باعتبار ذلك عملا يندرج ضمن مهامها الأساسية، وذلك ما يفسر لنا بعض الأعمال التي كانت تقوم بها، ومنها ما قام به إبراهيم خزنه جي في أوائل جمادي الثانية 1157 هـ (1744م) حيث بعث برسالة إلى آغا نوبة مدينة القل أمره فيها بالاتصال بنائب القنصل الفرنسي ويخبره بوجوب عدم إشراك مترجم القنصلية، وهو جزائري، في تناول طعامه معه لأنه يطبخه بواسطة

17- عبد القادر المشرفي، **المصدر السابق**، ص 38.

18- **المصدر نفسه**، ص 40.

شحم الخنزير الذي يحرمه الدين على المسلمين، وعليه أن يُعد له طعاما خاصا به كما جرت العادة بذلك من قبل[19].

ثالثا : الاختراق الديني

إن الحديث عن الحصانة الدينية للذات الجزائرية في العهد العثماني لا يعني إصدار حكم مطلق بذلك ينفي حدوث أي اختراق ديني لتلك الذات، وإنما هو حديث عن قاعدة عامة فقط كانت سائدة آنذاك، غير أن ذلك الاختراق الذي كان يحدث من حين إلى آخر كما كشفت عن ذلك الحالات القليلة الذي أشارت إليها المصادر، لم يكن اختراقا واسعا، وإنما كان محصورا في دائرة ضيقة ومحددة. وتلك الحالات تعبر عن حقيقة التأثير الديني الذي كان يقع على الجزائريين أكثر مما تعبر عن ظاهرة لاختراق ديني حدث لهم. ولدينا من ذلك حالتان حدثتا في الأسر في أوروبا، وليس في الجزائر حيث كان التأثير الديني يتجه من الجزائري إلى الأوروبي وليس العكس كما تثبت ذلك ظاهرة المهتدين الأوروبيين التي كانت موجودة في الجزائر آنذاك. والحالة الأولى منهما أوردتها لنا المصادر الأوروبية وتتعلق بفاطمة بنت آغا الانكشارية التي تزوجت في عام 1612م، وأرسلت من مدينة الجزائر إلى بيت زوجها في مدينة أخرى ساحلية، على متن إحدى السفن، ولكن تلك السفينة اعترضها قراصنة كورسيكيون واستولوا عليها، وأخذوا من كان على متنها أسرى إلى جزيرة كورسيكا، وكان منهم فاطمة العروسة التي باعوها لإحدى الأسر حيث ارتدت إلى المسيحية،

19- المكتبة الوطنية (الجزائر) المجموعة الوثائقية رقم 3205، ملف رقم 12 وثيقة 21. وراجع أيضا خليفة حماش، كشاف الوثائق عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالمكتبتين الوطنيتين بالجزائر وتونس، المجلة العربية للدراسات العثمانية، ، افترسي، تونس، ع 13-14/1996 ص. 49.

ولكن لا ندري أكان ذلك عن قناعة منها أم رغما عنها. وقد علم والدها بخبرها وأرسل من يقوم بافتدائها، ومعه أموال طائلة. ولكن ذلك المبعوث رجع إلى الجزائر دون أن يحقق ما ذهب من أجله، لأنه أخبر أن فاطمة اعتنقت المسيحية وكان ذلك برغبة منها، ولذلك فهي لا تود العودة إلى الجزائر. ولكن الباشا الذي علم بأسر فاطمة رفض تصديق ذلك الخبر، واعتبر أن اعتناق المسيحية كان مجرد ذريعة اتخذتها تلك الأسرة من أجل رفض الفدية وإبقاء فاطمة أسيرة لديها، ولذلك أمر هو الآخر بفرض إجراءات قاسية على الأسرى الأوروبيين في الجزائر والتضييق على الجمعيات الدينية التي تأتي من أوروبا لافتدائهم[20].

وأما الحالة الثانية فأوردها لنا المصادر المحلية، وتتعلق بجندي إنكشاري لم يذكر اسمه، وكان قد أسر في مالطة، وقد أتى الخبر إلى الجزائر بأنه تنصر، فقام ناظر بيت المال إثر ذلك في أواسط شوال 1181هـ (1768م) ببيع أملاكه، وأعطى لأخيه من قيمتها (40) دينارا ذهبا، وأودع الباقي من ذلك خزينة بيت المال[21].

ومثل تلك الاختراقات الدينية التي كانت تحدث للجزائريين في الأسر، لم تكن تحدث لهم وحدهم ، وإنما لغيرهم من المسلمين أيضا كما تذكر المصادر الأوروبية، وكان من أبرزها ذلك الذي حدث لأمير مغربي أسر في عام 1651 م وهو في العشرينات من عمره واسمه سيدي محمد الدلاعي ، وكان أسره مع عدد من المغاربة في أثناء سفرهم في البحرمن تونس لأداء فريضة الحج. وكما تذكر

20- Tournier (Jules), **Jean le Vachet, prêtre ,consul de France et martyre** (1647 – 1683), Rabat, La Porte,, 1947, p 172 – 173.

21 – المكتبة الوطنية (الجزائر)، المجموعة الوثائقية رقم 1641، وثيقة رقم 2 راجع أيضا: خليفة حماش، **كشاف الوثائق** ، مصدر سابق، ص 311.

المصادر الأوروبية فإن الأمير المغربي كان قد حصل على المال الذي يفتدي به نفسه مع رفاقه، وكان على وشك مغادرة مالطة عندما حدثت بعض المعوقات التي منعته من ذلك، وفي إحدى الليالي رأى في المنام ما جعله يقرر التخلي عن الإسلام واعتناق المسيحية، وكان ذلك في جوان 1656م. واتخذ لنفسه اسم الأب بالتازار لويولا P. BALTHAZAR Loyola ونال شهرة واسعة في المدن الأوروبية بسبب ثقافته الواسعة، ونجاحه في تنصير الأسرى المسلمين، وبشكل خاص في مدينتي جنوة ونابولي حيث نصر كما تذكر المصادر الأوروبية أكثر من (1500) أسير[22]، وهو عدد مبالغ فيه كثيرا، وجاء ذكره في المصادر الأوروبية ليس بغرض كشف الحقيقة، وإنما للدعاية.

22 – راجع تفاصيل ذلك في:

Castries (H. de), **Les sources inédites de l'histoire du Maroc**, 2 ème série, T1, Paris. E. Le Roux, 1922, p 203 – 240

ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر

الأستاذة فريدة قاسي

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

تمهيد:

العالم المفكر هو الذي لا يكتفي بتخصصه بل بضرورة اطلاعه الواسع على علوم ومعارف الذين سبقوه أولا، واطلاعه ثانيا على علوم عصره والأفكار والقيم المتداولة، ويكون صاحب قدرة على التحليل والاستنباط والتأثير أيضا، لكي نعتبره مفكرا وفيلسوفا وصاحب مدرسة تختلف عن مدارس الآخرين.

فهل يمكن اعتبار الأمير بحكم ثقافته وصفاته مفكرا وفيلسوفا؟ إذا كان كذلك فما هي مصادر تكوينه الفكري؟ وما هي أهم القضايا التي عالجها؟ ودعائم مقومات فلسفته الحضارية؟

للأمير عبد القادر وجهان وجه معروف حول نضاله وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، وهذا الوجه كتب حوله كثير من الأعمال من كتب ومقالات ودراسات وبحوث ومؤتمرات.

ووجه لا يعرفه إلا الخاصة وهو الإنتاج الفكري الذي أبدعه وخلد به، وهو إنتاج غزير يتناول جوانب عديدة في المعرفة الإنسانية.

1 – التكوين الفكري والخلفية العلمية للأمير عبد القادر:

ينحدر الأمير من أسرة عالمة، فأجداده العشرة بدءا من عبد القوي وانتهاء بمحي الدين كانوا جميعا من العلماء يرتحلون في طلب العلم، وطالما أن نسب هذه الأسرة ينتهي إلى الانتساب النبوي فقد ساعد أن يتبوأ أفرادها منزلة اجتماعية

خاصة ألجأتهم إلى ضرورة التسلح بالعلم والسعي في تحصيله والدعوة إلى الجهاد وممارسته حتى الاستشهاد.

وكان والد الأمير سيدي محي الدين رجلا مهابا محترما ليس لكونه قادريا، وإنما لكونه عالما فقيها وحكيما شجاعا امتاز بالسلوكيات الإسلامية وعلو المنزلة العلمية وهيبة قبيلة بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الأدارسة.

فأمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده ومنهم عبد القادر حيث ظهرت عليه في سن مبكرة صفات من ذكاء وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف إلى جانب نفس أبية وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة التي نشأ في أحضانها.

هذه الحياة الإيمانية القوية التي نشأ فيها والعائلة المتماسكة الدافئة كان لها أثر في نضج الأمير عند اكتمال رجولته، حيث زرعت في أعماقه أهمية كبرى في التفكير بكل ما أبدعه الله سبحانه وتعالى في هذه الطبيعة من جمال أخاذ ونظام متناسق مبدع، فكان ينظر إليها بأسلوب المفكر المتأمل.

في هذا المناخ نشأ الأمير وتعلم القرآن والحديث والسير والتراجم واللغة كما درس بعد ذلك المنطق والفقه وعلم الكلام وتبحر في علوم اللغة.

لقد عدد لنا الرجل شيوخه وما درس عليهم وطرق دراسته، وقد استمّر تحصيله للعلم في المغرب العربي نحو ستة عشر عاما، قبل أن يرحل إلى المشرق للحج وطلب العلم مارا بمراكز علمية هامة (قسنطينة، تونس، القيروان، الأسكندرية، طنطا، القاهرة، مكة، المدينة، القدس، دمشق، بغداد).

وبعد أن توّقف نضال الأمير أتيحت له الفرصة للتفرّغ لتحصيل العلم والتبحّر فيه، وتأليف الكتب والقصائد الشّعرية وظلّ يحمل القلم إلى وفاته –رحمه الله–.

2- مصادر فكر الأمير عبد القادر:

من أهم مصادر فكر الأمير الأساسية القرآن والحديث النبوي وما ورد فيهما أصل مواقفه ونبع فكره، وما عدا ذلك يقبل المخالفة والنقد والتقصي شكلا وموضوعا، وهو يرى أن لكل قادر على الفهم والنظر والتعبير أن ينظر في القرآن الكريم ويعبر دون مصدر ما دام يستند على قدر معقول من الاستدلال.

وهو يعتقد أن في القرآن أصول العلوم التي بها صلاح الدنيا والآخرة ونظامها في علم الطب والجبر والمقابلة وأصول الصنائع كالخياطة والحدادة والبناء والتجارة وغير ذلك.

أما بالنسبة للمصدر الثاني حيث يلمس بلاغة الحديث لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أعطي جوامع الكلم وينابيع العلم.

3- تبلور اتجاه الأمير الفكري:

عرف الأمير عبد القادر بأنه رجل علم ورأي، كما عرف بأنه رجل حرب وحكم، ومن هذه النافذة الثقافية جاءه العلماء في منفاه وطلاب المعرفة وكثرت محاورته ومراسلاته.

ويرى "غوستافو دوقا": أن بداية نبوغ الشخصية العلمية والفلسفية للأمير تكشف عنها فترة ما بعد اعتقاله بأمبواز. حيث جدد الأمير حياته الأدبية والفكرية.

فأثناء سجنه نسي مسألة إطلاق سراحه، وتحول إلى الكتب والدراسة وممارسة الشعائر الدينية وكانت ثمرة أعماله الفكرية تأليفه مجموعة من الكتب دلّت على

تاريخ الجزائر الثقافي من ذلك العصر الذي تصوره المدرسة الاستعمارية وكتابها على أنها عصر جمود فكري تمثله الزوايا والطرق الصوفية.

كان الأمير في تأليفه ابن البيئة التي نشأ فيها وهي بيئة ثقافية إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة أثرت في تكوينه النفسي والفكري والاجتماعي والسياسي. ومن أهّم مؤلّفاته:

"رسالة المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، كتبها الأمير في سجن أمبواز وجاء في مقدمة الرسالة دواعي كتابتها:

"عندما طلب مني شرح عن معتقدَاتي الإسلامية أجبتهم بأنني لا أصلح تلميذًا لعلماء المسلمين فضلا أن أكون من جملتهم، ولكني سأبذل الجهد وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى وأحاديث رسوله-صلى الله عليه وسلم- وكلام التابعين والخلفاء الراشدين".

وقد قسم هذه الرسالة إلى مقدمة وثلاثة أبواب:

المقدمة في كلام عن العقل وما يتعلق به، والباب الأول في إثبات الألوهية وفيه ثلاث فصول، الأول النظر في خلق السّموات، الثاني في خلق الأرض، والثالث في خلق الإنسان.

والباب الثاني في إثبات النبوة وفيها فصلان: الأول حاجة الإنسان إلى الرسل، والثاني تاريخ الرسل عليهم السلام.

والباب الثالث خصصه للحديث عن الأخلاق الإسلامية منذ عهد آدم عليه السلام من رحمة وعدل وحياء وعفة، وتجنب إثارة الفتن والبطر بنعم الله ووجوب الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، والتقيد بمكارم الأخلاق التي تمت بنزول القرآن على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

كتاب "المواقف": وقد عبر فيه عن خلاصة آرائه ونتائج دراسته وتحصيله وتجاربه وتأمّلاته، وقد أقدم فيه على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد بثّ فيه أرائه الصلاحية وحواراته مع العلماء المسلمين.

جمع الأمير في "المواقف" فلسفته كلها وحواراته جميعها ومواقفه من آراء علماء المسلمين حول الله والإنسان" ومن المعروف أن قضية الألوهية قد حظيت بجهود فكرية كبيرة من جانب الفلاسفة في كل عصر وأوان، وقد أولاها مفكرّو الإسلام القدماء قسطا من اهتمامهم على اعتبار أن الفلسفة الإسلامية في الأصل فلسفة دينية.

ومن يقرآ المواقف قراءة متأنية يجد أن الأمير قد آثر أن يناقش قضية وصفات الله دون الخوض في الذات الإلهية.

كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل": وهو عبارة عن بحث فلسفي كتبه الأمير "بيروسّة" التركية بين عامي (1852-1855)، تقع هذه الرسالة الفكرية الفلسفية في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

تناول الباب الأول فوائد التعليم، والباب الثاني خصص لقضايا تتعلق بالدين والأخلاق، والباب الثالث تحدث فيه المؤلف عن فن الكتابة والعلوم العامة.

ويقول رابح بونار عن هذا الكتاب أو الرسالة : "هي قبسة فكر- يحاول الأمير أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصّه من أبحاث الإمام الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب النثري بالجزائر في أواخر القرن التاسع عشر، ترفع من إنتاجها الفكري وتسبغ عليها هالة من الإجلال وتستحق منا كل عناية واهتمام".

والرسالة بصورة عامة إسهام من الأمير عبد القادر في الأبحاث الفلسفية على عهده، وقد أصدرها في وقت كانت فيه مباحث معاصريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية، وقد جاء في مقدمتها << أما بعد فقد بلغني أن العلماء (كذا) فرنسا كتبوا اسمي في دفتر العلماء ونظموني في سلك العظماء، فاهتززت لذلك فرحا، فرحت من حيث ستر الله علي حتى نظر عباده بحسن الظن إلي، ثم أشار علي بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم، فكتبت هذه العاجلة لتشبّه بالعلماء والأعلام، ورميت سهمي بين السهام، وسميت هذه الرسالة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل".

وقد أرسل الأمير نسخة مخطوطة إلى رئيس المجمع العلمي الآسيوي السيد "رينو" "président de la société asiatique". وهو باحث محنك وخبير في الدراسات التاريخية: مطلع على تاريخ الديانات الثلاث، كتب عن الأمير تقريرا أُدرج ضمن مخطوطات المكتبة الملكية.

4- آراء **الأمير ونظرياته الفكرية:**

طرق الأمير محاور الصراع بين الشرق والغرب، ويبدو أنه افتتح عصرا لمناظرات حول القضايا الدينية قبل أن تَنْشُبَ بسنوات بين " الأفغاني" "ورينان" وبين "محمد عبده" وبين "لوبون".

ومن خلال هذه المحاور ظفرنا بوثائق وقرائن على ثقافته وآرائه الشخصية حول الأخلاق، المرأة، وعلى مدى تمكن نزعة الفروسية منه، فهو لا يتكلم مجرد نظريات بل مارسها فكرا وشعرا وعلما وأحكاما وتنفيذا دون كثير من المتناظرين.

وتعتمد طريقة مناظرته على الإفاضة الدقيقة المنظّمة للأدلة والشواهد، والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية والكتب المقدسة، التي تعد معرفة ما فيها جزءا ضروريا لمثل هذه المناسبات في ثقافته قبل نفيه.

كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين، أو بعناصر معينة فيه والتزام ميزة ما في هذا المجتمع المتخلف على ذلك المتقدم.

كان الأمير في مبارياته الفكرية والسياسية يلتمس الدّليل المعقول والتعليل المعقول لكل ما سيقول دون توقف وتخوف وكأنه ما يزال في ميدان حرب عوان بين ثقافتين جد متصارعتين.

ومن أهم القضايا المتصارع فيها بين الثقافتين:

1- الدين

عندما صدرت ترجمة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" لأول مرة بالفرنسية من خلال "كتاب عبد القادر" لـــ "غوستاف دوقا" "dugut, gustave", "le livre d'Abdel kader" اكتشف المترجم من خلالها مفكرا عربيا أصيلا ورجل ثقافة نبيلة متفتّحة تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق، من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلّبات الدين الإسلامي، منتهيا إلى أن قيم ومعاني هذا الدّين الدين الإسلامي تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الانسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب.

وأهمية هذه الترجمة تكمن في أن "غوستاف" يقدم في بعض الأحيان أوجه التشابه بين ما ذكره الأمير في كتابه وما يذكره بعض الفلاسفة الفرنسيين ممن كانوا

ينتمون إلى جامعة السوربون، ويعبر المقطع الآتي عن هذه الفكرة بجلاء: "يتحدث عبد القادر كفقهاء السوربون، فهو في انسجام تام مع فكر البابا، إنه يشبههم تماما".

« Abdel Kader parle comme un théologien de Sorbonne, il est un parfaite communion de doctrine avec le pape. »

كما أن الأمير عبد القادر من خلال اتصاله برجالة الكنيسة "مادلين" " l'église madeline" عام 1852 بباريس يكون قد جدد الفعل التواصلي بين الديانات والذي قام به عمر بن الخطاب منذ أحد عشر قرنا خلت في بيت لحم بالقدس، من حيث التعبير عن سماحة الدين الإسلامي واحترامه للآخر، والتعامل بالحسنى مع أصحاب الديانات الموحدية.

إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرفه الأمير عبد القادر أثناء وجوده في الجزائر وأثناء وجوده خارجها، فموقفه من رجال الدين الفرنسيين في الجزائر، وتصريحه في كنيسة المادلين حين قال: "حينما بدأت مقاوميتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، ولكن تبينت غلطتي، وعلى أي حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي".

وتكشف بعض المواقف كتدخله أثناء فتنة الشام، أن الرجل كان مطلعا على التيارات الفكرية وروح العصر والأديان السماوية الثلاثة، ونزعات الناس، في الوقت الذي عرف فيه بالتّصلب والتمّسك إلى أقصى حد بالمبادئ الأساسية الإسلامية. وذكر مقولته حول هذه الفتنة: "إنّ الأديان وفي مقدّمتها الدّين الإسلامي أجلّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدّوي بها أفواه الحثالة من القوم... أحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا أو يكون له على نفوسكم سبيلا".

ومما يؤكد هذا التوجه ما كُتِب على النصب التذكاري الذي أقامه الفرنسيون للأمير في " كاشرو" وينسبونه له" لو أصغى إليّ المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا".

2- **المرأة:**

يرى الأمير أنّ حجاب المرأة ليس حاجبا لها، فالابتذال في البيوت والأسواق ومواطن العامل واللعب يصيب المجتمع بفقدان روح المحبة والشوق والرغبة، وهذه في مذهب المعرفة عنده مأساة اجتماعية وعلمية.

وبالنسبة لقضية توريث الرجل مثل حظ الأنثيين: فالرجل يقوم بجلائل الأعمال كالسلطنة ومباشرة القتال، ويدافع عن بلاده وعشيرته، أما المرأة فلا تنفع إلا نفسها في الغالب. وهذا التوريث في الميراث فقط أما دونه فقضية المساواة بينها وبين الرجل واردة. أمّا عن قضية الطلاق: فلا يحل إلا درء للمتاعب وحرصا على القيمة الإنسانية، وقد كانت له مناظرة مع أحد جنرالات فرنسا وهو الجنرال (Emili Daumas) الذي نازله في ميدان المعركة بالجزائر، وكان يتردّد عليه في قصر أمبواز وقد اتخذت عنوان " إظهار الحق" كتبت بالفرنسية ونشرت لأول مرة سنة 1860، وترجمت إلى العربية وطبعت بالقاهرة سنة 1917م وفي هذه المناظرة ناقش رأيه في الحجاب الذي رآه ضرورة عمرانية، ورأيه في الميراث والطلاق وتعدد الزوجات ومعنى المساواة بين المرأة والرجل، وتأكيده على Hمومة المرأة ومعاملتها معاملة حسنة.

3- **الأخلاق:** في اعتنائه بالتقدم الأخلاقي قبل العلمي والصناعي يكون عبد القادر قد سبق عصره إلى منازلة الغربيين حول أهم محور وهو "الأخلاق".

5- **الجوانب الفكرية عند الأمير:**

1- حوار العلماء:

بدأ الأمير في إنشاء شبكة اتصالات مع العلماء الذين لهم نفوذ روحي واسع وهو حديث السن في نحو العشرين من عمره مع والده خلال حجته الأولى (1240هـ / 1826م) التي أتاحت له التعرف على الأوساط العلمية والصوفية في المشرق والأخذ عن علمائه وشيوخه في تونس والحجاز والشام والعراق ومصر، ومن أبرز أولئك الذين صحبهم وتتلمذ عليهم ، وكان لهم صيت ذائع ونفوذ روحي واسع، أولهم محدث الشام الإمام العلامة " وجيه الدين عبد الرحمن الكزبري " الذي أخذ عنه الأمير علم الحديث بدمشق.

والثاني مجدد الطريقة النقشبندية في القرن الثالث عشر المحدث الصوفي الشهير "ضياء خالد الشهرزوري" والذي انتفع به في التصوف والحديث، وكان الشهرزوري من أعلام العلماء في الفقه والحديث وعلوم العربية زيادة على إمامته في التربية الروحية التي سلكها على يد شيخه عبد الله الدهلوي.

وفي بغداد تعرف إلى علمائها وصحب منهم نقيب أشرافها شيخ الطريقة القادرية السيد محمود القادري الذي أخذ عنه الإجازة في الطريقة مع والده وكان لهذا الشيخ أتباع يعدّون بمئات الآلاف في الشرق الأوسط والأقصى. وتوالت اللقاءات والاجتماعات مع هؤلاء العلماء في دار الأمير وكانت بينه وبينهم محاورات.

لقد بثّ الأمير في هؤلاء الوعي بمسؤوليتهم وبثّ فيهم روحا جديدة للقيام بنهضة تعليمية كبرى، و لم يكتف بذلك بل سبقهم بالتعليم وبدأ بإلقاء الدروس في الجمعية وفي مدرسة بقرب الجامع الأموي، وبدأت حلقات الدروس تلقى في المساجد وفي الدور، وأصبح الأمير قِبْلةً للعلماء والفقهاء، من أشهرهم الشيخ أمين

الجندي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وعبد الغني الرافعي ومحمود حمزة فقيه الشام والشيخ عبد المجيد الخاني وغيرهم.

إن اهتمام الأمير بالعلم والعلماء وكذلك بالمخطوطات القديمة، جعله يوقف الشيخ الطيب المبارك، والشيخ حسن البيطار والد عبد الرزاق البيطار "قونية" في تركيا لمقابلة نسخة الفتوحات المكية الأصلية للشيخ محي الدين بن عربي الموجودة هناك مع النسخة التي لديهم، والتي استفاد منها كثيرا علماء دمشق.

I- نظرته إلى التراث:

من يستعرض الجوانب الفكرية عند الأمير يجد أنه قد استوعب التراث الإسلامي العربي كله أو جله استيعاب فهم وشرح ونقد أو تحديد أو تذوق.

وكان الأمير يرى أن مهمته حماية التراث من العدوان أو الخروج عليه، واستبطان ما فيه من جوانب النور واتخاذها نقطة انطلاق لمعاودة التقدم والملاءمة بين التراث الإسلامي ومظاهر الحضارة الأوربية دون انبهار سابق بها وغفلة كاملة عنها.

ومن أجل هذا فإنه كان يحمل على المنشقين على أحكام التراث ومثاليته وأخلاقياته وفي هذا الاتجاه كانت مؤلفاته التي وإن كانت قليلة عددا إلا أنها كثيرة عدة وعتادا.

لقد اتضح للأمير جهادا آخر في ميدان التعلم والتعليم وحماية التراث، وأنه قام لتجلية هذا التراث وتنوّره ما يراه واقيا من الميوعة والضياع ودافعا لمعاودة التقدم والمؤاخاة بينه وبين ما يناسب من مظاهر الحضارة في عصر النهضة الأوروبية دون انبهار ساحق بها، ولا غفلة جاهلة أو كبرياء عنها.

2- **جهاده الأمير الثقافي:** كان متعدّد المجالات والموضوعات والمناسبات، وقد ركز الأمير أثناء جهاده على التعليم واعتبر وظيفة أساسية تنهض بها المجتمعات والأمم. وقد سعى إلى تغيير المناهج حرصا على حصول الفائدة، فطريقة الأمير في التّدريس هي خلافا للمعلمين العاديين الذين لا تمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعليقات على الكتب المقدسة، فإن عبد القادر أثار استغراب طلاّبه باختياره النصوص الفلسفية من أعمال أفلاطون وأرسطو وكان يختار هذه النصوص من الخاصة التي كان بدأ في إعادة جمعها بعناية من خلال إقامته في "بروسة" وهذا ما جعل طلابه يزدادون تعلقا به لأنه "نهج على غير الطريقة المعتاد في التفسير والشرح"

وكما ذكرنا فقد كان يبثّ في هؤلاء المتعلّمين روحا جديدة للقيام بنهضة تعليمية كبرى.

3- **إنسانية الأمير عبد القادر:**

إنّ النظرة الإنسانية العميقة للأمير جعلته يقدّر الفرد ويكرّمه، ويغضب كثيرا كلّما رأى مسًّا بكرامته أو حطًّا من قيمته أو نيلاً من حقوقه.

كان للتّربية الصّوفية التي تلقّاها الأمير من أهّم العوامل التي سمت بنفسه وأغنت رصيد إنسانيته وشفافية روحه وحسّه.

إنّ مفهوم التصوّف عند الأمير يعتبر "جهاد النّفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النّفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام التربوية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله؟

إذن فالتصّوف عند الأمير جهاد النّفس في سبيل الله والعبادة الخالصة له والحضور الدّائم معه.

وقد سعى الأمير إلى التصوّف بمجهوده الخاصّ، واكتسب تربيته الصّوفية عن إرادة ووعي، إذ أنّه اعتنق المذهب الصّوفي بعد أن تحوّل إلى بغداد، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدّل على قوة شخصية الأمير التي ترفض التّقليد والانقياد، ولا تتبنّى أيّ فكر ولا تنخرط في أيّ عمل إلاّ بعد دراسته وهضمه هضما مؤسسًا على اقتناع ذاتي مبني على العقل والبرهان.

إنّ النزعة الإنسانية عند الأمير هي النّسب الإرادي الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا، مسلما أو مسيحيا إذ أنّ "أساس الدّيانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمّد –صلّى الله عليه وسلم– فكلّهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه".

إن المتأمّل في التّسامح الدّيني الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر وخارجها منفيًّا، يدرك أنّ الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني المتفهّم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والعراقيل بين البشر.

وتدليل ذلك تصاريحه –التي سبق ذكرها– في كنيسة "المادلين" بفرنسا، وتدخّله أثناء فتنة الشام سنة 1860.

فقد شهد له التّاريخ بذلك الموقف البطولي الخالد الذي كشف عن رجولته وشهامته وإيمانه وعن طابع الإسلام والعروبة الواضح في شمائله، فقد استطاع أن يحقّق أسلوب الفروسية العربية في النّجدة والبذل وحماية الدّماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التّسامح والأخوّة الإنسانية.

هذان المثلان أصدق تعبير على النزعة الإنسانية لدى الأمير، وله حقّ أن يقول كلمات "لو أصغى إليّ المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا".

إنّ مصادر روح التسامح ولطف المعاملة في شخصية الأمير هو تربيته الدّينية وتشبّعه بقيم الحضارة الإسلامية المتجسّدة في عمل الخير "يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم".

فالحقوق الإنسانية مرتبطة أساسًا بالإيمان بالله وبرسالاته وجوهر هذا الارتباط هو التّكريم "ولقد كرّمنا بني آدم".

إنّ الأمير حريصا بترعته أو بحكم مذهبه الفكري على التّواصل الإسناني العام وتبادل الآراء بسماحة ووعي للوصول إلى الكمال المنشود على وحدة الطّريق.

ولهذا نبذ الأمير التّعصب والجمود والتّقليد، ففي منهجه الصّوفي لا يكفّ عن شنّ حملاته العلمية من أجل تولية الصّدق أمر النّية والعمل والقول حسب اعتقاده واجتهاده وتعبيره، عسى أن ينتقل القوم من الجمود على ترداد ما يقال إلى الممارسة والخبرة سعيا إلى التّمام المنشود في مكارم الأخلاق وصالح الأعمال، واكتساب الوجود قيمته وتحقيق أهدافه.

الخلاصة:

إنّ الحقيقة التي لا ريب فيها ويشهد بها للأمير كلّ من عاصره، وجميع من تناول حياته بالدّرس؛ هي أنّ الرجل قد جمع بين الجهاد والثورة وبين الكفاح والنضال الفكري والثقافي، فهو قد اقتدر وسط سيول الدّماء والحروب أن ينشر صرحا من الثقافة الحيّة الهادفة قبل أن يجد لها مثيلا في عصره الذي ساد فيه التحجّر والانغلاق، الأمر الذي يؤكّد كمال شخصيته وهو بقدر ما كان متصوّفا زاهدًا في الدّنيا بقدر ما اهتم بشؤون الحياة ومشاغل الناس وقضايا البلاد والعباد وبقدر ما كان رجل حرب ومقاومة بقدر ما كان إنسانا اتسم بالرحمة والعدل والتسامح والبذل.

مصادر ومراجع معتمدة

1- الأمير عبد القادر/ مذكرات الأمير عبد القادر – سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849. ط.2، تحقيق محمد الصغير جناني وآخرون- مراجعة وتعليق محمد الهادي الحساني. شركة دار الأمة، الجزائر، 1995م.

2-رسالة المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تقديم وتحقيق الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فرنسا، 1269هـ/1852م.

3-/كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية، 1967م.

4- شارل نفري تشرشل/كتاب حياة الأمير عبد القادر، ط.2، ترجمة أبو القاسم سعد الله، 1982

5- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، تحقيق وتعليق ممدوح حقي، بيروت 1964م.

6- الأميرة بديعة الحسني الجزائري/ فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، ط.1، دمشق،1421هـ / 2000 م.

7- جواد الرابطي، التصوف والأمير عبد القادرالجزائري، دار اليقظة العربية: دمشق، 1966م.

8- مصطفى طلاس/فارس الجزائر الأمير عبد القادر-ط.2، دمشق، دار طلاس، 1984

9- محمد السيد علي الوزير / الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، م.و.ك، الجزائر، 1986

10- فؤاد صانع السيد/الأمير عبد القادرمتصوفا وشاعرا، م.و.ك، الجزائر،1985م.

11- نزار أباظة/الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، ط.1، دار الفكر المعاصر، بيروت.

12 -Mohamed cherif sahli/Abdel kader, le chevalier de la foi .

I- الدوريـــــــات:

1- محمود بوعياد، "عبد القادر الإنسان"، الثقافة عدد خاص(75)، 1983م.

2- فؤاد صالح السيد، "الأمير عبد القادر في دمشق الحياة الدينية والعلمية والفكرية 1883-1856)"، الثقافة عدد خاص(75)، 1983م.

3- عبد الباقي مفتاح"علاقة الأمير عبد القادر بالعلماء والصوفية"، الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم والإنسانية، عدد خاص 2001.

4- عدنان المبارك، "الأمير عبد القادر الجزائري مع العلماء والشخصيات والأعيان والوجهاء في بلاد الشام". الملتقى الدولي حول المير عبد القادر والقيم الإنسانية، عدد خاص، 2001.

5- حسين المزوغي، "الأمير عبد القادر وفعالية التصوف"، الهداية، ع.6.

6- عبد القادر شرشار، "شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر ترجمة كتاب عبد القادر لغوستاف دوق نموذجا". مجلة إنسانيات، عددان 19-20.

7- عميراوي حميدة، "قيم الأمير عبد القادر والتيارات الإنسانية". الملتقى الدولي حول: الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية، عدد خاص، 2001.

8- حمزة بلحاج صالح، "منهج التغير ومنظومية القيم". مسالك، ع.3 (خاص بالحياة الروحية للأمير عبد القادر)، 1998م.

خطاب الإخاء الديني
في فكر الأمير عبد القادر

الأستاذ طارق لعجال

المركز الجامعي–وادي سوف

إن إدراك قيمة الإخاء والتقارب كآلية ضرورية في نظام السمو الإنساني على المستويين الداخلي بين طوائف الديانة الواحدة، والخارجي بين الديانات التي تتقاسم العالم، يزيل العديد من التساؤلات عن جدوى هذه الدعوى التي طرحت في كثير من الساحات الفكرية في زمن كانت فيه ساحات الوغى في سجال دامي، ولعلّه يمكّننا من الإجابة عن تساؤل لطالما طرح نفسه بقوّة يدور حول نوايا الدعوة إلى فكرة الإخاء الديني ومدى صحّة وقيمة الأطر النظرية التي تستمد منها توهّجها. هذه الفكرة التي كثيرا ما صرّح بها عظماء من صنّاع التاريخ والثقافة، ولعل من أبرزهم الأمير عبد القادر الذي أذّن بهذه الدعوة ورافع لصالحها في الفترة نفسها التي شهدت فيها البلاد الإسلامية جحافل المد الاستعماري المسيحي، ولإلقاء الضوء عن بعض ما يزيل اللبس في هذا التوجّه للأمير تندرّج في تحليل هذا الموضوع من خلال القضيتين الآتيتين:

1- تعريف الإخاء الديني.

2- الأصول النظرية للإخاء الديني في فكر الأمير

1- تعريف الإخاء الديني: يطلق مصطلح الإخاء الديني على مجموعة المفاهيم التي تشير إلى جملة المحاولات الفكرية والعملية الساعية لإيجاد وبعث نقاط الالتقاء والتوافق بين أديان العالم.

أي تجلية القيم الإنسانية القادرة على بناء التجانس الفكري والسلوكي في كينونة المتدين، والجماعة التي ينضوي تحتها. والتي –أي المفاهيم- تتحرك حتى غطاء من المصطلحات والتسميات تتقارب في مدلولاتها إلى حد التداخل والالتباس، كوحدة الأديان " وتقارب الأديان" أو "الإبراهيمية"، وبشكل أشمل " العالمية" وقد اكتسحت هذه المفاهيم عالم الفكر منذ بدايات القرن التاسع عشر وفرضت نفسها كمواضيع حساسة على طاولات النقاش. ومخابر البحث كونها بديلا ألحّت الحاجة إليه آنذاك نتيجة تنامي مشاعر العداء والنفور بين أتباع الديانات الكبرى بسبب الحملات التوسعية الأوروبية التي وظّفت الدين كآلية تطويعية اتجاه الشعوب المستعمرة. وهي الحالة نفسها التي عاشتها الجزائر آنذاك وفتحت أبواب البحث على جملة من الاستفهامات والتساؤلات في نوايا تلك الدعوة والخلفيات الفكرية التي انطلقت منها. ولعلّ هذه الاستفهامات تجد مبررات طرحها إذا علمنا أنه في تلك الفترة ألّف شوون schuon كتابا سماه "الوحدة السامية للأديان" بعد أن دخل الزاوية العلوية بمستغانم زمن مؤسسها أحمد بن عليوة هذا الأخير الذي طفح تراثه هو الآخر بهذه الدعوة، وانعقد في سنة وفاته 1934م في لندن مؤتمر الأديان الثلاثة "مؤتمر المؤمنين" تحت رعاية القوى الاستعمارية الإمبريالية.[1] تلى ذلك ظهور جمعية

---

1 – أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999. ج، 6، ص. 433.

الإخاء الديني في باريس سنة 1946م التي كانت امتدادا لمؤتمر الأديان المذكور ثم تلاها ظهور جمعية توحيد الأديان الثلاثة سنة 1959 في بوفاريك بالعاصمة[1] وبعيدا عن تفاصيل هذه القضايا والتساؤلات تجدر بنا الإشارة إلى أن فكرة الإخاء الديني أو وحدة الأديان قد ولدت في التاريخ الإنساني مع ولادة التباين الديني الذي دفع إلى ساحات التناحر والاقتتال من ثمّ ولدت هذه الفكرة وإن كانت مبثوثة. سالفا في تعاليم الأديان في إحدى مستويات تداولها، إحساسا من إنسان ذلك العصر بوجوب الحوار والإخاء وفتح أبواب التثاقف والتقارب بين تلك المعتقدات على بساط من التعايش العقلاني للقيم التي تتشكل منها. من هذا المنطق شقّ هذا الخطاب وهذه الدعوة سبيلها في الفكر الإنساني على العموم متجلية في تمظهرات شتى تختلف باختلاف البيئات والمنطلقات. و لعل تتبع هذه الدعوة في مراحلها المتعددة التي مرّت عليها قبل أن تصل إلى صيغها الحالية بعد جملة من الممهدات الفكرية التي نيطت بها مهمة تسهيل بلورة وصياغة نظرية الإخاء الديني يصل بنا إلى تحديد ثلاث توجّهات كبرى دارت حولها كل محاولات الإخاء والتقارب على المستوى الفكري والعلمي نوجزها فيما يأتي:

- **التوجّه الأول:** ويقوم على تبنّي منهج توفيقي يرى صحة جميع المعتقدات والآراء الدينية لجميع سكان العالم وصحّة الأوجه التعبدية المنضوية تحتها انطلاقا من وحدة المعقول والمنقول وكون الحقيقة الإلهية هي القبلة الأولى والوحيدة للجميع وهي الغاية المقصودة من كل أوجه التعبّد في العالم على اختلاف أشكالها وهياكلها، وهي فكرة يمكن التدليل على إحدى صيغها النموذجية على المستوى الإسلامي في

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **المرجع نفسه**، ج6، ص. 436.

الفلسفة الصوفية العميقة التي رسختّها تعاليم ابن عربي، والجيلي وابن سبعين وغيرهم من المتصوفة الذين أسّسوا آراءهم في هذه المسألة على قاعدة وحدة الوجود التي مثّلت نواة الفكر الصوفي لدى كثير منهم.

وتتجلّى على المستوى المسيحي في دعوة فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية GRIC التي تأسّست في دير سنينكا في فرنسا[1]، وغير بعيد عن ظلال هذا التوجه طرح روجيه غارودي محاولته التوفيقية التي حبّرها في وثيقة إشبيلية الصادرة عن الملتقى الإبراهيمي المنعقد في قرطبة عام 1987 والتي تتخلّص في مركزية الديانة الإبراهيمية بالنسبة للأديان السماوية الثلاث، وكونها –الإبراهيمية– المرجعية العليا التي يمكن أن تجمع أصحاب تلك الديانات حول طاولة واحدة اسم الإنسانية[2].

– التوجّه الثاني ويقوم على تبني منهج إلتقاطي يعمل على محاولة دمج عناصر مختلفة من الأديان الحية دون محاولة إيجاد تنسيق منهجي يصل بالمحاولة التوفيقية إلى بعد استراتيجي ويطلق على هذا الخطاب إسم "الإلتقاطية" أو "الألـتزم" ALCATISM وهويختلف عن الخطاب الأول في المنطلقات والنسق المنهجي وتتجلّى إحدى صور هذا الخطاب في دعوة المليونير الشهير الكوري الأصل "صن مون" الذي دعى في الخمسينات من القرن الماضي إلى ديانته الجديدة "المونية" MOONISM والتي شكّلها أساسا من تعاليم المسيحية ومجموعة تعاليم من اليهودية

---

1 – أحمد بن عبد الرحمن القاض ، **دعوة التقريب بين الأديان** . ط1؛ الرياض: دار ابن الجوزي، 2001، ج2، ص. 341.

2 – ينظر: رجاء غارودي، **نحو حرب دينية جدل العصر**، ترجمة: صياح الجهيم، ط1؛ بيروت: دار عطية، 1996، ص 73.

والإسلام والبوذية، ونظريات العلم الحديث والتي فصّل أسسها وأصولها في القانون الأساسي للحركة المونية المنقّح عام 1974[1].

وفي هذا السياق جاء طرح فرقة البهائية لفكرة وحدة الأديان التي اعتلت قائمة أصولها ومبادئها وتمحورت حول التوفيق بين ديانة المستعمر المسيحية وديانة المستعمر الإسلام بغية إزالة دوافع العداء ومثيرات الشقاق خدمة لأهداف محددة معلومة.

– التوجّه الثالث ويقوم هذا الخطاب على تبني منهج تلفيقي يقوم في مقابلة التوجّه السابق "الألكتزم" ويتميز عنه بوجود تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة، ويهدف من وراء هذه العملية إلى جرّ المنخرطين لخدمة أصل ديني لإحدى تلك العناصر. ويطلق على هذا التوجّه أو هذا المستوى من الخطاب إسم "التلفيقية" أو "السنكرتزم sencritism [2] ويتجسد هذا الاتجاه في دعوة الأب الاسباني" إيليو غالييندو أغيلار" ومجموعته التي تطلق على نفسها اسم كريسلام crislam" والتي تهدف إلى جمع منظومة الأديان والعقائد حول دائرة مركزية تقول بألوهية السيد المسيح [3] وهو التوجّه نفسه الذي صبّت فيه دعوة الحركة الماسونية لوحدة الأديان. والتي كانت دعوة تخفي تحتها أبعادا وأهدافا تعمل على توطيد دعائم الصهيونية والتسلّط على العالم وفق قيم التلمود بعد القضاء على التباين الديني في العالم.

كما يمكن إعتبار جهود عميد الاستشراق الفرنسي "لويس ماسنيون" في التقريب بين الأديان إحدى تجلّيات هذا الاتجاه حيث حاول دخول بوّابة التقريب مع الآخر

---

1 – أحمد بن عبد الرحمن القاضي، **دعوة التقريب بين الأديان** (مرجع سابق) ج1، ص. 344.

2 – أحمد القاضي، **المرجع نفسه**، ج1. ص. 345.

3 – أحمد القاضي، **المرجع نفسه**، ج1. ص. 345.

الذي هو الإسلام عن طريق "الحلّاج" محاولا من خلال المأساة التي عاشتها هذه الشخصية إستنزال عقيدة الحلول والصلب إلى الساحة الإسلامية متجسّدة في صلب الحلاج بعد إدعائه الحلول. والسعي إلى تأنيس هذه الفكرة وأسلمتها عبر التدليل عليها من داخل النسق الإسلامي. وقد صبّت جلّ جهوده الاستشراقية حول هذا الاتجاه وجسّد هذه الانشغالات والجهود في جمعية الإخاء الديني التي أسّسها في القاهرة عام 1941 رفقة الأب "جورج قنواتي"[1]. وعمل على توريث هذا الانشغال إلى تلاميذه ومريديه الذين كان من بينهم "دير منغام" الذي كانت له إسهامات معتبرة في هذا الإتجاه [2].

ثانيا- الأصول النظرية للإخاء الديني في فكر الأمير:

الملاحظ والمتتبّع لخطاب الإخاء الديني في تراث الأمير يقف على حقيقة مهمّة مفادها أن هذا الخطاب لم يوضع في قالب واحد وفي نسق معرفي واحد لا يحيد عنه بل يلمس تعددا وتباينا بين جملة من مستويات هذا الخطاب. ولعل هذا التعدد والتباين يعود إلى التمايز والتباين الذي يطبع المخاطبين بهذا الكلام ؛ فعالمية الأمير ألغت عامل المحلّية والذاتيّة من فكره الذي استمع له العالم آنذاك على اختلاف أديانه ومعتقداته. ويعود في الوقت نفسه إلى تلك المراحل الفكرية التي مرّ بها الأمير الذي افتتح صفحات حياته الأولى على حلقات العلم والطلب، ولم يستوي عوده فيها حتى جاءت الأيام بما لم يضعه في الحسبان حين بويع للجهاد ضد جيوش الاحتلال التي وطأت أرض الجزائر في بدايات سنيّ شبابه.

---

1 – ينظر: أليكسي جورا فسكي، **الإسلام والمسيحية** ، ترجمة: خلف محمد الجراد، ط1؛ الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1996، ص. 120

2 – أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي** (مرجع سابق) ج6، ص. 434.

فاستعاض عن حلق العلم والدرس بساحات الوغي وميادين الجهاد، وختم حياته خادما للإنسانية ومتصوفا من الطراز الأول غائصا في بحر التصوّف والتجرّد والصفاء الروحي غير مكتف به. -كما يقول شكيب أرسلان- "نظرا حتى يمارسه عملا، ولا يحن إليه شوقا حتى يعرفه ذوقا"[1].

فمن مرحلة إلى مرحلة ومن مخاطب إلى مخاطب يتباين طرح الأمير عبد القادر وخطابه في الإخاء الديني بشكل يثري هذا الجانب في فكره ويكشف عن تجذر الفكرة والعمق الذي تنطلق منه بشكل يزيح النقاب عن خلفيات الأعمال الجليلة التي تكلّلت بها مسيرة الأمير وحياته. ويمكن من خلال المتابعة والتمحيص التفريق بين ثلاث مستويات أو ألسن- على حد تعبير الأمير-[2] يتقولب فيها خطاب الأمير الإخائي هي:

2-1- القالب الفقهي الكلامي: ويتجلى هذا المستوى من الخطاب في فكر الأمير في بدايات تفرغه للعلم بعد فكاكه من الأسر سنة 1853 وتحديدا في رسالته "ذكرى العقل وتنبيه الغافل" التي تقدّم بها للأكاديمية الفرنسية للعلوم. والتي يجنح فيها الأمير إلى لغة وأسلوب -لسان- الفلاسفة والمتكلمين وعلماء الظاهر.أي قبل مرحلة تصوّفه التي ختم بها حياته وإنتاجه الفكري، ويبدو ذلك جليّا حين تطرقه لمسائل أصول الديانة والنسخ وقوانين العقاب والعفو بين الأديان فهو يشير في الأول إلى مركزية الله في جميع المعتقدات وكونه تعالى القوة الوحيدة، للجذب المطلق في

---

1 - شكيب أرسلان ، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة: عجاج نويهض، دط، بيروت: دار الفكر، دت، ج2، ص. 132.

2 - الأمير عبد القادر: **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**: تحقيق: ممدوح حقي، د ط؛ مصر: مكتبة الخانجي، د ت، ص. 103.

الوجود وأن تعظيمه تعالى وتوحيده هو القاسم الأساس الذي يجمع بين دعوات الرسل والأنبياء على إمتداد التاريخ الإنساني وما جزئيات الدين وكليات الشرائع إلا روافد لهذا التوافق. يقول "وأساس الديانة. وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمد، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الله وتعظيمه وإعتقاد أنه علّة كل شيء. ولا علّة لوجوده هو –سبحانه وتعالى– وإلى حفظ النفس والعقل والنسل والمال. فهذه الكليات الخمس لا خلاف فيها بين الأنبياء. وجميع الشرائع متّفقة عليها وحاصلها إلى تعظيم الله، والشفقة على مخلوقاته"[1] ويزيد هذه المسألة توضيحا في موضع آخر بقوله: " فالدين واحد باتفاق الأنبياء، وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية. فهم كرجال أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة فتكذيب جميعهم، أو تكذيب البعض وتصديق البعض قصور"[2]

ويشير بلسان أصحاب التفسير في حديثه عن النسخ الذي لطالما أسال حبر أتباع الديانات في دفعه أو دفع الآخر به إلى حقيقة مفادها أن النسخ ليس عملية إلغائية تمارسها الديانة الجديدة على ديانة أخرى كانت سابقة لها. –كما يعتقد الكثيرون– بل هو عملية بنائية تكميلية تقتضيها وحدة المصدر ووحدة الغاية والوجهة يقول: " والنسخ في الحقيقة– ليس هو إبطالا، وإنما هو تكميل ففي التوراة أحكام عامة، وأحكام مخصوصة، إمّا بأشخاص وإما بأزمان. وإذا انتهى ذلك الزمن لم يبق ذلك الحكم لا محالة، ولا يقال إنه إبطال".[3]

1– الأمير عبد القادر، **المرجع نفسه**، ص. 97.

2 – الأمير عبد القادر، **ذكرى العاقل**(مرجع سابق)، ص. 97.

3 – الأمير عبد القادر ، **المرجع السابق** ، ص. 101.

فالأمير يرى أن جريان النسخ بين الأديان هو ضرورة تقتضيها الحاجة الإنسانية التي تستمدّ ترشيدها وتوجيهها من السماء وهو لا يتعدّى الشرائع كونها تخضع لسنّة التغيير الكونية والاختلاف الزماني يشير إلى هذا المعنى بقوله: " وإنما النسخ يكمن في الشرائع الوضعية، وهي الأشياء التي يجوز ويصحّ أن لا تكون مشروعة. دون الأحكام العقلية. كتوحيد الإله.. فإن العقول والشرائع متوافقة على لزوم حفظها والخلاف بين الأنبياء في كيفية حفظها ووضع القوانين لدوام بقائها محفوظة"[1] ويضرب الأمير مثالا على الصبغة التكاملية التي تطبع علاقة الأديان ببعضها البعض من خلال قانون العقوبة والعفو بين الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام. يقول الأمير شارحا لهذا المثال في أسلوب حواري: " قال المسيح: ما جئت لإبطال التوراة بل جئت لأكملها. قال صاحب التوراة: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والجروح قصاص. وأنا أقول، إذا لطمك أحوك على خدّك الأيمن، فضع له خدّك الأيسر. وجواب النصارى لليهود؛ هو جواب المسلمين للنصارى والذي قاله المسيح قاله محمد فإنّه قال: ما جئت لأبطل الإنجيل والتوراة؛ وإنما جئت بالسياستين جميعا. جئت بالقصاص" ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب"[2] وهي إشارة إلى السياسة الظاهرة العامة وجئت بالعفو " وأن تعفو أقرب للتقوى"[3] ، وهي إشارة إلى السياسة الباطنة الخاصة"[4].

---

1 – الأمير عبد القادر ، المرجع نفسه ، ص. 98.

2 – البقرة، الآية: 179.

3 – البقرة، الآية: 237.

4 – الأمير عبد القادر ، المرجع السابق، ص. 102

2-2- القالب الصوفي الوجداني: ويظهر هذا المستوى من الخطاب في فكر الأمير عبد القادر في الفترة الأخيرة من حياته أي العشرين سنة التي قضاها في التعبّد والقرب الروحي، والتي ترجم مواجيده وكشوفاته فيها في مواقفه الشهيرة التي مثّلت زبدة ما ارتقى إليه الأمير من القرب والأنس بالله.

لقد امتاز هذا المستوى من الخطاب بدرجة من العمق والدقّة والتسلسل، والتفصيل شأن مستويات الخطاب السابقة في التراث الصوفي الإسلامي التي تبنّت فكرة وحدة الأديان — وإن كانت نظرية غير ضافية على ساحة الفكر الإسلامي هذا إذا ما قورنت مع أفكار أخرى كانت نقاط أساسية في تشكيل البنية العامة للفكر الصوفي . والسر يرجع في ما يبدو إلى كونها تنشأ في الفكر نتيجة تشرّبه جملة من الأفكار السابقة والممهّدة لها، ولعلّ على رأس تلك الأفكار " الحب الإلهي " " نفي الكثرة" "وحدة الوجود" هذه الأخيرة التي تعدّ البوتقة الوحيدة التي تطلّ منها نظرية وحدة الأديان، داخل السياق الإسلامي، إذ لا يمكن تلمّس آثار هذه النظرية في تراثنا الصوفي العريق الممتدّ على صفحات القرون السالفة إلا تحت هدي الإيمان بوحدة الوجود. لكون المتصوّفة لم يضعوا أنفسهم أمام إشكالية العقل النظري المتعلّقة بماهيات الأشياء وبالتالي ماهيات الأديان وطبيعة الخلاف بينها وما يترتب عليها من تباين أو تقارب.

وغير خاف على أحد ما مثله أستاذ التصوف الأول ورائد الدعوة إلى وحدة الوجود ووحدة الأديان في الفكر الإسلامي الإمام الأكبر ابن عربي في فكر الأمير الذي ظلّ إلى آخر حياته يدين له بكل حقيقة انسكبت في قلبه وأنارت مجاهيل الكون لديه، لذلك تسلسل الأمير في تنظيره لوحدة الأديان على نفس التسلسل الذي صار عليه ابن عربي فيها، واستعمل في كثير من المواضع منهج شيخه في إبعاد

تبعات سوء الفهم الذي يستحكم بعقول الكثيرين عند سماعهم لمثل هذه المسائل الدقيقة يقول الأمير: " ولا يفهم عنّا إلا أهل طريقتنا إذ لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك" ويقول في الموقف الرابع والستين: " واحذر أيها الواقف على هذا أن ترمينا بحلول أو اتحاد، أو زندقة أو إلحاد فنحن بريئون من فهمك الأعوج وعقلك الأهوج"[1]

لقد كان الحب هو الشرارة الأولى التي انطلق منها الأمير ومن قبله ابن عربي وكبار المتصوفة الآخرون في تسلسلهم الفكري، لا لشيء إلا لكونه سر الوجود الذي يعطي لكل شيء معنى بوصفه نسبة في النظام المطلق، ولكونه متولّد من شدّة تحققهم وتلبسهم بمنازل السير الصوفي، والعروج الروحي. والذي قادهم إلى حالة من التماهي اللامحدود في الله ومن ثم غلبة فكرة نفي الكثرة من الوجود وتبني وحدة الوجود كتعبير عن درجة الإيمان والحب والصفا التي بلغها أصحاب هذه المقامات . وقد برزت هذه الفكرة بقوة بعد ابن عربي وملخصها أن الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها متكثّرة في صفاتها وأسمائها لا تعدّد فيها إلا بالاعتبارات والإضافات، وهي واحدة لا تتعدد، وإنما المتعدّد هو الصور الوجودية أو الصور التي تتجلّى فيها هذه الحقيقة، لذلك كانت الذات الإلهية الواحدة جامعة لكل التناقضات فهو تعالى الأوّل و الآخر، والظاهر، والباطن والمعطي والقابض، ويفصح الأمير عبد القادر عن هذا الإيمان بوضوح في جملة هائلة من مواقفه التي قلّ أن تخلو أحدها من إشارة إلى هذه المسألة، يقول: " المظاهر أعدام عند التحقق.والحقيقة هي الذات، وذلك لأن

---

1 – الأمير عبد القادر ، **المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد**، تحقيق: عبد الباقي مفتاح، ط1، عين مليلة: دار الهدى. 2005، ج1. ص. 197

الحقيقة المسماة بالله واحدة من كل وجه خاص بتلك الصور فهي واحدة كثيرة، واحدة بحقيقتها كثيرة بتعيناتها ومظاهرها، وحقيقة الله وإن ظهرت بكاملها من مظاهرها التي لا تتناهى فهي لا تتحزأ ولا تتبعّض ولها في كل مظهر وجه خاص أي ذات ولا يستحق العبادة وجه من تلك الوجوه الظاهرة بالمظاهر إلا الذات المسمّى بالله، لأن غيرها وإن كان هو هو، فإنه لا يسمى الله"[1] ويصوغ الأمير هذه العقيدة شعرا في قوله:

أردد طرفي في الرسوم فلا أرى **سوى من به كانت رسوما وآثارا
عرفته منكم ثم زاد في عرفا ** ننا بأننـــي إيـــاه ولكن منكر[2]

ومن إحدى دعائم هذه النظرية يلوح المتصوفة بمقتضى تقتضيه المحبة ووحدة الوجود في صورها الأولى. وهو نفي الكثرة والتعدّد في كل شيء ليصل بهم هذا المقتضى إلى نفي تعدد الأوجه العبادية والشرائع التي يتعبّد بها المتنسّكون على اختلاف مللهم ونحلهم، وجمعها في بوتقة واحدة وهي الذات الإلهية كونها المقصودة الأولى والوحيدة بها، وما تاريخ الشرائع سوى تاريخ التمثّل المستمر للحق. وبناءا عليه فإن شرائع ماقبل الإسلام والشريعة الإسلامية هي تاريخ واحد في الجوهر متنوع في الصور. يقول الأمير نافيا الكثرة في الوجود: "وجود الحق تعالى من حيث هو غني عن العالمين فهو ظاهر بذاته الأحديّة لذاته، ووحدته تطلب عدم الكثرة لأن مقتضى الأحديّة عدم الكثرة"[3]، وانطلاقا من هذا المبدأ بنى الأمير فلسفته في الإخاء

---

1 - الأمير عبد القادر: **المرجع نفسه**، ج 1 ، ص. 142 .

2 - الأمير عبد القادر، **ديوان الأمير**: جمع وتحقيق: ممدوح حقي، دط ؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981 ، ص. 226

3 - الأمير عبد القادر ، **المواقف** : ج1، ص. 191.

الديني، التي يرى فيها أنّه لمّا تعدّدت ظهورات وتجليات المقصود بالعبادة تعدّدت الملل والنحل لأن المقصود بالعبادة التعظيم والذلّة والخضوع من كل عابد نحو من يملك الضرّ والنفع والعطاء، والرزق والخفض والرفع، وهذه الصفات في نفس الأمر ليست إلا لفرد واحد وهو الحق تعالى وهو غيب مطلق، فكل عابد صورة من شمس وكوكب، ونار ونور وظلمة وطبيعة وصنم وصورة خيالية، وجنّ وغير ذلك يقول في الصورة التي عبدها أنها صورة المقصود بالعبادة ويصفها بصفات الإله، من الضرّ والنفع، ونحو ذلك، وهو محقّ من وجه لولا أنه قصره وقيّده، فما قصد عابد بعبادته للصورة التي عبدها إلا الحقيقة المستحقة للعبادة وهو الله تعالى.

وعلى غرار من سبقه من المتصوفة يحشد الأمير جملة من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة للتدليل على صحة معتقده، وما ذهب إليه، ومن جملة ما إستند إليه في تقرير هذه الآراء قوله تعالى: " وقضى ربّك ألا تعبدوا إلا إيّاه..."[1] وقوله: " وإن من شيء إلا يسبّح بحمده..."[2] وقوله أيضا: " وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو..."[3] وقوله: " وما من إله إلا الله..."[4] وقوله في سورة العنكبوت: " وقالوا أمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد..."[5]

يتعرض الأمير في شرح هذه الآية الأخيرة إلى تفصيل تصوّره للإخاء الديني من الوجهة نفسها ليقرّر أن إلهنا وإله كل طائفة من الطوائف المخالفة لنا واحد وحدة

---

1 - الإسراء، الآية: 44.

2 - الإسراء ، الآية: 23.

3 - البقرة، الآية: 162.

4 - ص، الآية: 64 .

5 -العنكبوت ، الآية: 46.

حقيقية. وإن تباينت تجلياته ما بين إطلاق وتقييد وتنزيه وتشبيه وتنوّع تمظهره، فقد ظهر لنا نحن المحمديين مطلقا من كل صورة في حال ظهوره من غير حلول ولا إتحاد ولا إمتزاج. وظهر للنصارى مقيّدا بالمسيح والرهبان ولليهود في العزير والأحبار، وللمجوس في النار، وللتنويه في النور والظلمة، وظهر لكل عابد شيء في ذلك الشيء من حجر وشجر وحيوان ونحو ذلك. فما عبد العابدون الصور المقيّدة لذاتها ،ولكن عبدوا ما تجلّى لهم في تلك الصورة من صفات الإله الحقّ تعالى وهو الوجه الذي لكل صورة من الحق تعالى فالمتوجّه إليه بالأعمال العبادية والقربات واحد من جميع المتوجّهين، ولكن الخطأ الذي فرّق بينهم هو في التعيين. فإلهنا وإله اليهود والنصارى الصابئة وجميع الفرق الضالة واحد. كما أخبر الله تعالى في العديد من آي الذكر الحكيم إلا أن تجلّيه لنا نحن المسلمين غير تجلّيه في نزوله إلى النصارى ،وغير تجلّيه في نزوله لليهود ،بل ويتباين تجلّيه وتنزّله في الديانة الواحدة ولذلك تتعدّد الفرق والمذاهب في البناء الديني الواحد، وهو ما يلمس في تفرّق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وكذا النصارى والمسلمين.[1] ويعبر الأمير بلسان الشاعر عن ما سبق ذكره في جملة من أشعاره منها:

فطورا تراني مسلما أيّ مسلم** زهودًا نسوكا خاضعا طالبا مدا
وطورا تراني للكنائس مسرعا** وفي وسطي الزنار أحكمته شدّا
وطورا بمدارس اليهود مدرّسا ** أقرّر توراة وأبدي لهم رشدا[2]

---

1 – الأمير عبد القادر، **المواقف** ، (مرجع سابق) ج1، ص. 567.

6 . الأمير عبد القادر، **المرجع نفسه**، ج1، ص. 128.

7– الأمير عبد القادر، **المرجع نفسه**، ج1. ص. 567.

إن هذا التماهي الأديان اللامحدود الذي ينضح به خطاب الأمير لا يمكن فهمه إلا في إطاره العام الذي جاء فيه. فالأمير اعتلى عرش التصوف في عصره وبلغ درجة التربية والإرشاد. ومن المعلوم أن الواصل يمرّ بحالات من الوجد والكشف والرقي الروحي ترفعه عن عالم الأشياء والحدود فيصدر منه ما يفهم خطأ أنه انحراف أو زندقة مما تكلّ عقول الكثيرين عن فهمه وإدراك حقيقته لذلك يسرع أعلام التصوف إلى التنبيه والإشارة إلى وجوب كتم هذه الحقائق عن العوام لكي لا يفتتنوا أو يتهموا من طرفهم بالزندقة والضلال يقول الأمير معقّبا على جملة من آرائه في وحدة الأديان: " فمن لم يعرف الحق تعالى المعبود هذه المعرفة عبد ربّا مقيّدا في إعتقاده محجّرا عليه أن يتجلّى لأحد بغير صورة إعتقاد هذا المعتقد. وكان المعبود الحق تعالى بمعزل عن جميع الأرباب. وهذا من جملة الأسباب التي يجب كتمها عن غير أهل طريقتنا. ويكون مُظهره من الفتّانين لعباد الله تعالى فالحذر الحذر..."[1].

2-3-القالب الإنساني: لعل هذا القالب والمستوى لخطاب الأمير ترجمه سيرة حياته أكثر مما ترجمه أفكاره وكتاباته. هذه الحياة التي عجّت بالأعمال الإنسانية الجليلة التي سجّلها التاريخ بماء الذهب وحفظتها ذاكرة الشعوب وتوارثتها الأجيال. وإن كانت هذه الأعمال أو الجوانب العملية في إنسانية الأمير لا يمكن فصلها عن أصولها القيمية التي تحرّكها. إذ لا يعقل صدورها عنه دون منظومة من الأفكار تحرّكها وتعمل على تفاعلها مع المدركات العقلية التي ترجمها الحركة إلى إنجازات وأعمال. ولا شكّ أن تديّن الأمير وشدّة تمسّكه بدينه عملت على تقوية دعائم هذا المترع الذي يشكّل التدين إحدى مظاهره ودعائمه، فالدين هو اللحن

الوحيد الذي يحسن الاستماع والإصغاء إليه بل والخضوع له كل أطياف البشرية على اختلاف أديانهم. وهو ما ترجمه الأمير إلى سلوكات وأعمال تزيّنت بها مسيرة حياته ولعلّه كان أولها تفريطه في حقوقه الزوجية في أولى سنيّ شبابه خدمة لقضايا الجماعة والدولة إذ يذكر المؤرخون أنه عندما بويع بالإمارة كان أول عمل قام به هو دخوله على زوجه قائلا: " إن أردت أن تبقي معي من غير إلتفات إلى طلب حق فلكي ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقّك فأمرك بيدك لأني قد تحمّلت ما يشغلني عنك"[1]. إضافة إلى ما دوّنته كتب التاريخ عن أدب الأمير مع أسرى الجيوش الفرنسية التي دخل معها في سجال حربي زاد على الخمسة عشر سنة. ولم يعامل جنودها الأسرى إلا بما تقتضيه إنسانيته ويفرضه عليه دينه من لطف ومودة وإنسانية راقية تسابقت الكتابات الغربية قبل العربية إلى تدوينها وتخليدها[2] ولعلّ المحطّة الكبرى التي تجلّت فيها هذه الإنسانية العالية ما قام به الأمير في فتنة دمشق، حين وقف مدافعا على المسحيين المستضعفين.

ولئن شكلت حياة الأمير ساحة ثريّة لتمظهر هذا المترع لدى الأمير فإن فكره لم يكن ببعيد عن ما عجت به حياته منه. فشكواه الشهيرة "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا، ظاهرا وباطنا ولكن لا يصغون

1- يحي بوعزيز، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري**. د. ط؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1983. ص. 81.

2- ينظر على سبيل المثال: **مذكرات الكولونيل اسكوت**: تر: إسماعيل العربي، ط؛ الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981 ص. 114. 93. 68. 67.

إلي"[1] كشفت من منظومة القيم والمشاعر العالية التي تحرّك تلك الأعمال وتؤسّس لها.

وقد تجلّت هذه النزعة في الخطاب بوضوح في جملة من رسائله الكثيرة التي كان يراسل بها الملوك والعلماء منها رسالته التي بعث بها إلى نابليون الثالث شاكرا له على منحه وسام الشرف الفرنسي الأول بعد موقفه الجليل في فتنة دمشق، والتي جاء فيها: " وهذا الداعي –يقصد نفسه– ما فعل إلا ما هو واجب بالشريعة المحمديّة عليه ومتأكّد بالطبيعة الإنسانية لديه، ومن فعل هذا الفعل ليس له من الإسلام إلا الاسم ولا يعرف الثواب من الإثم."[2].

لقد كانت الأخوّة الإنسانية تبصم على فكر الأمير وتوجّه مواقفه مع أصحاب الأديان الأخرى، فكان يتحرك على بحر من المعاني المتسامية التي تنظر للإخاء كقيمة حضارية عالمية تتجاوز كل الأعراف والعصبيات والحزازات الدينية الضيقة، وهي المعاني التي عبّر عنها في رسائله التي كان يبعث بها إلى أعضاء الجمعية الماسونية والتي جاء في أحدها قوله: " ليس بشهادة أعدل من ميلكم نحوي، عندما سمعتم اكتراثي بإخواني في البشرية "[3] وزاد فيها بأن نفى فيها كمال الدين من قلب خال من الحب للآخر يقول: " وأي شرف يفوق محبة الإنسان للإنسانية وهل إذا لم توجد المحبة فينا نكون ذوو دين قويم حاشا إن المحبة هي الأساس الوحيد، والله إله الكل فيجب

---

1 – الأمير عبد القادر. **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**(مرجع سابق) ص. 103.

2 – عبد الجليل التميمي، **الأمير عبد القادر في دمشق 1855–1960**. المجلة التاريخية المغربية: تونس، العدد 15–16، جويلية، 1979ص: 21.

3 – التميمي، **المرجع نفسه**، ص. 24.

أن نحبّ الكل"[1]. ولعل الباحثين في تاريخ الأمير يكادون يجمعون على أن انتماء الأمير إلى هذه الجمعية لم يكن إلا لكونها كانت تدعوا في ظاهرها إلى المساواة والإخاء بين البشر وإلى المبادئ الإنسانية الراقية.

وهو ما عبّر عنه الأمير في إحدى رسائله حين أشار إلى أن انتمائه إلى الجمعية الماسونية لم يكن إلا لكون إحدى أهم مبادئها هو: "جلب النفع لعباد الله تعالى ودفع الضر عنهم والسلوك على مقتضى الإنسانية والأخوّة البشرية"[2].

ربما يتّضح من خلال ما عرضناه من مستويات خطاب الإخاء الديني عند الأمير تلك الأبعاد التي كانت تعمل على توجيهه وتأطيره، فالأمير لم يخرج بخطابه عن النسق الإسلامي الأصيل الذي انصهرت كل تجارب التأصيل في هذا الموضوع- الإخاء- في بوتقته، والتي مثّلها في إحدى مستويات تداولها الأنموذج الأول- والذي ينطلق في الأساس من روح الإسلام الأصيلة بمعزل عن موازين السياسة المتقلّبة التي قد تنعكس المبادئ المآزرة لها رأسا على عقب بمجرد تغير تلك الموازين.

إن دفء المبادئ الإسلامية التي تضمّ بين جوانحها مبادئ التنوّع والتعدد والاعتراف بالمخالف وحفظ "الآخر" بل والدفاع عنه ومناصرته أمام "الأنا" الضائل هي التي رسمت ملامح هذا الخطاب في الفكر الإسلامي على امتداد التاريخ. وعلى اختلاف مستوياته الكلامية والفلسفية والصوفية والتي غطّى خطاب الأمير الإخائي شتّى تمظهراتها. وهي مستويات نموذجية قد تكون الأرقى تاريخيا وعالميا إذا ما قورنت مع مستويات هذا الخطاب عند "الآخر" والتي اندرج بجملها تحت النسقين

---

1 - التميمي، **المرجع نفسه**، ص. 24

2 - التميمي، **المرجع السابق**، ص. 26

الثاني والثالث الذي عرضناهما في المقدمة. واللذان لم تراعى فيها –كما يبدو– ذاتية وخصوصية كل دين.

ولعله من الطبيعي في شخصية كشخصية الأمير عبد القادر أن يتباين ويتنوّع خطابها إزاء قضية من القضايا بهذا الحجم فالمكانة العلمية التي اعتلاها والشأن السياسي الذي حازه والشهرة العالمية التي حفّ بها إضافة إلى مراحل حياته المتنوّعة. لم تكن لتدع خطاب الإخاء الديني في تراث يصاغ في نسق منهجي ومعرفي واحد وفق رؤية واحدة، بل عملت على تنوّعه هذا التنوّع الذي هو الكافل الوحيد للوصول إلى جميع الأطياف البشرية المخاطبة، وبالتالي ضمان أكبر مستوى من القابلية والانتشار، وبالتالي تحقيق أكثر قدر من الأهداف التي تتمحور حول بث قيم التسامح والإخاء للخروج من عقدة "الأنا"، و"الآخر" والتعارض بينهما، ووضع الإخاء كمعيار فعلي للحق والحقيقة بالشكل الذي يحفظ الإنسان ويحفظ ذاتيّة كل معتقد وماهيته.

وقبل أن نختم هذا العمل وددنا الإشارة إلى أننا لمسنا مستوى آخر لخطاب الإخاء الديني في فكر الأمير لكن قلّة النصوص فيه وعدم توضّحه جعلانا نعدل عن عدّه مستوى رابعا لخطاب الإخاء عند الأمير، ويستند هذا المستوى إلى جانب من جوانب شخصية الأمير الأساسية، وهي كونه كان رجل سياسة من الطراز الأول، يستشرف جيدا الأوضاع الدولية ويفهم ويعي سياسات الدول، وحريص في الوقت نفسه على أمن أمته وصالحها وقيمها، ويدرك جيدا عواقب الخطوات غير المحسوبة على مستقبل الإسلام والبلاد الإسلامية، ويتجلى هذا المستوى من الخطاب في كلمته التي وجهها للمسلمين أثناء فتنة دمشق، والتي قال فيها: " لا تغتروا فإن أوروبا لا يمكن لها، أن تكون عديمة الإحساس للمآسي التي تلحقونها بالمسيحيين.

اعملوا رأيكم. وفكّروا، ولا تقدموا بحركة من شأنها إقامة أسقف مستقبلا في جامعكم الكبير، الجامع الأموي، والذي كان سابقا كنيسة مسيحية"[1].

1 - التميمي ، **المرجع نفسه** ، ص. 13.

من نفوذ اليهود بعد 1830
وعلاقة الأمير عبد القادر بهم

الأستاذة وداد بيلامي

ماجستير، تاريخ حديث

تمتع اليهود خلال العهد العثماني بمكانة مرموقة وقد ساهمت مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء ومعاملة الحكام لهم كأهل ذمة في استقرارهم وتطوير نشاطهم التجاري. ومكنتهم هذه المكانة من القيام بدور الوسطاء السياسيين، هذا الدور الذي أتقنوا أداءه مقابل ريوع اقتصادية وسياسية كبيرة.

ورغم الهزة التي تعرضوا لها خلال ثورة الانكشارية سنة 1805، والتي انجر عنها نفي أكثر من مائتي عائلة يهودية إلا أنهم عادوا وبحذر إلى ممارسة نشاطهم في قصور الدايات، والبايات انطلاقا من كونهم مستشارين لهم، أو وكلاء — ووسطاء بينهم وبين الدول الأجنبية- وبنكيين من الطراز الأول واستمر هذا النشاط إلى بعد سقوط مدينة الجزائر سنة 1830 من خلال تعاملهم مع السلطات الفرنسية وحتى مع بعض زعماء المقاومة ولعل أبرز مثال على ذلك وساطتهم بين الفرنسيين والأمير عبد القادر. ولكن هل استمر نشاطهم بنفس الوتيرة وهل كانت وساطتهم بين الاحتلال وزعماء المقاومة مقابل ريوع اقتصادية وسياسية؟ ولماذا استمر الجزائريون وخصوصا زعماء المقاومة في التعامل معهم رغم موقفهم المؤيد للاحتلال؟

1- البنية العرقية لليهود خلال العهد العثماني:

تتكون الجالية اليهودية التي عاشت في الإيالة خلال العهد العثماني من ثلاث فئات رئيسة هي:

الفئة الأولى وتعرف بـــ"توشابيم" "Tochabim" بالعبرية و(LesTochabes) أو (Les Juifs indigènes)[1] بالفرنسية واليهود الأهالي (Arabized Jews) بالعربية[2] وتتكون هذه الفئة من الموجات البشرية اليهودية التي استقرت بالجزائر منذ ما قبل الميلاد، كما تشتمل على يهود شبه الجزيرة العربية[3] ويشكل اليهود الأهالي النسبة الأكبر من اليهود الذين سكنوا الإيالة حيث احتفظوا بعقيدتهم وشكلوا خلايا اجتماعية، دينية متماسكة وقاوموا المسيحية والإسلام وحافظوا على موروثهم الديني: ومع ذلك يعتبرون أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع آنذاك لدرجة يصعب تميزهم عن غيرهم من الجزائريين المسلمين لولا اختلاف الانتماء الديني والطقوس الروحية والطبائع النفسية من التلمود ومن قرون التشرد.

والفئة الثانية هي فئة اليهود الذين لجأوا إلى المغرب الأوسط عندما بدأت الدويلات والإمارات الأندلسية تتساقط وتنهار الواحدة تلو الأخرى، لكن أكبر هجرات اليهود إلى منطقة المغرب الأوسط كانت بسقوط غرناطة سنة 1492، حيث صدر آخر مرسوم ملكي يقضي بطردهم وكنتيجة لقرار الطرد القسري هذا غادر ثماني ألف يهودي[4] إسبانيا وعدد كبير منهم اتجهوا إلى ما

---

1 –Joseph Tolédamo : **Les juifs maghrébins.** Paris, 1983, p304.

2– عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة اليهودية**، المجلد الثاني، ج2، شركة صخر لبرامج الحاسب، 1995، ص 535.

3 - Benavhenhou, **connaissance du Maghreb**, la presse des éditions populaire, 1971, p297.

4 - Claude Martin, **Les Israélites Algériens de** 1830-1902, Héraklés, Paris, 1936, p16.

عرف فيما بعد بإيالة الجزائر ويأخذون مكانهم ضمن من سبقهم من بني جنسهم.

وهذه الفئة عرفت باسم: اليهود الأسبان أو يهود الأندلس، أما في الأوساط العبرية فعرفوا بالميغورشيم (Megorachim)[1] وأيضا بالكبوسيين نسبة للكبوسة التي كانوا يرتدونها وباسم (Los Marrances)[2]. واستقبل اليهود الأسبان بكرم وتركت لهم حرية ممارسة ديانتهم، وممارسة التجارة[3].

أما الفئة الثالثة من اليهود الذين سكنوا الإيالة فهم يهود ليفورن الذين قدموا من مدينة "ليفورن الإيطالية في نهاية القرن السابع عشر وكانوا يلقبون بـ "اليهود الإفرنج" (Les juifs francs) واليهود المسيحيين[4] كما عرفوا باسم "Grana" ومعناها الليفورنيين وهي من الاسم العربي لليفورن[5].

هذه العائلات الليفورنية أحدثت بقدومها إلى الإيالة واستقرارها بها انقلابا ثقافيا في موازين القوى داخل الطائفة اليهودية، فبحلول القرن الثامن عشر شكلت الطبقة الليفورنية أرستقراطية مالية استولت على مقاليد زعامة الطائفة اليهودية وأطاحت بالأرستقراطية الدينية والتجارية الأسبانية. كما تحول هؤلاء الليفورنيون وعلى رأسهم عائلات معروفة وفي ظرف قياسي على عنصر

1 - Benachnhou, op.cit, p298.
2 - Rozet, **Voyage dans la régence d'Alger**, Tome2, Bertrand Libraire, Paris, 1835, p211.
3 - Claude Martin, op.cit, p15.
4 - Haëdo (Fray diego de Haëdo) **Topographie et histoire générale d'Alger**, traduit de l'espagnol par, Beruggers et monreau, in R.A N°15, O.P.U, Alger, p. 98
5 - Eisenbeth, les **juifs en Algérie et en Tunisie Durant l'époque turque** , in, **R.A**, 1952, p158.

اقتصادي-سياسي بفضل احتلالهم وظائف الوسطاء الاقتصاديين والسياسيين في ذات الوقت.

2- التنظيم الطائفي لليهود خلال العهد العثماني:

تذكر جل المصادر أن الطائفة اليهودية كانت تحت إمرة "المقدم" أو "الشيخ" الذي كان صاحبه يمثل هيئة الاتصال بين السلطة الرسمية والطائفة اليهودية، وكان يضطلع بوجه خاص بمهام الشرطة وجمع الضرائب، وغدارة البيّع. وغالبا ما يتم تعينه من طرف الداي ويختاره على أساس غير محدد، ويكون عادة من الأغنياء الذين قدموا خدمات لحكومة الداي.

كما أن المقدم يعرف كيف يكسب ود البايات والباشاوات بخدماته الاستخبارية والهدايا الثمينة وغالبا ما يضطلع المقدم بمنصب مرموق كمستشار خاص، أو رجل دولة أو سفير[1]. وإلى جانب المقدم هناك مجلس الطائفة (Tobé Haïr) ويتم اختيار أعضائه من طرف المقدم ويتولون أمور تنظيم الطائفة[2]، إضافة إلى وظيفة (Guizbar) وهو مسؤول عن أماكن العبادة، وتوزيع الألقاب الدينية وحساب الضرائب. أما (gabaï) فهو مسؤول عن توفير ما يحتاجه أفراد الطائفة لدفن موتاهم وأخيرا هناك ما يعرف بـــ (chaber) الذي يترأس مراسيم الدفن[3].

وموازاة مع هذا كانت هناك سلطة رقابية هي المحاكم الحاخامية ورغم أن هذه الأخيرة كانت تحت إمرة المقدم ومجلسه إلا أنها كثيرا ما عارضت المقدم

1 - Haïm Tafarani, **les juifs d'Afrique septentrionale** , in R.S.H.C, 1867, p26.
2 - Cahen, op.cit, p172.
3 - Cahen, op.cit, p172.

وسلطته المطلقة[1] وتضطلع المحاكم بأمور الطائفة الدينية وبالفصل في المنازعات الدينية والقانونية[2].

ومما سبق نلاحظ أن النظام الطائفي الخاص باليهود في الإيالة كان يبدو من الخارج محكما، بغض النظر عن المشاكل الداخلية للطائفة التي كانت تعطل وظائفه في أحيان كثيرة.

ومنذ قيام النظام الطائفي الجديد على يد ريباش وراشباش انفرد الميغورشيم بزعامة الطائفة ومنصب "الحاخام الكبير" إلى غاية 1750 حيث انتزعه منهم يهود ليفورن بواسطة عائلة "بوشارة" وعائلتي بكري وبوجناح؛ وتراجع منذ ذلك التاريخ نفوذ ودور العائلات الارستقراطية الاسبانية واختفت من الريادة والواجهة أسماء كان لها لمعانها وبريقها كسرور، بن حاييم الذي نجح في الوصول على رئاسة الطائفة في فترات قصيرة ومتقطعة إثر ثورة الانكشارية واغتيال رئيس الطائفة آنذاك نفطالي بوجناح وقد كلفت هذه المنافسة داود بن دران حياته سنة 1911 وأدت إلى خلافات يهودية يهودية خطيرة أزعجت الإيالة سياسيا.

واستمر الصراع بين الأسرتين إلى غاية الاحتلال وبدخول الفرنسيين إلى مدينة الجزائر سارع يعقوب بكري ومنافسه بن درّان لكسب ودهم بالهدايا والتجسس. وبالفعل أصبح بكري أحد مستشاري الجنرال دي بورمون (De

1 - ibid, p40.

2-Haïm Zafarani, « Les relations Judéo musulman dans la littérature Juridique », in, **Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du nord XIXe XX siècles, acte de colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre Mer** Abbaye, de Sénanque, octobre, 1978, Paris.1980, p34.

Bourment) ومن المؤثرين في القرارات التي يتخذها[1]. كما اضطلع ابن دران هو الآخر بمكانة مرموقة من خلال خدماته المخابراتية وهذه المكانة هي التي ستؤهله للعب دور الوساطة بين سلطات الاحتلال والأمير عبد القادر.

3- النفوذ الاقتصادي–السياسي لليهود في الجزائر قبل سنة 1830:

ساعدت التناقضات والعداوات الدينية المتواصلة بين المسلمين والمسيحيين منذ القرن الرابع عشر التجار اليهود على القيام بدور الوسطاء بفضل إجادتهم لاستغلالها، وللتظاهر بالحياد فتمكنوا من التوغل التجاري في عمق الضفتين المتوسطيتين؛ وهو الأمر الذي كان صعبا على المسلمين الذين كانوا عرضة للهجمات والمضايقات المسيحية عند اقترابهم من الضفة الشمالية للمتوسط، وصعبا أيضا على المسيحيين.

ومن بين أهم وأبرز الشركات اليهودية في الإيالة في الفترة الممتدة ما بين (1793–1805) نجد دار بكري وبوجناح التجارية التي قامت بدور مهم وخطير انطلاقا من سيطرتها على الاقتصاد والسياسة في الإيالة بفضل علاقاتها المتينة والوثيقة بالنخبة الحاكمة والتي حكمتها المصلحة المتبادلة في مرحلة أولى واللعب على تناقض المصالح– بين مصالح فرنسا الاقتصادية، ومصالح انجلترا الاستراتيجية– في مرحلة ثانية.

التحالف بين رأس المال والسياسة كان مرحلة حتمية لتطور رأس المال التجاري والمالي اليهودي عبر دار بكري وبوجناح، لذلك بدأ نفوذها يتوسع

1 - André chouraqui, **la marche vers l'occident, les juifs d'Afrique du nord**, Presse universitaire de France, Saint Germain, Paris, 1952, p99.

إلى مختلف المؤسسات السياسية الحساسة: وبلغ حتى إحكام السيطرة على الدبلوماسية الجزائرية، ومراقبة علاقة الإيالة بالخارج وكذا تحالفاتها واتفاقياتها.

4- الأمير عبد القادر واليهود:

لم يتخذ الأمير عبد القادر موقفا عدائيا من اليهود برغم موقفهم السلبي غداة الاحتلال لأنهم لو لم ينتظروا على تعدد مذاهبهم ومشاربهم سقوط مدينة الجزائر ودخول الفرنسيين لها منتصرين فغدرهم ظهر حتى قبل سقوط مدينة الجزائر من خلال الحملة الفرنسية التي استعمل القائمون عليها يهود مارسيليا ممن كانوا فرنسيين وأقاموا مدة طويلة في الإيالة، وممن كانوا يحملون الجنسية الجزائرية أصلا ممن نزحوا منها إلى مارسيليا في وقت عرفت فيه تراجعا كبيرا وخطيرا على جميع المستويات بينما بدأت فرنسا تعرف نهضة اقتصادية تستطيع أن تأهلها أن تكون قلب أوروبا النابض على المستوى الاقتصادي كمترجمين رسميين للاتصال بالأهالي[1].

وقد أتيح لليهود القيام بدور بارز من خلال الوساطة السياسية أو الديبلوماسية حيث أن أشهر الاتصالات بين القادة الفرنسيين والجزائريين كانت تتم من خلالهم وكانوا حاضرين أيضا لدى عقد المعاهدات بين الطرفين ومقابل هذا تحصلوا على ريوع سياسية واقتصادية كبيرة.

ولعل أبرز مثال على هذا دور اليهود في معاهدة دي ميشال (Desmichels)[2] حيث ساهم اليهوديان موردخاي الموسوي وبوجناح[1]. في

---

1 - André chouraqui, Op.cit, p99.

2- وصل الجنرال دي ميشال إلى وهران في 23 أبريل 1832، حيث تول القيادة خلفا للجنيرال بواييه.

عقدها في 26 فبراير من العام 1833 بين الأمير عبد القادر وقائد القوات الفرنسية في وهران الجنرال دي ميشال ونصت إحدى بنودها على أن يعين الأمير عبد القادر وكلاء يمثلونه لدى السلطات الفرنسية في المدن الثلاثة المحتلة في ولاية وهران وهي أرزيو، مستغانم ووهران وأن تعين فرنسا بالمقابل قنصلا عاما لدى الأمير في معسكر، كما عين الأمير ممثلا له لدى الولاية العامة وهو يهوذا بن دران[2] وساهم بن دران في حل مشكلة احتكار تجارة الحبوب في أرزيو عندما أرادت السلطات الفرنسية أن تنازع الأمير حقه فيها والذي نصت عليه إحدى نصوص معاهدة دي ميشال[3].

وإضافة إلى عمله كوسيط ديبلوماسي، كان له دور على المستوى الاقتصادي مقابل الخدمات التي أسداها للأمير فقد عينه مسؤولا عن تنظيم احتكار الأمير لتصدير الحبوب من ميناء أرزيو، وإلى جانب قيامه باستغلال المسبخة الواقعة في جوار أرزيو والتي تعترف معاهدة دي ميشال بملكيتها للأمير، كان يهوذا بن دران هو المشرف على عمليات التصرف في الحبوب التي يتلقاها الأمير علة سبيل الزكاة والضرائب وكذا الحبوب التي يشتريها من

1- محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر**، دار اليقظة العربية، 1964، ص181.

Paul Azam, **l'émir abed Alkader** 1808-1883, Hachette, p23.

2- يهوذا بن دران من أصل فرنسي حيث انتقلت أسرة بن دران من مقاطعة بروفانس إلى ميورقة في أوائل القرن الرابع عشر ومن ثمة على الجزائر في عهد محاكم التفتيش وعمل بن دران مترجما لدى السلطات الفرنسية بعد احتلال الجزائر وهذه المهنة مارسها قبل ذلك الوقت في قصر الداي حسين، كما كان يزاول نشاطا تجاريا بالموازاة مع هذا.

ينظر: إسماعيل العربي، "دور يهوذا بن دران في دبلوماسية الأمير عبد القادر" **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 17-18، زغوان، تونس، 1980، ص 6-8.

3 - Yever, **Documents relatifs au traité de Tafna**, Alger, 1924, p145.

القبائل التي لم يكن مصرحا لها بالبيع في أسواق المدن المحتلة كما كان يؤمن تصدير الحبوب إلى إسبانيا من خلال شبكة الوسطاء التجاريين التي كان يتحكم بها، وكان هذا يدر على بن دران أرباحا كبيرة من خلال بيعه للقنطار من القمح بـــ 34 و36 فرنك بينما كان يشتريه بـــ 16 فرنك للقنطار[1].

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت بالأمير عبد القادر إلى اختيار يهودي كممثل أو وكيل له على المستوى السياسي والاقتصادي ولماذا تعامل معهم؟

1- معرفة اليهود للغة السكان وإتقانهم للغات أخرى في ذات الوقت، فهم شخصيات حركية قادرة على التعايش في أي مجتمع والتواصل مع أفراده عن طريق امتلاكهم ناصية اللغة فابن دران الذي عاش في مارسيليا مدة من الزمن كان يتقن الفرنسية وهذا ما يذكره "Wilfred Blond" عند تعرضه لحياة بن دران "تعلم وعرف عادات الفرنسيين وأخلاقهم، كما كان يتحدث لغتهم وإلى جانب إتقانه للغة الفرنسية كان ابن دران يحسن اللغة العربية والأسبانية والتركية"[2].

2- ارتباطه بعلاقات وطيدة مع الفرنسيين وخاصة المسؤولين منهم المدنيين والعسكريين ومعرفتهم بالشخصيات وميولاتهم وطرق التعامل معهم وقنوات الاتصال وإتقانه لأسلوب التعامل مع الجزائريين والفرنسيين على حد السواء. وهذا ما يؤكده "Wilfred Blond" بقوله "كان دبلوماسيا عبقريا لم يعرف لدهائه وبراعته مثيلا في تاريخ الإيالة فلم يلبث أن سيطر على الوالي العام

1- إسماعيل العربي، "دور يهودا بن دران في دبلوماسية الأمير عبد القادر"، مرجع سابق، ص 17-18.

2- مرجع نفسه، ص10.

دوري دورلون سيطرة تامة بحيث كان دائما يشاهد في معيته ويركب معه في عربته الخاصة وكان دوري دورلون يستقبله في أي ساعة في قصره حيث كان يجمع مختلف المعلومات السرية التي تتمخض عنها اجتماعات الوالي العام بمساعديه"[1].

3- الصلات التجارية التي كانت تربطه بالحكومة الفرنسية ومختلف الأوساط التجارية الأوروبية والجزائرية وخاصة مع القبائل المعارضة لسلطة الأمير على الغرب والتي زادت الفجوة بينه وبينها بعد عقده لمعادة دي ميشال. كما أنه هو الذي أوحى إلى الأمير عبد القادر بالعامل مع شركة يهودية مرموقة تأسست في نهاية خريف 1834 وكان يمولها أحد رجال البنوك المعروفين في جبل طارق، ويشارك في إدارتها كل من: بوجناح، لاسري بوديسه وبهوذا صالح، ومخلوف بن نعيم. فقد أعطاها الأمير امتياز تصدير منتجات البلد (الصوف، القمح، الشعير، الشمع، الزيوت والجلود) عن طريق نهر تافنا إلى جبل طارق، وتتولى استيراد أسلحة ومنتجات صناعية وغذائية (القهوة، السكر، الشاي، والتوابل) للأمير. وقد اتخذت جزيرة "أرشغول" قاعدة بحرية للتبادل التجاري، وبدأت هذه الجزيرة تحل محل ميناء وهران تدريجيا[2]. وموافقة الأمير كانت بناءا على رغبته في تنويع علاقاته التجارية وضمان استقلال اقتصادي ورغبة في ربط علاقات تجارية مع المملكة لإحداث توازن بينها وبين المصالح الفرنسية.

1- اسماعيل العربي، **العلاقات الديبلوماسية في عهد الأمير عبد القادر**، مرجع سابق، ص10.

2- المرجع نفسه، ص52.

4- الخدمات المخابراتية التي كان يقدمها للأمير وقد كانت عاملا مهما وأساسيا في تقوية وتعزيز نفوذ ابن دران ودعم أعماله الاقتصادية ودعم موقفه السياسي بين حاشية الأمير.

5- إدراك الأمير بحنكته السياسية وخبرته وبعد نظره أهمية الاعتماد على العنصر اليهودي وخصوصا النخبة اليهودية وذلك لتمتعها بالخصائص السابقة الذكر، وهذا اختار الأمير عبد القادر اليهودي بن دران ليلعب الدور الذي يتمكن بن عراش وزير خارجيته نفسه من القيام به في الدبلوماسية الجزائرية.

6- إمكانية اعتماد الأمير على اليهودي بن دران كبنكي خصوصا وأنه كان يعاني من مشاكل مالية.

ومن هنا ومن خلال ما سبق يمكننا القول أن نشاط اليهود كوسطاء سياسيين واقتصاديين استمر خلال السنوات الأولى من الاحتلال ولعل أبرز مثال على هذا استعمال الأمير عبد القادر لهم كممثلين سياسيين (دبلوماسيين) واقتصاديين.

فقد تعامل الأمير عبد القادر مع اليهود انطلاقا من كونهم أهل ذمة ودفعه ذكاؤه السياسي وأهدافه العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية إلى استعمالهم وتقريبهم، وقام اليهود بدورهم بالوساطة السياسية والاقتصادية مقابل مكاسب مادية كبيرة. فقوتهم الاقتصادية هي التي أهلتهم لتبوء مناصب سياسية مهمة وحساسة استفاد اليهود منها وخدموا من خلالها مصالحهم وحافظوا على مكتسباتهم.

منهج وآليات انتشار بعض التيارات الفكرية غير العربية الإسلامية في الجزائر

الأستاذة ليليا شنتوح
ماجستير، عقيدة ومقارنة أديان

مقدمة

بعد احتلال الجيش الفرنسي مدينة الجزائر سنة 1830، بدأت الإدارة الفرنسية العمل على ترسيخ الوجود الفرنسي ليتمكن من التوسع في البلاد، وهذا من خلال السيطرة المنظمة والواسعة التي جندت لها كل الإمكانات المادية والبشرية، عسكرية ومدنية، لتأسيس قاعدة إقليمية وإدارية، مع تشجيع الهجرة الاستيطانية، من أجل بناء قاعدة ديمغرافية، تساهم في هدم البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الجزائري.

وقد اعتبر الجيش الفرنسي الدين الإسلامي عموما، وإيمان الجزائريين العميق بتعاليمهم، وبمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين خصوصا العقبة الكئود في مواجهتهم وتنفيذ مخططاتهم بالشكل الذي ارتأوه، لذلك فقد توجهت جهودهم للقضاء على هذا الحصن المنيع، ووفرت كل ما تملك من قوى ووسائل، كان من أبرزها الدور الذي لعبته المدرسة الإستشراقية والتبشيرية، بحضور مدارس فكرية مختلفة من كاثوليكية وليبرالية وماسونية، وسان سيمونية لضرب معاقل الفكر الجزائري الإسلامي، وهدم العقيدة الإسلامية في نفوس الجزائريين، واعتمدت في ذلك على خطة مدروسة ومنهج خاص يعتمد في الأساس على الهدم ثم البناء كقاعدة رئيسة في

الانتشار.

وهـــنا يثار سؤال في غاية الأهمـــية وهو ما هو منهج وآليات انتشار التيارات غير إسلامية في الجزائر. ونحاول الإجـــابة عن هذا السؤال من خلال دراسة النقـــاط الآتية:

1. نـــشـــاط المبشرين
2. تثبـــيت الهياكل المسيـــحية
3. محـــاربة الإســـلام
4. القضاء على اللغة العربـــية
5. الاعتماد على المساعدات المالية

1- نـــشاط المبـــشريـــن:

لـــعب المبشرون في الجـــزائر دورا كبيرا في عملية الاستعمار الاستيطاني، حيث توافـــدت على الجزائـــر أعداد كبيرة من الجمعيات التبشيرية، أغلبها كاثوليكية وعدد محدد منها بروتستانية، نذكر منها على سبيل المثال: جمعية مبشري السيدة الأفريـــقية، وجمعيات مبـــشرات السيدة الأفريقـــية، وجمعية إخوان الصحراء المســـلمين[1].

والـــجدير بالذكر هـــنا أن الجزائـــر قبيل الاحتلال الفرنسي سنة 1830 لم تنج من المحاولات التبشيرية، وقـــد أخذت هذه المحاولات أشكالا متعددة منها ما هي ذات صبغة عدوانية كالـــتبشير بالقوة، ومنها ما هي ذات صبغة

---

1 – محمد الطاهر وعلي: **التعليم التبشيري في الجزائر** (1830م–1904م)، رسالة ماجستير، (الجزائر: جامعة الجزائر، 1988م–1989م)، ص7

سلمية كإرسال مبشرين للتبشير أو لافتداء الأسرى، وكل هذا حسب نوعية العلاقات التي كانت تربط الجزائر المسلمة بالدول الأوربية المسيحية.

ولقد كشفت محاولات اتصال المبشرين في الجزائر مدى التسامح الذي قوبل به الذين يدينون بالديانة المسيحية، ولكنهم استغلوا هذا التسامح في البحث عن مأربهم التنصيرية بين الجزائريين، إلا أن الملاحظ هو فشل كل محاولاتهم تلك، وعدم بلوغهم الهدف، ولكنهم في ذات الوقت نجحوا بحكم تعاملهم مع الجزائريين، وبحكم كونهم طليعة الجيوش الاستعمارية في البلاد في أنهم عرفوا كثيرا من الأمور عن الشعب الجزائري بنيته الاجتماعية، لهجاته بل كل أوضاعه السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية وحتى التقسيم الجغرافي والجهوي وهذا ما سهل لفرنسا فيما بعد عملية الاحتلال باسم المسيحية[1].

والملفت للانتباه هنا أن الحركة التبشيرية في الجزائر، وفي غيرها من بلدان العالم الأخرى، كان ظاهرها دينيا، وباطنها استيطانيا، أي أنها عملت على تهيئة الطرق، وتعبيدها أمام جحافل الاستعمار.

ولقد كان الكاردينال لافيجري مؤسس فرقة الآباء البيض، وإخوانهم البيض، وأخواتهم البيض المشحونين بالحقد على الإسلام والمسلمين، كانوا كلهم في خدمة سيدنا عيسى عليه السلام، وفي خدمة الأهداف الفرنسية الاستعمارية، وأطماعها التوسعية، وقد بذل في سبيل ذلك ما لم يبذله غيره، يشهد على ذلك ما كتبه أحد قادة فرنسا

---

1 - المرجع نفسه، ص5

وهو ليـــون قومبيطا (L. Gambetta)، في رســـالة بـــعثها إلى المنسينيور شارميتان (Charmettant) يقـــول فيها: (ان الكاردينال لافيجري والمرسلين التابعين له في سوريا قد أدوا إلى فرنسا خدمات لا يستطيع جيش كبير أن يؤديـــها..)[1]

ولـــقد كـــان مخطط لافيجري وجنوده يستهدف تحقيق أحد الهدف وهو تنصـــير الشعب الجزائري وإبعاده عن قرءانه، واستبدال الإنجيل به. وهـــذا ما فـــكر فيه لافيجري بعـــقله، وخـــطه بيمينه، حيث جاء في رسالة كـــتبها إلى المـــسؤولين الفرنسيين ما يلي: (يـــجب إنـــقاذ هذا الشعب ، ويـــنبغي الإعراض عن هـــفوات الماضي، ولا يمكن أن يبقى محصورا في قرءانه، يجب أن تسمح فرنـــسا بأن يقدم له الإنجيل، وأن تطرده إلى الصحراء بعيدا عن التـــمدن)[2].

وقـــد سار هؤلاء في ســـبيل نشر مبادئهم وأفكارهم الهـــدامة بين الجزائريين من خـــلال عدة مـــحاور هـــي:

1- التعـــليم

2- التطبيـــب

3- الأعمـــال الخيـــرية

1- الـــتعلـــيم

---

1 – الحسيني محمد الهادي، "حتى يموتوا كبار الحومة"، **جريدة الشروق**، عدد 1666، يوم 20 أفريل 2006م، ص14

2 – "حتى يموتوا كبار الحومة"، المقال السابق،ص14

تعتبر المدرسة الدعامة الأساسية في العمل التبشيري، ويكفي أن نشير إلى أهميتها في تكوين رجال المستقبل، ولاسيما في توجيههم نحو قبول معتقدات، وإيديولوجيات، ثم تبنيها لتكوين الدستور الذي يسير عليه أفراد المجتمع قاطبة.

ولقد استخدم المبشرون المدرسة في الجزائر بنية الوصول في وقت معين إلى إحداث تغيير جذري في بنية المجتمع الجزائري، انطلاقا من الأسرة، وذلك بالعمل من أجل تكوين جيل من النصارى ينبذ أفراده ماضيهم الإسلامي، وينسلخون من عروبتهم، ويندمجون روحيا في الثقافة الغربية المسيحية[1].

إن المبشرين بمحاولتهم لتحقيق هذا الهدف في الجزائر يعتبرون أكبر معين وسند لسلطات الاحتلال الفرنسي في العمل على استعمار الجزائر ثقافيا، وقد أكدوا أن المهمة الاستعمارية ثلاثية الأركان، إذ هي تتمثل في الجندي، المعمر، والمعلم، والأخطر في هذه الثلاثية الاستعمارية هو عندما يكون الركن الثالث أي المعلم مبشرا لا يعمل على نشر لغته وثقافته فحسب[2]، بل يسعى كذلك إلى نشر الديانة المسيحية مقابل الطعن في دين الأهالي،. يقول أحد المبشرين: (إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية، إنما هو واسطة إلى غاية فقط ،هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح، وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين)

1- فروخ عمر، الخالدي مصطفى، **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، د.ط (صيدا: بيروت، منشورات المكتبة العصرية:(1986م) ص65

2 - المرجع السابق،ص41

حيث ينشأ الأطفال بنين وبنات على أعين المنصرين، وهم الأمل المرتقب لمهمتهم عند الكفار، وهذا ما نجلوه من خلال ما ذكره الكاردينال لا فيجري في المذكرة التي أرسلها إلى الإدارة الفرنسية حيث قال: (علينا أن نخلص هذا الشعب من قرءانه، وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير المبادئ التي شب عليها أجدادهم. .)[1]

ومن هنا نخلص إلى القول إن التعليم كان أول طريقة استخدمها المبشرون من أجل نشر أفكارهم بين أفراد الشعب الجزائري.

2- التطبيب

يعد التطبيب من أهم الوسائل التي استخدمها المبشرون لنشر أفكارهم الدينية والاستعمارية المعادية للروح الإسلامية، ولقد تعددت الأساليب التي طبق فيها المبشرون التطبيب كوسيلة للتنصير، رغم أن الغاية واحدة، وهي تنصير ما استطاعوا تنصيره من أفراد الشعب الجزائري، وقد جاء في إحدى وصايا المنصرين أنه يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك، ولذلك أسس المنصرون ومنهم الآباء البيض المستشفيات والمستوصفات، ودربوا الممرضين، والممرضات ليسهل عليهم الاتصال بمختلف الفئات، ولا بأس أن يلبس الجنرال لا فيجري على الناس ويسمي أحد مستشفياته بيت الله..

---

1 – الحسيني محمد الهادي، **حتى يموتوا كبار الحومة**،ص14

وقـــد كانت عملية الدعـــوة إلى اعتناق المسيحية في المستشفيات الخاصة بالمبشرين تـــتم بطريقـــتين:

1- طريقـــة غير مباشـــرة: كإقامة المبشرات لصلواتهن في قاعة المرضى، وتـــقديم هدايا لمن يـــبدي اهتمـــاما ما بالديانـــة المسيحية.

2- طريـــقة مباشرة: كدعـــوة القادرين من المرضى إلى حضور القداس، الذي يـــقام في كنـــيسة المـــستشفى صباح كل يـــوم.

أمـــا بالنـــسبة للجزائريين الذين يعالجون في ديارهم فإن محاولات التنصير تـــتم بشـــكل غير مباشـــر، إذ أوهموا الأهالي بأن ما يقومون به من تقديـــم الإسعـــافات ناتـــج من كونهـــم مسيحيين، وأن العنـــاية الإلهـــية هي التي أمـــلت عليـــهم بـــهذه المـــهمة[1].

3- **الأعـــمال الخـــيريـــة**: يـــعتبر العـــمل الخيـــري بمثابة السلاح الأول الذي بواسطته يدخل المنصرون إلى قلـــوب الـــناس ليتركوا فيـــها أثـــار أبـــدية

وقـــد أكد لا فيجري على ذلك، فأوصى مبشريه بالحرص على استـــخدام هذا الأســـلوب، لما له من تأثـــير في تقريـــب الجزائريين إليـــهم.

وكانـــت الأعـــمال التي استـــعملها المبشرون في الجزائر متنوعة، ويتجهون في أغلب الأحـــيان نحو المحتاجـــين، لإدراكهم بأنهم أكثر سهولة للوقوع في مخالب هـــذه الأعمال[2].

---

1 -فروخ عمر، الخالدي مصطفى، **التبشير والاستعمار**

2 - المرجع السابق،ص 89

وقد صادف مجيء لا فيجري إلى الجزائر سنة 1867، وتأسيسه فرقة الآباء البيض، وفروعها، دخول الجزائر في إحدى فترات تاريخها الأكثر دقة وحرجا، فالمواسم أثارت مجاعات لا سابق لها، وزاد من خطورة الوضع انتشار وبائي الحمى الصفراء والكوليرا[1]، فاستغل لا فيجري وجنوده الفرصة ليساوموا الجزائريين بالخبز على دينهم، وهذا بطبيعة الحال أخس أنواع الدعوة إلى أي دين أو مذهب، وإذا كان الكبار قد صبروا على ما أصابهم من جوع، فإن الأطفال لم يستطيعوا صبرا، لم يتحمل أوليائهم منظرهم وهم يموتون جوعا، ويرتعدون من البرد القارص، فسلم بعضهم أبنائهم إلى المراكز التي أنشأها لا فيجري، فأطعم هذا الأخير أفواههم، وسرق قلوبهم، وأرسل بعضهم إلى فرنسا ليقطع أي أمل لأوليائهم في استرجاعهم.

وقد جمع لا فيجري خلال هذه الكارثة ما يقرب عن 1752 طفل جزائري (في الجزائر العاصمة وبالتحديد في ابن عكنون) إلا أنه أبقى منهم ما يربو على 500 طفلا[2].

ومن هنا نخلص إلى أن الأعمال الخيرية كانت إحدى أهم الأساليب والطرق التي استخدمها المبشرون لتنصير أكبر عدد ممكن من الجزائريين، مستغلين بذلك الحالة المتردية التي وصل إليها الناس من فقر

1- فريمو جاك، **فرنسا والإسلام ،من نابليون إلى ميتران**، ت هاشم صالح،ط1 (د.ب،الأرض للنشر، دار قرطبة، (1991) ،ص2

2 – محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق،ص87

وجماعات وأوبئة ليدخلوا من هذه الباب، ويحققوا أهدافهم التنصيرية والاستعمارية.

ثانيا: تثبيت الهياكل الدينية المسيحية

عندما وصل الكاردينال لا فيجري للجزائر سنة 1867م، وجد بها أسقفية رئيسة عمرها ثلاثون سنة، وتذكر حوليات الأسقفية في تلك الفترة أنه عندما حل لا فيجري كانت هناك 83 كنيسة و140 أب وكاهن، و84 جمعية دينية[1].

وقد أولى لا فيجري اهتماما بالغا بمسألة تشييد الهياكل الدينية المسيحية بالجزائر بغية إزالة الصبغة الإسلامية من جهة، وطمس معالمها الحضارية بها، ومن جهة أخرى إرجاع عهد الكنيسة الأفريقية الرومانية، ومواصلة عمل أجداده الرومان بالجزائر، حيث أنشأ لا فيجري بين 10 سنوات أي من 1867م إلى 1876م ما يقرب 49 كنيسة و25 خورانية (papoisses) أهمها:

- كنيسة سان جوزيف بباب الواد St Joseph de beb el oued -
- كنيسة شارل أغا St charales de l'agha -

كما أنه ضاعف من مجهوداته في مجال بناء وإنشاء الهياكل الدينية المسيحية، حتى وصل عددها سنة 1888 إلى 68 كنيسة قائمة يؤمها المسيحيون، وتساهم في النشاط التبشيري بحركة فعالة، وعند موته سنة 1892، وصل عددها إلى 121 كنيسة، ولم يترك لا فيجري مدينة جزائرية إلا

---

1 - المرجع السابق، ص87

وغرس بها كنيسة وخورا نية أملا منه في توسيع رقعة الممارسة الدينية المسيحية بين المستوطنين، وأفراد الجيش الفرنسي، وحتى أعضاء السلطة الفرنسية بالجزائر، وكذلك تعميم النشاط التبشيري على مستوى المدن والقرى والمداشر الجزائرية.

وقد كان أبرز هيكل مسيحي عمل الكاردينال لا فيجري على تكريسه في الجزائر كاتدرائية السيدة الأفريقية، رغبة منه في جعل هذا الهيكل الديني محجا كبيرا لمسيحي الجزائر، ومركزا للتقوى، وقطبا للإرساليات التبشيرية نحو القارة السمراء[1].

وهكذا، وبإنشاء هذه الهياكل المسيحية في كامل القطر الجزائري تصبح المسيحية ومبادئها منتشرة في كل مكان، ولاسيما إذا علمنا أن المستعمر قد غلق العديد من المساجد وحول أكثرها إلى كنائس واصطبلات للحيوانات.

ثالثا: محاربة الإسلام

اجتهد مستشرقو فرنسا ومبشروها منذ الأعوام الأولى من الاحتلال في دراسة الفكر الإسلامي دراسة جادة ومستفيضة، حتى يتمكنوا من معرفته، ومن ثمة محاربته، وقد عرفت فرنسا أن الإسلام بالنسبة لشعب الجزائري هو الحصن الذي يعتصم به، والملاذ الذي يأوي إليه، والمعقل الذي يحفظه من الهزات والرجات[1]، فرغبت تبعا لذلك في القضاء عليه،

---

1 - مزيان سعيدي: **النشاط التبشيري للكاردينال لا فيجري في الجزائر** (1827م-1862م)، رسالة ماجستير، (الجزائر، معهد التاريخ ،(1998م-1999م) ص19-20

وادخرت له كل حقد دفين، وعليه بدأوا يروجون لنشر المغالطات التي تصف الإسلام بأوصاف سيئة منها العنف، الدموية، والتخريب، وكانوا يريدون ضرب الشعب الجزائري في قلبه النابض ألا وهو العقيدة الإسلامية، لأنهم في الحقيقة أدركوا خطورتها على مصالحهم وتوسعاتهم[1].

وقد ظل الإستشراق متواصلا في الجزائر طيلة الوجود الاستعماري، فالإستشراق والاستعمار متلازمان يعتمد كل منهما على الأخر، ولا يقوم إلا به. وينقسم عمل المستشرقين والمبشرين إلى أمرين:

الأمر الأول: هو الدفاع عن فرنسا وإظهارها بمظهر حسن أمام الجزائريين حتى يتقبلوا عملية الاحتلال.

و الأمر الثاني: يتمثل في اتهامهم كل من حمل السلاح في وجه الاستعمار وحاربه ووقف في سبيل توسعهم بأنه متعصب ديني

وألصق المبشرون والمستشرقون بالجزائر كافة أشكال الجمود والتخلف الذي تعيشه البلاد إلى جمود المؤسسات الدينية، وفي ذلك يقول لوي بيرتران **Louis Bertrand** : (إن العربي لم يقدم لهذا البلد إلا الفقر والتخلف، والفوضى وكل مظاهر الحضارة، جاءت الجزائر من سوريا وفارس واليونان والبيزنطية، وخصوصا من البلدان اللاتينية ولم يتمكن من القضاء على الفن الزراعي وعلى الآثار التي تركها القرطاجيون الرومان إلا بعد مرور بضعة قرون..) وهذا الكلام لا أصل له، ويقصد من ورائه تشويه الصورة

---

1 – الصديق محمد الصالح، **كيف ننسى هذه الجرائم**، د،ط (الجزائر: دار هومة، (2005م)،ص74

الحقيقية للجزائر الإسلامية، والطعن في الإسلام، وتشويه صورة الإسلام في عقول أبناء هذا الشعب الذي سحقته المحن، وأذله الفقر حتى يجعلوه وراء ظهورهم، فتضعف صلتهم بالماضي، بحيث لا يصبح هناك أي ردع من الانحراف العقائدي والسلوكي، وهو ما يؤدي إلى الذوبان في الأمة المتحضرة الجديدة

ومن ثمة نجد أن الإستشراق والتبشير قد سخرهما فرنسا تسخيرا بالغ الأهمية بالاستعانة بهما في زحفها على معاقل الفكر الجزائري الإسلامي ابتغاء طمسه وتشويهه، وبالتالي الحفاظ على أهدافها الاستعمارية والتوسعية والسماح لأفكارها المعادية للإسلام بالانتشار في البلاد.

رابعا: القضاء على اللغة العربية

اللغة العربية الفصحى هي الواجهة الأخرى للدين الإسلامي، لأنها لغة القرآن الكريم الذي هو مصدر الإسلام الأساسي، ومن ثمة فقد كانت هي العدو اللدود للاستعمار الفرنسي، وأجهزته، وإدارته، حيث عمل منذ دخوله أول مرة على القضاء عليها تدريجيا من خلال إحلال اللغة الفرنسة محلها في جميع مجالات الحياة الاجتماعية، فقد جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال: (إن إيالة الجزائر لن تصبح (مملكة فرنسية) إلا عندما تصبح لغتنا

هنـــاك قومية، والعمل الذي يترتب علينـــا إنجازه هو الســـعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تـــقوم مـــقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن..)[1]

والقـــضاء على اللـــغة العربية الفصحى من شأنه كذلك أن يســـاهم في نشر المسيحية بين الأهالي ومختلف أفكـــار التيارات الأخرى، يـــقول الكاردينال لا فيجري: (إننـــا لن ننتصر من الجزائر، ما داموا يقرءون القرءان، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيـــل القرآن العربي من وجـــودهم، ونقـــتلع اللسان العربي من ألسنتهم)، ومـــن ثـــمة فـــما كاد الاستعمار الفرنسي يتم احتـــلاله للجزائر حتى أخـــذ في محاربة اللـــغة العربية الفصحى كـــما نوهنا إلى ذلك سالفا، ولم تمضي إلا فترة وجـــيزة حتى كان الاستعمار الفرنسي قد قضى كليا على المدارس والكليـــات التي كانـــت مزدهرة[2] في مختلف أنحاء القـــطر الجزائري.

والقضـــاء على اللغـــة العربية كذلك، وإحـــلال اللغـــة الفرنســـية محلها معـــناه أن تصبح الجزائـــر فرنســـية اللـــسان والثقافة، وتنقطـــع بذلـــك عن تاريخها، وتـــفقد مقوماتها الشخصية، والقومـــية، وتذوب في

---

1 – ابن نعمان أحمد، **فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر** (الخلفيات، الأهداف، الوسائل، البدائل)، د.ط (الجزائر، منشورات دار دحلب د.ب)، ص81–8

2 – العسيلي بسام، **عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية**، ط2 (بيروت، دار النفائس، 1403هـ–1983م) ص50

بوتقة الأمة الفرنسية[1]، ومن ثمة تصبح ثقافة ولغة وديانة المستعمر بارزة على حساب فكر وثقافة، ولغة الشعب الجزائري.

لقد أدرك الاستعمار الفرنسي أن انتشار اللغة العربية يشكل خطرا على الوجود الفرنسي، ويقضي على مخططاته الهادفة إلى فرنسة الجزائريين، والقضاء على أصالتهم، ولذا عملت على محاربة اللغة العربية بشتى الوسائل، ومختلف الأساليب للحد من تعلمها وانتشارها، وكان من جملة إجراءاتها إصدار القانون المعروف (بقانون 24 ديسمبر 1904م)، والذي ينص على (عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية من دون رخصة يمنحها إياه عامل الولاية — العمالة- أو قائد الفيلق العسكري)[2].

وقد لعب الإستشراق الفرنسي دورا كبيرا في محاربة اللغة العربية بمختلف الوسائل، بل إن هذه المحاولة كانت من صميم أعمال المستشرقين[3]، وذلك بمحاولة تفكيكها إلى عدة لهجات مختلفة أو ما يسمى بالعامية، وإما بتشجيع اللهجات القديمة كالبربرية في شمال شرقي الجزائر، والطوارق في الجنوب وهلم جر.

1-سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1(بيروت،دار الغرب الإسلامي(1998م)ج4،ص347

2 - العسيلي بسام، عبد الحميد بن باديس، ص50

3 -- سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ط1 (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996م)

ومن ثمة فرضت اللغة الفرنسية في الإدارة والمحيط والاجتماع، فأصبحت هي اللغة الرسمية في الإدارة والمحلات والشوارع، والمدن، والمرافق العامة أمثال بيجو، ولافيجري، وهيجو[1]...و غيرها من الأسماء الأخرى. وقد أرادت فرنسا من خلال هذا المنهج التهديمي إلى أن تفكك العقلية الجزائرية ثم تعيد تركيبها من جديد من خلال إحسلال لغة جديدة تتناقلها الأجيال اللاحقة.

ومن هنا نجد أن الهدف من القضاء على اللغة العربية الفصحى من كان شأنه أن يسمح لفكر المستعمر بالبروز والانتشار على حساب الفكر الجزائري الإسلامي.

ثالثا: الاعتماد على المساعدات المالية (التمويل). يعتبر المال أهم ركيزة تقوم عليها النشاطات الاقتصادية، وخدمات المبشرين، وبناء الكنائس والمدارس اللائكية وغيرها، ومن ثمة فبدونه تؤول كل المخططات إلى الزوال، إذ بواسطته تقام المراكز التبشيرية، وتشترى الأراضي، وتمول المشاريع الاقتصادية، ويعال اليتامى، ولأجل هذا نجد أن الكاردينال لا فيجري لم يترك أية فرصة إلا واستخدمها للحصول على المال، طلب المزيد منه، وبخاصة بعد أن رأى نفسه قد نجح في إنشاء القرى بسهول الشلف والعطاف، وإنشاء مدارس تبشيرية في منطقة القبائل.

وعلى سبيل المثال فقد بلغت الاعتمادات الرسمية التي خصصتها الحكومة الفرنسية لمساعدة لا فيجري أثناء إغاثته ليتامى مجاعة عامي

1-سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**،ج4،ص347

1867م و1868م مبلغ مليون فرنك، وذلك حسب التقرير الذي أعـدته الأسقـفية للبابا بيوس التاسع pie)

أورد نبكي (Tiquet) في كتابه حجم المساعدات الرسمية بين سنة 1870م و1875م وفق الجدول التالي:

السنة	1870	1871	1872	1873	1874	1875
المبلغ بالفرنك	9000	35000	35530	59535	53545	58200

والمـلاحظ من خلال الجدول أن المساعدات المالية التي قدمتها السلطات الرسمية الفرنسية للكاردينال لا فيجري كانت تزيد من سنة لأخرى باستثناء ما بين سنتي 1874م و1875م.

وعلى النقـيض مـن ذلك فإن السلطات الفرنسـية كانت تنتـهج سياسة التقشف حيال المؤسسات الإسلامية الجزائرية، فكانـت تخصص 45000 فرنك فقط، لصـيانة المساجد، حتى أن هذا المبلغ لم يكن يسـمح بالمحافظة على البنايات الهيكلية[1].

1 - مزياني سعيدي، **النشاط التبشيري للكاردينال لا فيجري**، ص48

وَقْعُ الأمير عبد القادر الجزائري في الكتابات المغربية

الأستاذ محمد السعيد قاصري

جامعة مسيلة

يعتبر الأمير عبد القادر من أهم وأعظم الشخصيات التي عرفتها الجزائر خلال القرن 19م، نظرا للدور الذي لعبه في مقاومة الاستدمار الفرنسي؛ وفي إعادة بعث وإحياء الدولة الجزائرية الحديثة. ورغم ما كُتب عنه وما سيُكتب فإننا كباحثين لن ننصف الرجل حقه، رجل جمع بين السيف والقلم وبين الفقه والسياسة وبين الحرب والدهاء السياسي، وبين التصوف، والمادوية والمدنية القائمة على تأسيس فكرة الدولة وتسيير دواليب الحكم فيها؛ وعليه سأحاول تثمين مجهود هؤلاء الباحثين الذين تطرقوا بالدراسة إلى الأمير، بإضافة محاولة تاريخية حول هذه الشخصية الفريدة من نوعها تحت عنوان: **وَقْعُ الأمير عبد القادر الجزائري في الكتابات المغربية**. وذلك بالإجابة عن السؤال الآتي: ما هو وَقعُ الأمير عبد القادر الجزائري في الكتابات المغربية الحديثة والمعاصرة؟

إذا وُجدت الوثائق التاريخية نطق التاريخ وحدثنا عن نفسه، وحيث لا وثائق لا تاريخ، وبالتالي فإن هذا الموضوع الموثّق من ما تم الإطلاع عليه وجمعه من وثائق بدُور الأرشيف المغربية كوثائق الخزانة الحسنية والخزانة العامة ومديرية الوثائق الملكية بالرباط، وغيرها من المخطوطات المطبوعة وغير المطبوعة. وانطلاقا من هذا سأحاول تقديم جوابا تقريبيا عن سؤالنا المطروح؛ ولتوضيح ما كُتب عن الأمير في المغرب الشقيق يمكن تحقيب هذه الكتابات إلى ثلاث حقب تاريخية: حقبة القرن 19م. وحقبة القرن 20م. وحقبة القرن 21م.

ونظرا لطول المدة الزمنية فإني سأقتصر حديثي بشكل كبير عن الحقبة الأولى مع الإشارة إلى الحقبتين الأخيرتين؛ ثم سأحاول التعقيب عن هذه الكتابات وفقا لسياقها التاريخي الذي وردت فيه.

لقد حظي الأمير عبد القادر بمكانة مرموقة لدى مختلف شرائح المجتمع المغربي، كما نال حظوة خاصة لدى السلطان المغربي عبد الرحمان ابن هشام، ونلمس ذلك من مضمون الرسائل التي تم تبادلها بين الأمير والسلطان تارة وبين الأمير وعلماء وفقهاء المغرب تارة ثانية، وبين ما تم تبادله بين السلطان ورجال بلاطه والقناصل الفرنسيين تارة ثالثة؛ وهي كلها كتابات تُمجّد وتعظّم شخصية الأمير، وتضعها في المرتبة اللائقة بها؛ وهذا ما سنعرفه في مختلف المحطات التاريخية الآتية:

مع مطلع سنة 1833 يكون السلطان المغربي قد سحب ممثله ابن الحامري نهائيا من تلمسان؛ وعلى اثر ذلك وجه رسالة إلى الفرنسيين بهذا الخصوص ضمّنها إشارة إلى الأمير جاء فيها: « وعزمنا أن نكتب لعظيم جنبكم بذلك، ليقوم بأمر ذلك الوطن، أو يتركه لمن يقوم به ... **ومحي الدين وولده هو من بايعنا**، ودخل في سلك طاعتنا».[1] وعلى اثر مبايعة الأمير تحدثت المصادر المغربية عن هذا الحدث، فمحمد خير فارس يشير إلى ذلك بقوله:«وعندما قام **عبد القادر** يجاهد الإفرنسيين (كذا) وكان قد أعلن بيعته لمولاي عبد

1- المكي، جلول: **مسألة الحدود المغربية الجزائرية من (631-1263هـ/1234-1847)** وأثرها **على العلاقات بين البلدين**، رسالة ماجستير: معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1413هـ/ 1993م، ص، 240

الرحمن»[1]. ويشير الناصري إلى الأمير بعد اتصاله بالسلطان بعد مبايعته في قوله: « ولما اتصل بالمولى عبد الرحمان ما عليه **الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين** ...أعجبه حاله، **وحسنت منزلته عنده**، لأنه رأى أنه قام بنصرة الإسلام، على حين لا ناصر له، فصار السلطان يمده بالخيل والسلاح المرة بعد المرة »[2].

وفي سنة 1834 ونتيجة للخلاف الذي جرى بين الأمير وزعيم الدوائر والزمالة مصطفى بن إسماعيل، يكون السلطان قد كاتب هذا الأخير بشأن التصالح مع الأمير، فأشار إلى ذلك بقوله: « فكان من حقك، والأنسب لمثلك أن تصلح **ما أفسده الحاج عبد القادر** وتسعى في ألفة المسلمين وتنظر في العواقب وتقصد بذلك وجه الله...فإياك والتراخي؛ أصلحـــك الله فاتح حرام 1250هـــ»[3] الموافق لـــ10 ماي 1834م.

وعلى اثر انتصار الأمير في معركة المقطع كاتبه السلطان مستبشرا بهذا النصر العظيم بما نصه: « **محل الولد البار المجاهد السيد عبد القادر بن محي**

1- **المسألة المغربية (1900-1912)**، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية، 1961 ص87.

2- الناصري، أبو العباس أحمد: **الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى الدولة العلوية**، القسم الثالث، ج، 9، تحقيق وتعليق ولديه جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دون تاريخ، ص44.

3 - ابن زيدان، عبد الرحمان: **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج5، ط.1، المملكة المغربية، 1352هـ/ 1933م، ص: 67 . الرسالة بتاريخ فاتح محرم 1250هـ الموافق لـــ: 10ماي 1834م.

الدين أمدك الله بالعون واليقين »[1]. وأثناء عقده لمعاهدة التافنا سنة 1837 اتصل الأمير بعلماء وفقهاء المغرب وعلى رأسهم الفقيه التُسولي الذي أشار إلى الأمير في جوابه عنه بقوله: « وبعد فقد كان قيل هذا (كذا) الأيام، ورد من ناحية أعمال الجزائر أعادها الله دار إسلام كتاب من **خليفتها المجاهد في سبيل رب العالمين سيدي الحاج عبد القادر بن محي الدين**»[2]. وبدخوله مدينة تلمسان وانتصاره على الفرنسيين قام السلطان بمكاتبة الأمير ومخاطبته بالصيغة الآتية: « **محلّ الولد البار، الساعي في المحاسن والمسار، المرابط المجاهد وحامل راية المجاهدين** »[3].

وعندما كتب الأمير إلى السلطان يبلغه رغبته في مغادرة الجزائر وترك باب الجهاد أجابه السلطان بما نصه: « **فاعلم أنّك روح تلك الأقطار وقطبها الذي عليه المدار**، فلا ينبغي أن تزايل تلك الدائرة...وهي حديثة عهد استرداد وقريبة زمن بجهاد وجلاد »[4]. ولم يكتف السلطان بذلك بل كاتبه مرة أخرى ليحذره من مكائد العدو الفرنسي فيما نصه: « فقد مارست أحوال العدو...

---

1 -المصدر نفسه، ص67.

2 – البغربي، أبو عبد الله: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د 1595، ص، 174.

3- ياسين، إبراهيم: **موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1847**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ،جامعة محمد الخامس، الرباط، 1407هـ/ 1987م، ص.260.

4- الناصر القاسي: (محمد بن إدريس، وزير مولاي عبد الرحمن وشاعره)، **البحث العلمي**: العدد 1، السنة الأولى، شعبان- ذي القعدة 1383هـ/ يناير- أفريل 1964، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ص176.

فكن من مكائده على بال، ومن أمر غدره على بصيرة واحتيال، فطالما أسرّ حسوا في إرتغاء ».[1] ثمّ شجّعه على مواصلة باب الجهاد: « فكيف يسوغ لك التفصّي؟ وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الإسلام وانتظم أمر الخاص والعام... ولولا وُجُودك وجِدّك لتفرّقت أشياع تلك القبائل الإسلامية شذر مذر، ولافترست كلاب الروم أهله ».[2]

ومع استئنافه لباب الجهاد سنة 1839 ونظرا للانتصارات الأولية التي حققها بعث السلطان بخطاب إلى الأمير ضَمّنه الصيغة الآتية: « **محلّ الولد البار الأحظى المجاهد الأرضى، السيّد عبد القادر بن محي الدين، أمدّك الله بالعون واليقين**... هذا وقد وصلنا كتابك الذي فاح نشرا، وأهدى بشارة وبشرى مُخبرا بما رزق الله **المجاهدين** من شحذ العزائم، وما توالى على الكفر وشيعته من النكبات والهزائم ».[3]

ونظرا للضغوطات الفرنسية على السلطان في وقوفه إلى جانب الأمير؛ وتمويها منه على الفرنسيين ردّ السلطان على احتجاج القنصل الفرنسي "ميشان" بخصوص الأمير بتاريخ 15 أوت 1839 بقوله: « **اعلم أنّ عبد القادر مستقل**، ولا يشتغل إلاّ بتنظيم بلاده، وليس أبدا تحت سلطتنا لكي نعطيه أوامر

---

1 -الجزائري، محمد بن عبد القادر: **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج، 1، 2، دار اليقظة العربية، بيروت، 1384هـ/ 1964م، ص341

2- شارل هنري ،تشرشل: **حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس**، 1974، ص.156

3- أبو العلا إدريس: **تلخيص من مجموع الابتسام عن دولة ابن هشام**. مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ح 114، ص420.

أو لكي ننهاه، بالعكس فإنّ وُلاّة أقاليمنا المجاورة لهم دائما معه مشاكل حول رعايانا بنواحي تلمسان وذلك لأنّ كلّ من يرتكب جريمة أو يرفض أداء ديونه، يفرّ إلى هذه المدينة ويضع نفسه تحت **سلطة الأمير** ويمنع ولاّتنا من الوصول إلى هؤلاء الأشخاص »[1].

كما أنه حاول دائما تقديم إجابات غامضة ومتناقضة أحيانا للفرنسيين، فبشأن طلبهم المتعلق بطرد الأمير من التراب المغربي بعد لجوئه إلى المغرب سنة 1843؛ كتب السلطان إلى عامله الطالب بوسلهام بما نصه: « وما يطلبون من طرد **الحاج عبد القادر** من إيالتنا السعيدة فتحمّل لهم به وقل لهم أنّ فلانا قد أمر بطرده المرّة بعد المرّة وكرّر الكتب بذلك لعمّاله، وبعد ما بلغه أنّه فرّ لطرف جبل لا تنال أهله الأحكام بطرف الإيالة أعاد الكتب بالجدّ في طرده حتّى لا يبقى له حسّ ولا أثر بهذه الإيالة »[2]. وقبل موقعة ايسلي التي جرت وقائعها سنة 1844 كتب ولي العهد سيدي محمد إلى السلطان بشأن الأمير: « **والسيّد عبد القادر بن محي الدين** تأخّر بمن معه لملوية بألطف إشارة وأوجز عبارة من الطالب حميدة والشيخ حمدون بأمرنا وإشارتنا فلم يبق للكافر الآن ما يعزز به من جهته»[3].

1- ياسين، إبراهيم: **موقف الدواة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر**، المرجع السابق، ص280.

2- **مقاطعة فرنسا للمغرب ومطالبتها بطرد الأمير عبد القادر وانزعاج المغرب من ذلك**، وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: ، العلبة 14، الوثيقة 29.

3-Hamet، Ismaïl: le gouvernement marocain et la conquêt d'Alger، présente، Ali Tablit، Thala éditions، les édition Chihab، Alger، 1998، P.65.

نظرا لهذه المكانة التي حظي بها الأمير، والدور الفعال المادي والمعنوي الذي قام به السلطان المغربي تجاهه، نشطت الدبلوماسية الفرنسية لضرب هذا التعاون، وللحيلولة دون استمراره وظّفت فرنسا سياستها القائمة على التفرقة، فهبت رياح التغيير على هذه العلاقات المتينة والحسنة، وعملت السياسة الفرنسية عملها بضرب هذا بذاك، فتحولت نظرة المغاربة عموما والسلطان خصوصا إلى شخص الأمير، لتسقط في الفخ الفرنسي. وهذا ما يتجلى لنا بشكل واضح في الرسالة التي بعثها الجنرال "بيجو" إلى ولي العهد سيدي محمد والتي ضمّنها عبارات قاسية في حق الأمير حيث جاء فيها: « وكما أخذت كلام أحد **الوُشاة** وهو الحاج عبد القادر الذي كان غرضه وفائدته في الفتنة بيننا وربما هناؤه وعيشه في شدة الأهوال ... وله والله غرض وطمع في تمليك البعض من رعيتكم»[1]

ويختم رسالته بوصف شنيع في حق الأمير: « وإنما خوفك من **الحية الرقطاء** التي استأنست بها وأدخلتها ثوبك رأفة منك وحنانة إلى أن تؤلمك، فالتفت لما يأتيك من **الحية** ولا تظن أن العيش يضفا معها بِعِشْرةٍ وأقتل سُمها قبل أن تؤلمك بسمها، والله شاهد ومطلع على نصيحتنا كنصيحة الأب لابنه والله على ما نقول وكيل »[2].

1- رسالة الجنرال بيجو إلى ولي العهد سيدي محمد بعد انتصاره عليه في معركة ايسلي 1844، مخطوط بمكتبة الخامة بالجزائر، رقم 2755. وهي عبارة عن رسالة مطوّلة وكتابتها مضغوطة جدا.

2 – المخطوط نفسه.

لقد حاول ولي العهد سيدي محمد الإجابة عن هذه الانشغالات بقوله: «وأن ما طلبت من نقل **السيد عبد القادر** فقد كان عندنا بصدد الانتقال – بأمر مولانا المؤيد– ولذلك تأخر بأمرنا إلى واد القصب بواسطة بعض العمال، وحيث كررتم الطلب والكتب في إبعاده لداخل الإيالة، ها نحن أمرنا أيضا سيدنا أيده الله في تلك النواحي وهو الشيخ حمدون أمرا جازما بنقله إلى وسط هذه الأقطار المصونة بجميع أهله حتى لا تبقى له رأسا بتلك النواحي أخبار (كذا) فضلا عن أن يعود إلى تلك الديار»[1].

وبعدما صادق السلطان على اتفاقية 1844 فإن "دي لاري" أرسل بكتاب إلى السلطان يُثمن فيه طرح الجنرال "بيجو" جاء فيه: « وسبب الفساد الواقع بين الدولتين إنما نشأ عن حلول **الحاج عبد القادر** بقرب الحدود، ولا يخفاكم أنه **أصل كل فساد** وعنه ينشأ، **وبفساده** تنقضي المحبة المعقودة بين الدولتين، وهو نازل الآن في بلد قلْعية وتروهم في ضيافته وإعانته هو وسائر دائرته »،[2] ولم يكتف بهذا الطرح بل تعدى ذلك إلى وصف عبد القادر بصفات ذميمة كما طعن في صحة جهاده بقوله: « وما ذلك إلا من كذبه على القبائل

---

1 – أحمد، العماري: **مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب (1830–1902) –من خلال رحلة علي السوسي منتهى النقول– مساهمة في محاولة إبراز أهم المؤثرات التي تحكمت في توجيه تاريخ المغرب من خلال مواجهة التغلغل الإمبريالي في القرنين التاسع عشر والعشرين**، رسالة ماجستير، ج، 1، 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1982، ص471.

2 ابن زيدان، عبد الرحمن: **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المصدر السابق، ص–ص 169–171.

بالتمربيط والجهاد يختلهم به بلا طاقة وفقه . **هذا كذب محض**، يزعم أن ليس غيره آمر بالدين والجهاد إنما سعيه هو إفساد رعية المغرب، وهذا الحال لا يخفى على سعادتكم، وفيه خطر كبير للدولتين »[1]

ونظرا لطلب فرنسا المتكرر على السلطان بضرورة إرسال سفارة مغربية إلى فرنسا، قصد تثمين العلاقات الثنائية بينهما، فإنه كلف عبد القادر أشعاش بهذه المهمة الصعبة، ولقد أشار السلطان للأمير عبد القادر في كتابه إلى سفيره بقوله: « وأخبرت بالضالة المنشودة والحسنة المقصودة وهو بمجرد وصوله يسرحون ما عندهم من أسارى (كذا) المسلمين وربما يبطلون **شرط الحاج عبد القادر ويريحون من الكلفة به** ».[2]

ونظرا لحاجة الأمير الماسة إلى دعم أهل فقيق له فإنه كاتبهم طالبا منهم الدعم والمساندة فكان جوابهم له والذي ضمّنوه: « أيد الله مقام **أمير المجاهدين الحاج عبد القادر بن محي الدين**... فليكن في كريم علم سيدنا أنا قد أجبناك مع الرسول الأول، وسبب تخلفنا عنك، عدم الأمان فيما بيننا والآن قد منّ الله تعالى بالملاقاة مع جيراننا، واتفقنا عل نصرة الدين وجهاد الملحدين »[3]. ولم يكتف الأمير بذلك بل كاتب النخبة المغربية من وزراء وعلماء وأولياء يطلب

1- **المصدر نفسه**، ص،171

2- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة 17 وثيقة رقم 09، رسالة من السلطان إلى بوسلهام في تاريخ 22 جمادى ثانية 1261هـ/ 28 حوان 1845م. وكذلك أحمد، مزيان: **مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي خلال القرن 19 فقيق ما بين** (1845-1903)، ج، 1، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1985، ص126.

3- **المرجع نفسه**، ص126.

منهم الوقوف إلى جانبه، ومثال ذلك ما كتب به إلى الشيخ الجليل سيدي محمد الخراق، ولقد أشار محمد داود في كتابه قبل كتابة الرسالة إلى الأمير بقوله رسالة من **المجاهد الكبير الحاج عبد القادر** بن محي الدين ومما جاء فيه: « الفقيه الأرضى والخلاصة المرتضى الشيخ الإمام قدوة أهل الإيمان والإسلام شيخ الشيوخ سيدي محمد الخراق...وبعد فإنا نعلم أنك وجميع المومنين متهولون من أمرنا مع الكفار، منتظرون ما يرد علكم من عندنا من أخبار».[1]

لم يتوان السلطان في الرد عن كتاب الأمير هذا؛ إذ سرعان ما ضمّنه الجواب الآتي: « إن **الحاج عبد القادر الحشمي** قد لزمكم في كتابه بأكبر التشريفات والتلزيمات بماذا تواجبونه في هذا الأمر ونحن أهل المغرب الأقصى لا يطيق حاضرنا وبادينا وسائر أهل نادينا على شيء من غير المهادنة على أنفسنا وأولادنا وما لنا وبلادنا، فلا نطيق على إعانتكم لا بنفس ولا مال ».[2] وبشأن طلب الفرنسيين حول إمكانية تدخل السلطان لإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذي هم بحوزة الأمير كاتب السلطان سفيره عبد القادر أشعاش بما نصه:« وما ذكرت على شأن ما طلب قونصو الفرنصيص من أمرنا الشريف لبني يزناسن بالوقوف في فك أسراهم الذين عند **الحاج عبد القادر** ودائرته إلى

---

1 –محمد، داود: **تاريخ تطوان**، المجلد السادس، ص–ص، 370–371.

2–المزاري، الآغا ابن عودة: **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا على أواخر القرن 19**، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، ج، 1، 2، ط، 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص، 226.

اليوم ولو كانوا هم والدايرة عند الأمر ما أبقينا أسيرا عندهم »[1]. وإذا أجرينا رصدا لوَقْع الأمير في هذه الكتابات التي مرت بنا فإننا نجدها على النحو الآتي:

الصيغة التي ورد فيه الأمير	عدد المرات	الصيغة التي ورد فيه الأمير	عدد المرات
عبد القادر	02	محل الولد البار	02
الحاج عبد القادر	18	الخليفة	01
المجاهد عبد القادر	04	الأمير عبد القادر	01
السيد عبد القادر	04	أمير المجهدين	01
الشيخ سيدي عبد القادر	01	المجاهد الكبير	01
الأحضى والأرضى	01		
		المجموع	**36**

وخلال استقبال السلطان للمبعوث الفرنسي "ليون روش" خلال شهر نوفمبر1845 صرح أمامه بشان الأمير: « أكّد لجنسك بأنني أعتبر **عبد القادر أكبر أعدائي** وبأنني سأعامله على هذا الأساس ولكن قلبي رحيم، وإذا جاء إلي فإنني سأستقبله وأسامحه».[2] وللتعبير عن موقفه هذا بادر بإصدار أوامره إلى عماله بالمغرب الشرقي لتنفيذ سياسة المخزن بشأن طرد الأمير من التراب المغربي حيث جاء في أحدها:« وما يطلبون من طرد **الحاج عبد القادر** من ايالتنا السعيدة فتحمّل لهم به وقل لهم إن فلانا قد أمر بطرده المرة بعد المرة وكرر الكتب بذلك لعماله وبعدما بلغه أنه فرّ لطرف جبل لا تنال أهله

---

1 - وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: العلبة رقم 18، الوثيقة رقم 345، رسالة من السلطان إلى عبد القادر أشعاش في تاريخ 16 رجب 1262هـ/ 10 جويلية 1846.

2 - جلال يحي وآخرون: **مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية**، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص، 241.

الأحكام بطرف الايالة أعاد الكتب بجدّ في طرده، حتى لا يبقى له حس ولا أثر بهذه الايالة ».[1]

ومع استمرار تواجد الأمير بالمغرب الشرقي ومناصرة قبائل الناحية له، كاتب السلطان عامله بوسلهام بشأنه بما نصه: « إن **السيد عبد القادر نقض ما كان عاهد الله عليه من عدم إحداث شيئ في جانب أعداء الدين إمضاء للصلح الذي أبرمناه له، وقد رام استهواء تلك القبائل وما ولاها** »[2]، ثم يأمره فيها بتجهيز الجيش لطرده: « فبوصول كتابنا هذا إليك عَيِّن مائة فارس من الجيش الريفي تنهض صحبة خديمنا القائد محمد بن عبد الصادق بقصد نقض ما يبرمه وحل ما يعقده مع تلك القبائل».[3] ولم يكتف السلطان بهذا الطرح بل دافع عن وجهة نظره أمام عماله وقواد جيشه قائلا: « وإنه ليس مراده الجهاد **وإنما مراده إثارة الفتنة والفساد فيعامل بنقيض مقصوده**، وكنا أردنا الفراق معه على وجه جميل حيث آوى إلينا وحط رحاله لدينا **فإذا به سوّل له شيطانه ما فيه هلاكه وخسرانه**»[4].

---

1 وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم14 وثيقة رقم 24 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 11رجب1260 هـ/27 جويلية1844.

2- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم15 وثيقة رقم 38 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 22محرم1261هـ/ 31 جانفي1845م.

3- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم15 وثيقة رقم 38 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 22محرم1261 هـ/31 جانفي1845م

4 -وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم15 وثيقة رقم38 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 22محرم1261 هـ/ 31 جانفي1845م

أما ممثل السلطان بوسلهام فإنه أجاب الفرنسيين بشأن الأمير خلال شهر فيفري 1845، بما نصه:« إنكم تذكرون لنا فيما يتعلق **بالشيخ سيدي عبد القادر**، إن هدفه هو **التآمر ومحاربة هذه السلطنة السعيدة** إن مولانا السلطان قد أظهر نياته ورغباته في أن يطرده من بلاده إذ أنه هو السبب في سوء التفاهم الذي يسود بين دولتكم وهذه السلطنة السعيدة »[1].

ونظرا لكثرة المراسلات والبعثات الفرنسية باتجاه السلطان لإجباره على اتخاذ موقف صارم تجاه الأمير، نجده يكتب إلى عامله بوسلهام في شأن الأمير بتاريخ 08 جوان 1845، ما نصه: « وأما **الحاج عبد القادر** فأجبه [المبعوث الفرنسي] بأنا لسنا عنه بغافلين ولا بأمره متهاونين ومنازعته اليوم معنا أكثر من منازعته معكم ونحن نرتقب في آمره من السياسة وحسن التدبير ما يحسم مادته إن شاء الله ونحن أحرص الناس على أمره **وأعرف الناس بخداعه ومكره** ».[2]

وقصد إضعاف نشاط الأمير لدى القبائل المغربية المتحملة له أقدم السلطان خلال شهر اكتوبر1845. على توجيه رسائله إلى هذه القبائل وخص بالذكر بني يزناسن وأنكاد وما جاء في أحدها بخصوص الأمير نذكر:« وما مراده إلا إثارة الفساد وجلب الشر والفتنة للمسلمين كما جلبها لإيالة الجزائر وغيرها

1- جلال يحي وآخرون: **مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية**، المرجع السابق، ص: 225.

2-وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة 17 وثيقة رقم01 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 2جمادى الآخرة 1261 هـ / 08 جوان 1845م

فأوقعهم في الكفر وانقادوا بسببه لاستيلاء الكفار وأسلموا أنفسهم لأحكامه، وعاد عليهم شؤم فعله بالدين»[1]

ثم سرعان ما يحاول الطعن في صحة جهاده بقوله: « وقد خدعكم بإظهار الدين وأحوال الصالحين وما في ضميره إلا الفساد وإيقاد الفتنة بين العباد، ونحن لا نكره الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الإسلام، ولكن هذا المشئوم أراد نقض ما أسسناه من الصلح الشرعي وإيقاد الفتنة بعد إطفائها، سعيا في هضم جانب عزكم وإفساد دينكم ودنياكم، وتكدير خاطرنا عليكم وأنتم لا تشعرون».[2] ويختم رسالته بالدفاع عن هذا الصلح المعقود مع العدو الفرنسي –اتفاقية 1845– قائلا: «ولو رأينا الخير للمسلمين في غير الصلح ما ارتكبناه فلا يفيدهم إلا ذلك، فاسألوا أهل العلم وما ورد في صحيح البخاري ومسلم في فضل الجهاد وأحكامه والصلح وأقسامه، ليعلم حال عبد القادر وجهله بالسنة وغيرها وان من تبعه فقد باء بالضلال وحاد عن شريعة الهدى».[3]

ورغم الانتصارات التي حققها المجاهدون الجزائريون عبر منطقة التخوم فالسلطان حاول التقليل من شأنها، وهذا ما نلمسه في خطابه إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 31 أكتوبر1845م حيث جاء فيه: « نسأل الله أن يدمر الكافرين، ويجعل كيدهم في نحرهم **ويكفينا أمر هذا الفتان الذي كلما خمدت نيران**

1– الجزائري، محمد بن عبد القادر: **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، المصدر السابق ص –ص 487 –489.

2– **المصدر نفسه**، ص –ص 487 –489

3 –**المصدر نفسه**، ص– ص 487 –489

الكفر أوقدها وجر الوبال للمستضعفين».[1] ثم سرعان ما يفسر موقفه هذا بقوله: « فإنا نحب نصر الإسلام وظهور أهله على عبدة الأصنام، ولا نكره ما يحل بهم، ولكن على وجه لا يكون لهم معه انتصار ولا يتأتى لهم به دفاع ولا أخذ ثار، **فإن الحاج عبد القادر إنما يصطاد الغرة ويخطف ما قدر عليه، ويترك المستضعفين في الوبال مع عدو الدين ويجر الفتنة لهذه الايالة أراح الله منه البلاد والعباد»**[2]

وفي كتابه إلى ولي عهده بتاريخ 14 جانفي 1846، كتب بشأن جهاد الأمير ما نصه: « الحقيقة هي خلاف هذه الادعاءات **فهو لا يقود غير عصابات خرقاء ... إنه يقود حثالة من صعاليك القبائل الشرقية التي ملأ بها بلادنا سهولا وجبالا**، بينما ينتظر النصارى نهاية الخريف لا يعبئون به »[3]. وفي أواخر شهر جانفي 1846 وبعدما استقبل السلطان سفيره العائد من باريس قال له: « **أقسم بأنني سأطرد عبد القادر، سأقبض عليه أو أقتله**، ولن أتردد بعد اليوم بين مسلم عدو لي ونصارى أصدقاء ».[4]

1- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم17 وثيقة رقم38 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 29ذوالحجة 1261هـ 31 أكتوبر 1845م.

2- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم17 وثيقة رقم38 رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي بتاريخ 29ذوالحجة 1261هـ 31 أكتوبر 1845م.

3-Hamet: Ismail: .op .cit;p,p 76 78

4- إبراهيم ياسين: **موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر**، المرجع السابق، ص: 353.

وعلى اثر عودة الأمير من جديد إلى المغرب الشرقي أواخـــر شهر جويلية 1846، شددت السلطات الفرنسية على السلطان بطرده والعمل على إخراجه من المغرب؛ فكتب السلطان إلى عامله بتاريخ خلال الشهر نفسه بما نصه: « فأعلم أن هؤلاء بني يزناسن ومن يليهم لو كانت فيهم استقامة تامة وحسن طاعة، ما تأخر إخراج **الحاج عبد القادر** ودائرته إلى اليوم، لأنهم جاءوا في الحدود مع وعر جبالهم وهم الحامون للدائرة المذكورة، **وقد ألقـــى إليهم الحاج عبد القادر من ترهاته ما سحرهم به حتى ظنوه على الحق**، وسرى ذلك منهم فيما وراء تازة من القبائـــل»[1].

ونظرا للضغوط المتنامية من السلطان تجاه الأمير اتصل هذا الأخير خلال شهر ماي1847 بالشيخ حمدون عبد الرحمان الكرومي لكي يخبر ولي العهد بفاس باستعداداته للخروج نحو الصحراء؛ وقد أشار إلى هذه الرسالة السلطان في رسالته إلى ولي عهده بتاريخ 20 ماي 1847 ومما جاء فيها بشأنه: « **إن الفتان وعد بالخروج إلى الصحراء على شروط أشار إليها**، والتزم ابن عبد الرحمان بذلك ».[2] إلا أن السلطان قابل طلبه بالرفض المطلق فيما نصه: « فقد كتبوا بوعده الخروج المرة بعد المرة، ولم يف لهم، **وأظن أن هذا من حيلة ومكيدة، وأنه يحاول أمرا ينتظر تمامه** ».[3]

1- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط: علبة رقم 18، وثيقة رقم 35، رسالة السلطان إلى عامله بتطوان عبد القادر أشعاش بتاريخ 16رجب 1262هـ / 10 جويلية1846.

2-Hamet‹ Ismaïl: ,.OP,cit,p,92

3-Hamet‹ Ismaïl: op,cit,p,92

ونتيجة للمكانة التي حضي بها الأمير لدى قبائل المغرب الشرقي، ونظرا لصعوبة إخراجه من وسطهم كتب السلطان إلى ولي عهده بفاس كتابا خلال شهر أوت 1846 يأمره فيه بالاستعداد لتقليص نفوذ الأمير ووضع حد لمطالب الفرنسيين بشأنه: « أما بالنسبة إليكم فاستخدموا كل مجهوداتكم ضد **المهيج**، واستخدموا كل نشاطكم لوقف تحركات وعمليات أعوانه في هذه المنطقة... **إذ أنه أظهر حقدا مميتا لحكومتنا، ويبحث عن الفرص لمضايقتنا، ليخلصنا الله برحمته من هذا الرجل ويفسد أعماله**»[1]

ولترجمة هذه الرسائل إلى وقائع ميدانية أرسل بتعليمات إلى النواحي الشرقية يأمرهم فيها بالتحرك ضده؛ ومن أهمها خطابه إلى ولي عهده بتاريخ 23 سبتمبر 1846 الذي جاء فيه: « **ولا تقصر في تحريض العمال المقابلين والقبائل على تعجيل هرده وأخذه وإبطال كيده**، وضعف لهم أمره وقلل فايدهم في العجز عنه..**وذكرهم عاقبة مكره وما يضمر من نكده** ولا تالوا جهدا في ذاك (كذا) حتى يأخذه الله **ويرد كيده في نحره ويجعل دايرة سوء (كذا) عليه، فإنه أعدى أعداء المسلمين، وفتنته أكبر عليهم من فتنة المشركين**».[2] ولم يكتف السلطان بذلك بل واصل في خطاب آخر له إلى ولي عهده بتاريخ 05 ديسمبر 1846 ما نصه: « فقد كنا نظن إعانته وإيواءه إعانة للإسلام والمسلمين، **فإذا به أعدى أعدائهم ومن خدعنا بالله انخدعنا له فلا بد قف في التحريض على**

1–Hamet Ismaïl: op. cit. p. p. 76-78.

2–Hamet Ismaïl: op.cit p. 87..

السكان ولا تقصر حتى يريح الله منه العباد وينقطع أمره في تلك البلاد والسلام»[1]

وانطلاقا من شهر ماي 1847 عادت الكثير من القبائل المغربية لمساعدة الأمير[2]، في الوقت الذي نشب فيه صراع بين قبيلتي الزمور وبني مطير، فتخوف السلطان من أن يستغله الأمير لصالحه، فكتب إلى ولي عهده بتاريخ 17 ماي 1847 يحثه فيه على إطفاء نار الفتنة التي سببها الأمير في نظره، وضرورة تجاوز الصراع بين القبيلتين في قوله: « **ونحن نراعي أمر الفتان الحاج عبد القادر**، فقد بلغنا استفحال أمره، وانتشار ضره، ونريد من يسعى في أمر الألفة والجماعة ما أمكن، ليكون ذلك عونا إلى ما نحاول من اجتثاث أصله، **وحسم مادة فساده**، ولا شيء أعون على ذلك من صلاح القبائل واستقامة خدمتها»[3]

ولم يراع السلطان طلب الأمير للمرة الثانية بشأن خروجه نحو الصحراء؛ حيث رفض طلبه ووصفه بوصف شنيع ودليل ذلك ما جاء في كتابه إلى ولي عهده بتاريخ 1 جوان 1847 « **وخبر الشيطان عبد القادر كنا قدمنا لسيدنا، وهو أن أمره اضمحل وعزم على الخروج للصحراء، وجعل يُقدم ضُعفاء دايرته أمامه** وارتحل من المطالسة إلى بني تزين (كذا) ومنهم إلى ما بين بني

1-Hamet، Ismaïl: op,cit p 89.

2 – كبادنة، المطالسة، بني توزين، قسم من قليعة، بني يزناسن...الخ.

3 – إبراهيم ياسين: **موقف الدولة الغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر**، المرجع السابق، ص 389

وليشك وبني سعيد، يوهم أنه يخرج لصبرة ومنها إلى الصحراء وقبايل الناحية التي هو لها شاع فيهم النفاق ».[1]

ولتنفيذ هذه الخطة المخزنية تم تزويد جيش القائد محمد ابن سالم الأحمر بألفين من فرسان المخزن والحاج الوليشكي – قائد بني وليشك – بخمسمائة فارس وأربعمائة جندي؛ ثم توجيه الأوامر بالتحرك تجاه الأمير: « فجد في أمره وحرض الأحمر على الجد في اجتثاث أصله والسعي في محو شره...**وليتحرز من مكايد (كذا) الفتان وخداعه ويجد في طرده وإبعاده ويقابله في تلوناته بما يبطل سحره فإنه أقوى منه كيدا وأطول منه في الدهاء** ».[2] وبعد اندلاع المعركة بين الأمير والقائد الأحمر الذي لقي حتفه فيها، وتفرقت الجيوش المغربية شذر مذر، تكون الأمور قد ازدادت تدهورا وأصبحت صورة الأمير قائمة جدا في أذهان المغاربة.

لقد وصل الخبر بهزيمة جيش المخزن وقتل القائد الأحمر؛ إلى السلطان يوم 18 جوان 1847 وهو بمراكش، فكتب إلى ابنه يصف له هول ما حدث: « **وعلمنا ما صدر من الغادر الناكث عبد القادر أهلكه الله بقدرته وأخذه بحوله وقوته**».[3] ولم يكتف بهذا الوصف والموقف بل اعتبر الواقعة كارثة جديدة حلت بالمغرب: « وقد كانت واقعة النصارى بوجدة أخف لأن النصراني فعل

1- Hamet ،Ismaïl: op ،cit p. 95

2–Hamet، Ismaïl: op. cit.p97

3- Hamet ،Ismaïl: ،op ،cit ،p 99 .

ما فعل ورجع أدراجه **وهذه الواقعة هي الطامة لظهور هذا الشيطان المتلبس** »[1]

وفي جواب السلطان عن رسالة ولي عهده المؤرخ في 5 جويلية 1847 حاول أن يبرر له قتل القائد الأحمر في قوله: « وأخبرت أن الأحمر هو الذي استعجل الأمر قبل أوانه واستبد برأيه حيث رءا بعض الضوء **ووهن الفتان** وإنما أفسد عمله فرار من معه »، ثم يوضح له موقفه من الأمير: « **إنا كنا نظن أن الشيطان لا يبلغ به مثل هذا المبلغ حتى يتمحض للعناد ويفسد دينه بما ارتكب من الإفساد فإنه استفزه الشيطان للظلال وأوقعه في هوة الوبال والخبال** »[2]

وخلال تصادم الأمير مع قبيل القلعية يكون السلطان قد تطرق إلى هذه الواقعة في رسالته إلى سيدي محمد بتاريخ 21 جويلية 1847، والتي جاء فيها: « **وعلمنا ما ارتكب الفتان أهلكه الله** من نزوله على قلعية حتى ردوا ما كانوا نهبوا لأصحابه ووظّف عليهم الزغيرة زيادة على ذلك»[3]

وبخصوص قبائل الحشم التي كان قد كاتبها الأمير بالالتحاق به، فإن السلطان كتب بشأنهم إلى ولي عهده في 18 أوت 1847: « وأنظر ما نتج من

1- Hamet ‹Ismaïl: op ‹cit ‹p 99

2- Hamet ‹Ismaïl: op ‹cit p 102-103

3- Hamet ‹Ismaï: ,op,cit,p106

كثرة الإرجاف وإلقاء الرعب في القلوب مما سودوا به الصحائف وطولوا وهولوا وخوفوا من أمر **الفتان** وأنه قادم لتازة لا محالة »[1]

ولتثمين مجهودات المخزن توجه السلطان نحو فاس، ولما وصل إلى مكناس يوم 2 أكتوبر كتب إلى ابنه، وأمره أن يهيئ كل ما يحتاج إليه في حملته على الأمير...وذكر بخصوص الأمير ما نصه: « **والنظر فيما ترتكب في تدمير الفتان و أنت بفاس**، ورتب الأمور التي تحتاج إليها وتخاف تراخيها ولا تظهر حتى ترتب الأمور وتهيئ الأسباب »، وأمام هذا الواقع الذي أصبح عليه الأمير أقدم على مكاتبة الشرفاء و الأعيان خاصة منهم أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم، حيث طلب منهم التوسط له عند السلطان؛ ومعلنا لهم عن استعداده لقبول شروطه. فتقابل وفد منهم مع السلطان خلال شهر أكتوبر وعرضوا عليه الأمر فكيف كان جوابه بشأنه؟.

لقد كان جواب السلطان شديد اللهجة ومما جاء فيه: « **إنه لم يعد مسلما حقيقيا ذلك الذي غدر بمضيفه** بعد أن طلب ضيافته، و لم يعد مسلما حقيقيا ذلك الذي لم يكتف بعصيان أوامر أمير المؤمنين بل تصرف كسيد في ايالته ... **إنه فتان يجر وراءه ذيلا من النار والدم حيثما مرّ، ولا أريد أن أسمع شيء من زنديق، وشعلة من الشقاق**، وإذا أراد تجنب مصائب جديدة فيترك ايالتي ويرحل إلى مكان آخر ... إن أحدنا فقط هو الذي يجب أن يحكم

---

1 -إبراهيم، ياسين: **موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر** 1830-1847، المرجع السابق، ص، 406.

في ايالتي»[1]

وخلال يوم 13 ديسمبر 1847 يكون الأمير قد انسحب شرقا على الضفة اليسرى لنهر ملوية. وبالذات نحو منطقة زايو قرب مصبه؛ وقصد احتواء هزيمة الجيش المخزني أمام الأمير كاتب السلطان كل من قبائل الأنجاد وبني يزناس للعمل ضده والوقوف في وجهه: « **أنظروا ما تكرر على أسماعكم من وقائع غدره، و مارمى به المنحاشين إليه من ظلمه وضره، فقد كاد أن يزلزل يقينكم، ولو ساعدتموه لبدل دينكم إنه عدو مضل مبين فتيقظوا لدسائسه وأصرموا حباله ومن معه وأخرجوهم و ضيقوا عليهم**»[2]

وعلى إثر تسليم الأمير للجيش الفرنسي، فإن هذا الحدث قد كان له وقع خاص في المغرب، وخاصة على المستوى الرسمي، وقد لا يسعنا الحديث عن هذا الوقع بشكل كبير، ولذلك سأكتفي بالإشارة إلى وثيقتين رئيسيتين حول الحدث: الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة كتبها السلطان إلى أحمد بن المحاطية بتاريخ 30 ديسمبر 1847. معتبرا أن ما حدث هو فتح وانتصار عظيم للمغرب؛ ونص ما جاء فيها حول الأمير: « **الفاسد الفتان وخليفة الشيطان**، أبعد في الجسارة وامتطى مطي الخسارة ...وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام ....واستبطن المكر والخداع وفاق فيه عابدي وُد وسُواع ...وهو في خلال ذلك يُظهر مظهر يستهوي بها أهل الجهالة والعماية والضلالة. فآيسنا من رشده، وعرفنا مضمر قصده، فجهزنا له

1- المرجع نفسه، ص 415.

2 –ابن زيدان، عبد الرحمن: **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المصدر السابق، ص– ص 63 – 64.

محلة منصورة ذات أعلام منشورة فكانت الكرة عليه واستدبر المعركة وهام وعادت جموعه جمع تكسير وجيوشه موزعة بين قتيل و أسير»[1]

أما الوثيقة الثانية فهي عبارة عن رسالة كتبها أحمد بن بومهدي الهواري إلى السلطان بتاريخ 23 جانفي 1848م، ومما ورد فيها بشأن الأمير: « ورد علينا من حضرة مولانا ما فتح الله به على المسلمين من رد **الفاسد الفتان وخليفة الشيطان** على كيده، وبارت تجارته وباء بالخسارة **واتضح للمسلمين ضلاله**، فحصل بالقطر من السرور والفرح ونشر الأعلام ما أدهش العقول وأنعش الأفهام...فقد تلطف خليفة مولانا ونجله حتى استظهر ما استبطنه **الخدّاع** من متابعة حزب أهل ود وسواع؛ فصار من هذا عرش الملك في أعلا عز وفاق »[2].

هذه خلاصة بعض ما تم جمعه من وقع الأمير عبد القادر في بعض الكتابات المغربية خلال المرحلة الأولى، أما وقْعه في الكتابات المغربية الحديثة والمعاصرة فيمكن تتبعه من خلال ذلك التحامل على شخصه، على أساس أن الأمير كانت له أطماع في العرش المغربي، فهناك الكثير من الباحثين المغاربة الذين يشاطرون هذا الرأي، فكيف كان وقع الأمير في كتاباتهم؟ يمكن تتبع ذلك من خلال النصوص الآتية:

---

1 – Hamet‹ Ismaïl: op. Cit. p.118l le 22 moharrem 1264 h.

2– Hamet‹ Ismaïl: op.cit. p.121 le 16 safer 1264 h.

1- إبراهيم، حركات: « بدأ يدعو لنفسه في مناطق الشمال التي تميزت عبر تاريخها الطويل و في فتراته بأن تنظر بحذر إلى السلطة المركزية».[1] فهو منازع لملك السلطان في نظره.

2- أكنسوس: « وبرقت له بارقة ...وجاوز حده، **حتى أنه من فرط جهله طمع في ملك الغرب–كذا– كله**، وكان يصرح بذلك جهارا ويظهره في محافله إظهارا ».[2] ولكن حسب ما هو معروف عن الأمير انه لم يكن جاهلا البتة، بل كانت كل قضاياه ومشاريعه المستقبيلة تخضع لاستشارة فقهية لدى الكثير من العلماء والفقهاء، فالأمير كان وقّافا عند حدود الشرع، أما مسألة طمعه في الملك، وإعلانه عن ذلك جهارا ونهارا؛ فهو موقف غريب لم نعثر لحد الآن على وثائق تثبته.

3- الناصري: « وانه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب، فلما كانت هزيمة ايسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته، وكاتب الخواص من أهل فاس و الدولة و كاتبوه على ما قيل».[3] وللعلم فالأمير بعد هذه الموقعة التي لم يشارك فيها، دخل إلى الجزائر وخاض عدة معارك ضد العدو الفرنسي. ثم دخل المغرب من جديد مع مطلع سنة 1846، وبخصوص الرسائل والكتب ؛فإنني لم أعثر على هذه الوثائق التاريخية التي بعثها إلى الخواص من الدولة وأهل فاس. وكذلك إجاباتهم على رسائله.

1- المغرب عبر التاريخ، ج، 3، ص 211

2– الجيش العرمرم، ص 221

3- الاستقصاء، ج، 9، ص 56.

4- اسما عيل مولاي: « يرى أن **الأمير عبد القادر قام بالثورة ضد المغرب**».[1] فهو ثائر على حد تعبيره.

5-أبو العلا إدريس: « فبعد أن زحف **الأمير عبد القادر** لهذه الايالة مستنجدا أهلها وطالبا مالها، ففتنه أعرابها و أنا موه في فرش الغرور وقربوا له القواصي القاصمة الظهور، فما له و مبارزة سلطانه الذي أعلن بمبايعته».[2] فهل يمكن القول حسب أب العلا ادريس أن الأمير تعرض إلى هذه الفتنة، وهي فتنة المُلك التي نفاها تماما عن شخصه.

6-قدور بن علي البشير: « وعقب هذه الكارثة – وقعة ايسلي- أخذ الغرور يتعاظم في نفس **الحاج عبد القادر** فأظهر الانقضاض على المغرب ...و لكن المولى عبد الرحمن قد تفطن للخديعة، فكانت بينه وبين **الحاج عبد القادر** وقعة التسول التي أفشلت طابوره الخامس ».[3] فهو حسب تعبيره مغرور، فعلى أي أساس نشأ هذا الغرور، وهو الذي رفض ما جاءه من بعض المغاربة يطلبون منه التولية عليهم، احتراما وتقديرا منه لسلطان المغربي.

7-قدور الورطاسي:« أما رابعة المصائب فتتجلى فيما ساور الحاج عبد القادر من أطماع في الاستيلاء على المغرب ».[4] فهو حسب تعبيره بالرجل الطموح والطموع في الملك[1]

1- تاريخ وجدة وانكاد في دوحة الأمجاد، ج 1، ص، 146.

2 -الابتسام عن دولة ابن هشام: ص 429.

3- بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني، ص، 76.

4 -أربع سنوات مع جبهة التحرير الجزائرية، ص، 62.

8-بن عبد الله، عبد العزيز: «وتتحدث مصادر مغربية-دون أن يشير إليها- عن طموح الأمير عبد القادر بعد هزيمة ايسلي إلى **احتلال** المغرب ومكاتبة فاس وزحفه إلى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس، ولعل الأمير إنما أراد أن يتخذ من المغرب الشرقي قاعدة لعملياته العسكرية، **ولكن حركته اتسمت بشكل احتلال** مما اضطر السلطان إلى بعث وده محمد على رأس جيش قوي لصد هذه الغارة »[2]

وإذا أردنا تقديم حوصلة لما ورد في الوثائق السابقة بخصوص الأمير، من خلال الجدول التالي:

الصيغة التي ورد فيه الأمير	عدد المرات	الصيغة التي ورد فيه الأمير	عدد المرات
الفاسد الفتان خليفة الشيطان	02	الفاسد	06
المُخدع	03	الأمير	01
الماكر	02	الفتان	15
العادر	02	الزّنديق	01
الظالم	01	شُعلة الشقاق	01
المُضر	01	المُتغلب	01
المُتنمس	01	المَكيد	01
عبد القادر	02	الشيطان	04
الدّاهية	01	الساحر	03

1 -للمزيد من الإطلاع أكثر على هذه المسألة يراجع ما كتبناه في العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان 1833-1847، في سلسلة كراسات البحث، ندوة علمية، **مبايعة الأمير عبد القادر**، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، 2005، ص-ص، 151-215.

2- بن عبد الله، عبد العزيز: **تاريخ المغرب العصر الحديث الفترة المعاصرة**، ج، 2، مكتبة السلام ومكتبة المعارف، الدار البيضاء، المغرب، دون تاريخ. ص-ص، 58-59.

عدو المسلمين	02	المهيج	01
الطاغية	01	الحقود	01
الناكث عبد القادر	01	الجاهل	01
الضعيف	01	المُتحرِّف	01
المشئوم	01	المحتل	01
المجموع	21	المجموع	38

وإذا أردنا وضع هذه الكتابات في سياقها التاريخي، فإن الكتابات الأولى يمكن القول عنها أنها أنصفت إلى حد ما الأمير، وراعت مكانته الروحية والعسكرية، بينما الكتابات الأخرى لم تنصف الرجل حقه، بل أعطت صورة قاتمة عنه، وخاصة كتابات المخزن التي دارت بين السلطان وولي عهده، وفي الرسائل التي تم إبلاغها للفرنسيين من جهة والبعض الآخر إلى جل القبائل المغربية المناصرة للأمير من جهة أخرى. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا هذه الكتابات؟ وهل أصحابها هم على قناعة تامة بما كتبوه حول الأمير؟ وهل هذه الكتابات كانت نابعة من ذاتية صاحبه أم وقعت تحت وطأ بعض العناصر الدخيلة عن المغرب؟

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات تبدو من الصعوبة بمكان، نظرا لغموضها وتناقضها في كثير من الأحيان؛ لأنه لا يمكننا أن نجمع بين شيئين متناقضين في وقت واحد، كأن نراسل شخصا ما نمدحه في مطلع الرسالة؛ ثم نلومه ونوبخه في أخرها. ولنبدأ حديثنا عن الكتابات الأولى التي ثمنت جهاد الأمير. فإذا كان السلطان المغربي وضع الأمير في مرتبة الولد البار، وأغدق عليه الكثير من العبارات التي تعلي شأنه، فإن هذا ما كان يقتضيه الواجب الديني والأخوي والأخلاقي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فالسلطان يمكن القول

عنه أنه تعامل مع الأمير في البداية على أساس أنه خليفة عنه في الغرب الجزائري، وأنه بايع السلطان بيعة شرعية تقتضي من هذا الأخير القيام بواجبه، وهذا ما تؤكده بعض الوثائق التاريخية. إلا أن ما يعارض هذا الطرح هو نفي السلطان نفسه لهذا الطرح في أحد رسائله إلى الفرنسيين؛ ولكن بحكم شخصية السلطان وإجاباته الدسمة على الفرنسيين يجعلنا نعتبر هذه الرسالة مجرد تمويه وتهرب من مطالبة الفرنسيين له بالكف عن مساعدة الأمير.

ومن جهة البلاط المغربي والعلماء والفقهاء المغاربة الذين تعامل معهم الأمير، فإن هؤلاء قد عرفوا حقيقة الرجل فقدروه حق تقدير، وعلى رأس هؤلاء الفقيه التسولي وقاضي القضاة عبد الهادي العلوي، ومحمد بن إدريس شاعر البلاط، ومحمد غريط والكردودي وغيرهم؛ والطاهر بن جلون ممثل الأمير لدى المخزن، وشيخ الصوفيين سيدي محمد الحراق، والشيخ أبو عبد الله اليفرني، وحتى ولي العهد سيدي محمد. فكل هؤلاء ذكروا الأمير من زاويته الجهادية ومن عظمة شخصيته التي جمعت بين أشياء كثيرة، والغريب، في الأمر أن الكثير من هؤلاء لم ير الأمير رأي العين وإنما سمع عنه فقط، ولكن رغم ذلك فإنهم أنصفوه حق الإنصاف، وسبب ذلك أنه لا يعرف أهل الفضل والعلم والحكمة إلا أصحابها.

أما ما جاء في الكتابات الصادرة عن السلطان والبعض من حاشيته، فإننا قبل الحديث عنها نسجل نوع من التراجع في الموقف الرسمي المغربي تجاه الأمير، فوقع هذه الكتابات يكون قد شذب وألغى ما قبله من عبارات الود والمجاملة، وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى حد وصف الأمير بصفات ذميمة وقبيحة ومشينة، بل تعدى الأمر ذلك إلى درجة الطعن في صحة جهاده

وفي أهدافه وحتى في نيته، وإلى تقديم أحكام قاسية ومجحفة في حقه. وما يمكن ملاحظته حول هذه الكتابات والتي إذا أرّخنا لها وجدناها تبدأ مع سنة 1843. وهي تتشابه إلى حد ما مع ما تم طرحه من طرف المفاوضين الفرنسيين في الرسائل التي تبادلوها معه ومع حاشيته بشأن الأمير.

فالجنرال "بيجو" والكثير من الدبلوماسيين والمفاوضين الفرنسيين هم أول من دشّن هذه السياسة القائمة على النيل من شخصية الأمير، ودليل ذلك ما ورد في كتاباتهم ورسائلهم إلى السلطان ورجال بلاطه، وسأكتفي بالإشارة إلى وقْع الأمير في بعض هذه الرسائل لمقاربتها بما كُتب عنه من الطرف المغربي، ويمكن تقديم عينة من هذه الرسائل في ما يلي:

-رسالة الجنرال "بيجو" إلى ضباطه وأعوانه، والتي وضّح فيها خطر الأمير على المغرب؛ ومما جاء فيها: « ولا يخفى ما انطوت عليه قلوب المغاربة المراكشيين من المحبة والتشيع له، حتى لأنهم يودون أن يكونوا تحت طاعته وإدارته».[1]

-رسالته أيضا إلى القائد الكناوي حيث وصف الأمير له بما يلي: « إن رجلا لم تكن له خدمة غير أنه سعى في الفساد بين الفرنصيص والمغرب وسبب تخليطه جذبكم نحو عامين إلا الآن ».[2]

1- الجزائري، محمد بن عبد القادر: **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، المصدر السابق، ص، 455.

2- أحمد، العماري: **مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب** (1830-1902)، المرجع السابق، 409.

-رسالته أيضا إلى ولي العهد سيدي محمد والتي ضمّنها بخصوص الأمير ما يلي: « إنّ لعبد القادر أطماعا على ملكة (كذا) أجدادكم، وقد كوّن أتباعا وأنصارا من بين أعيان البلاد وقادها »[1] ثم يُنهي كلامه بالإلحاح بطرده من المغرب؛ ولكي يُقنع السلطان أو أعيانه بطرده بالغ في الكناية عنه بقوله: « وكما أخذت كلام أحد الوشاة وهو الحاج عبد القادر الذي كان غرضه وفائدته في الفتنة بيننا وربما هناؤه وعيشه في شدة الأهوال ... وله والله غرض وطمع في تمليك البعض من رعيتكم »[2] ثم يواصل كلامه مُجددا شروط الصلح مع المغرب وهي حسب رأيه تفريق جيش الحاج عبد القادر بحيث لا يبقى معه أحد؛ وحَمله ومن معه ووضعه بإحدى مراسي المغرب، وأن يلتزم السلطان بعدم خروج هذا المفسد من موضعه »[3].

لم يكتف "بيجو" بهذا الطرح بل ذهب إلى تخويف السلطان من عبد القادر فذكر: « إياكم ثم إياكم ثم إياكم والغفلة لأن طرف رعيتكم التي بجوارنا كلها فاسدة، ومع هذا إن مستكم الغفلة والتراخي يَقْدر الحاج عبد القادر بجمع أهل الفساد نصيب في نصيب ويقوم بها إلى أن يصير في غاية

---

1 -مخطوط مكتبة الخامة بالجزائر: **رسالة الجنرال "بيجو" إلى السلطان عبد الرحمان بعد أخذ محلّة ولي العهد سيدي محمد 1844** ،المخطوط السابق، رقم 2755. وللعلم فإن هناك نسخة من هذه الرسالة بخوزقي. ومنشور جزء منها في أطروحتي لنيل شهادة الماجستير الموسومة بـــ: العلاقات الجزائرية المغربية 1830-1847 (الغرب الجزائري والمغرب الشرقي نموذجا)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

2 - **المخطوط نفسه.**

3 -المخطوط نفسه.

ضدكم ببذل الجهد »[1] ثم سرعان ما يطرح له فكرة التعاون في القضاء عليه: « ألا ترى لو يقع ذلك ويكون الخير بيننا سترى والله ما يحل به منا لاكن (كذا) المراد أن لا يبلغه الله ولا غيره لذلك ويقطع دابر من سعى في خراب الدولة الهشامية (كذا) »[2].

ويختم رسالته بوصف شنيع في حق عبد القادر « وإنما خوفك من الحية الرقطاء التي استأنست بها وأدخلتها بثوبك رأفة منك وحنانة إلى أن تؤلمك فالتفت لما يأتيك من الحية ولا تظن أن العيش يصفا معها بعشرة واقتل سمها قبل أن تؤلمك بسمها، والله شاهد ومطلع على نصيحتنا كنصيحة الأب لابنه والله على ما نقول وكيل »[3].

-رسالة "دي لاري" إلى السلطان والتي جاء فيها: « وسبب الفساد الواقع بين الدولتين إنما نشأ عن حلول الحاج عبد القادر بقرب الحدود، ولا يخفاكم أنه أصل كل فساد وعنه ينشأ، وبفساده تنقضي المحبة المعقودة بين الدولتين»[4] ويواصل رسالته بقوله: «يزعم أن ليس غيره آمر بالدين الجهاد إنما سعيه هو إفساد رعية المغرب»[5]

---

1 - المخطوط نفسه.

2 - المخطوط نفسه.

3 - المخطوط نفسه.

4 - ابن زيدان، عبد الرحمان: **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج، 5، المصدر السابق، ص-ص، 172-174.

5 -**المصدر نفسه**، ص، 171.

ومن خلال المطابقة والمقاربة لهذه العينة من الرسائل وغيرها، وهي كثيرة جدا نجدها تتطابق وتتشابه إلى حد ما في مضمونها مع ما كتبه المخزن المغربي، وعليه فهذا الأخير –السلطان خاصة– يمكن القول إلى حد ما أنه انساق وراء الكتابات الفرنسية، واقتنع بوجهة نظرها من دون تروٍ وتمحيص وتحقيق، هذا من جهة ومن جهة أخرى فالحالة النفسية للسلطان نتيجة الضغوطات الفرنسية على باب قصره، جعلته يصدر هذه الأحكام القاسية تجاه الأمير.

وكدليل على هذه الحالة للسلطان نكتفي بالإشارة إلى ما جاء في التقارير الفرنسية لأحد المفاوضين الفرنسيين مع السلطان، في أحد جلسات التفاوض التي جرت بين السلطان، والبوحميدي مبعوث الأمير بعد قتل القائد الأحمر: « فلما دخل عليه وجلس بين يديه قال له أبو زيد: ماذا تريدون؟ فقال له البوحميدي: نريد خاطرك ورضاك و العفو عما سلف من الذنب، فقال له أبو زيد: اسمع أقول لك: أن أحب الحديث إلى الله أصدقه، وإنني لا أقبل منكم إلا إحدى الخطتين: إما الدخول لداخل الإيالة فتنزلون عندنا في عز وإكرام، وإما تخرجوا من الايالة، وتتوجهوا حيث شئتم ولا أقبل منكم غيرها»[1]

وتذهب بعض الروايات إلى القول: «حيث وجده في منتهى الغضب والاحتداد، ولقد اتهمه السلطان بقتل القائد الأحمر، ومنعه من الكلام وأنه لن يعطي الأمان للأمير إلا إذا حظر إلى فاس ». وذكر الذين نقلوا المقابلة لـــ"دي

---

1 – المهناوي، محمد: (مقاومة المولى عبد الرحمان لفرنسي الجزائر من خلال مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلاء إدريس)، مركز البحوث والدراسات العلوية: جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، **أعمال الندوة الخامسة**، ديسمبر، 1993، ص: 79.

شاستو" أن السلطان كان يزيد كجمل هائج»[1] فهل السلطان في هذه الحالة أصبح لا يفرق بين العدو والصديق، أم أن المصلحة العليا لوطنه جعلته يطلق هذه التصريحات الخطيرة؟

ومن خلال تمسك قبائل المغرب الشرقي ومناصرتها للأمير الذي تغلب عليه مظاهر الزهد والعبادة، يكون قد أجرى بعض الأحكام في حقها، في الوقت الذي عجز فيه المخزن المغربي عن القيام بذلك، وعليه فالسلطان من دون شك أراد ضرب الأمير بسلاحه، عن طريق فتح باب التشهير وزرع البلبلة بين صفوف هذه القبائل، وتبقى الوسيلة المثلى لذلك في نظره هي الطعن في شخص الأمير وفي صحة جهاده. وإذا كان موقف السلطان المغربي له ما يبرره، فكيف الحال بالكتابات المغربية التي تلت هذه الفترة؛ هل هي الأخرى عاشت نفس الأحداث والوقائع وتأثرت بها؟ أم حاولت السير وفق ما وجدته في رسائل الخزائن المغربية من وثائق تاريخية تعود إلى هذه الفترة من دون نقد وتحليل؟

1– يحي، جلال وآخرون: **مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية**: دار المعارف، القاهرة، 1982، ص، 311 .

الأمير عبد القادر في كتابات أوروبية
(مذكرات روش وسكوت أنموذجا)

الأستاذة حليمة أمقران

ماجستير، تاريخ عثماني

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

فبفضل تشجيعات أستاذي – الدكتور احميدة عميراوي- دائما كان لي شرف المشاركة وللمرة الثانية في هذه الندوة المباركة حول زعيمنا الأمير عبد القادر، الذي يعد أحد الشخصيات الفذة النادرة، التي تستحق الذكر والتمجيد، لما قدمه من أعمال جليلة، وتضحيات جسيمة. ظلت وما زالت خالدة على صفحات سجلات التاريخ، ولهذا فسأقدم مداخلتي هذه وأملي أن أستفيد وأفيد. والتي اخترت لها عنوان "الأمير عبد القادر في كتابات أوروبية" محاولة من خلال مذكرات كل من ليون روش ولكولونيل اسكوت، إبراز وجهة النظر الأوروبية في شخص الأمير عبد القادر الجزائري وذلك وفق النقاط الآتية:

1- ملامح من شخصية الأمير عبد القادر

2- نبذة مختصرة عن حياة كل من ليون ورش ولكولونيل اسكوت.

3- الأمير عبد القادر من خلال مذكرات كل من: ليون روش ولكولونيل اسكوت

1- ملامح من شخصية الأمير عبد القادر: هو عبد القادر ابن محي الدين بن قادة بن مختار وابن الزهرة بنت سيدي عمر؛ تعد أسرته من الأشراف الذين ينحدرون من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد بقرية القيطنة في 23

رجب 1222هـ الموافق لـ 26 سبتمبر 1807[1] تعلم في الجزائر ومصر العلوم الدينية واللغة العربية، ثم سافر مع والده محي الدين إلى المشرق، عبر تونس في 1825، حيث زار الإسكندرية والقاهرة ومنها كانت وجهته إلى جدة ليؤديا مناسك الحج. ومنها إلى بغداد، من أجل زيارة ضريح ضريح عبد القادر الجيلاني؛ حيث أقاما هناك شهرين، عادا بعدها إلى مكة ثم إلى مصر ومنها إلى تونس، ليعودا إلى معسكر، وفي هذه الأثناء تمت بيعته الأولى في تشرين الثاني 1832، وهنا أمر العلماء بمكاتبه رؤساء القبائل؛[2] وبدأ يعمل على تنظيم حكومته الجديدة، وإخضاع القبائل التي تعبث بالأمن أو التي تعمل على الانضمام إلى صف الفرنسيين[3]، وقد شرع على الفور في إعادة النظر في القوانين والعائدات الجائرة السابقة، وكذلك على إنشاء مجلس للشورى من العلماء والرؤساء، هذا فضلا على إخضاعه لمنافسيه، بأن تغلب على ابن نونة- زعيم الحضر في تلمسان- الذي كان تلقى من سلطان المغرب لقب خليفة[4]،

---

1 – ابن التهامي (الحاج مصطفى): **سيرة عبد القادر وجهاده**، تحقيق: بوعزيز يحي، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1995 ص.50

2- طلاس (مصطفى)، **فارس الجزائر**، د.ط: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا دمشق، د.ت. ص.220.

3-وخاصة قبائل الدوائر والزمالة المخزنية التي كانت رافضة الخضوع إلى سلطانه، وقد حاول معها كثيرا، لكنها في الأخير فضلت الانضمام إلى صف الفرنسيين. ينظر: حليمة أمقران، **موقف** المخزنية من مبايعة الأمير (الدوائر والزمالة أنموذجا)، **مبايعة الأمير** (ندوة علمية) منشورة، دار الهدى ص.ص 205-215

4-مياسي إبراهيم، **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر** ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص. 36 37

كما أخضع عددا من القبائل، وبذلك ازداد أنصاره، وجاءته الوفود تعلن بيعتها وتأييدها، وهي البيعة الثانية التي شهدتها الوفود التي تمثل مختلف المناطق والقبائل وشاركت فيها الجماهير الشعبية والأشراف والعلماء بمجددة البيعة الأولى، وكانت في 13 رمضان 1248هـ الموافق لـ 3 فيفري 1833م[1]

وبذلك انتقلت السلطة في التراب الجزائري إلى الأمير ليس عن طريق الوراثة أو التعيين وإنما عن طريق البيعة الشرعية، ورضي الأهالي، ليبدأ من خلالها بوضع حجر الأساس لبناء دولته على أسس ثابتة وقواعد سليمة. وبعد استقرار الوضع واستتباب الأمن، شرع في إرساء قواعد المقاومة، ومن هنا تبدأ عبقريته بأن أظهر مقدرة كبيرة في بناء دولة عصرية، تقوم على تنظيم إداري محكم وجيش منظم؛ وعدالة صارمة وتنظيم ضريبي دقيق، وإقامة مصانع لسد حاجة السكان...لذلك بدأ في تنصيب هياكل مدنية وعسكرية صلبة وذلك لاقتناع الأمير التام بأن تنظيم الجبهة الداخلية يعد تمهيدا لقيام حرب التحرير، وكان هدفه من قبول التفاوض مع الفرنسيين هو كسب الوقت لاستكمال أسباب التنظيم، حيث شهدت السنوات الأولى الأسس التمهيدية، بينما عرفت الفترة التي تلت معاهدة التافنة 1837-1839 بالفترة الذهبية في التنظيم والتوسع والإعداد؛ ولهذا فقد استطاع ولمدة خمسة عشر عاما كاملة إحباط مخططات الجيش الفرنسي، بقوة ما جمعها إلا بفضل الحماس الذي أثاره فيها. وخلال مرتين أجبر عدوه على منحه شروط سلام مناسبة له والاعتراف بألقاب

---

1 – محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، ج.1، ط.1، شرح وتعليق: ممدوح حقي دار اليقظة العربية، بيروت، ص 163.

السيادة: وانتهى بأن انصاع تحت تأثير التفوق العددي مسلما نفسه للقوات الفرنسية. شرط نقله إلى أي بلد آخر؛ وحتى وهو في منفاه استطاع أن يخلق لنفسه موقعا من الدرجة الأولى في العالم، بأن مضى إلى عدد كبير من مؤسساته العلمية والثقافية، مراسلا أشهر زعماء الدول[1]؛ هذا دون أن نفسه موقفه النبيل من أحداث لبنان، ليجد نفسه وهو في أواخر حياته مغمورا بالأوسمة والتقدير المدني والعسكري من الدول التي حمل ضدها السلاح.

بعد هذه النظرة الخاطفة عن أهم المحطات في حياة الأمير عبد القادر، تتبادر إلى أذهاننا التساؤلات الآتية: ما هي الأسس التي بنيت عليها شخصية الأمير، وجعلته يحتل المكانة التي بلغها على المستوى المحلي أو على الساحة الخارجية؟ أيعود ذلك إلى تكوينه الأول وانتمائه إلى أسرة علمية شريفة، فضلا عن اقتناعه بالقراءة العميقة لأمهات الكتب، أم أنه التمسك بتعاليم الدين الإسلامي وثقته بالله عز وجل هو سر نجاحه؟

كانت هذه بعض ملامح شخصية الأمير على أن نتعرض لهذه الشخصية النادرة في مذكرات كل من ليون روش والكولونيل اسكوت في لعنصر الموالي.

2- نبذة مختصرة عن حياة كل من: ليون روش ولكولونيل اسكوت:

---

1 -حيث راسل قنصل أمريكا وقنصل بريطانيا، ينظر: سعد الله (أبو القاسم) **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج.1، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992. كما حمل الكولونيل اسكوت ثلاث رسائل: الأولى إلى السلطان عبد الحميد والثانية إلى والصدر الأعظم الثالثة إلى وحمدان بن عثمان خوجة الذي كان يقيم بالأستانة وكانت له علاقة وثيقة بالباب العالي. ينظر: لعربي إسماعيل: **العلاقات الدبلوماسية الجزائرية**.

أ- **ليون روش:** Léon Roches ولد بجرنوبل .Grenoble في 27 سبتمبر 1809، تلقى تعليمه الثانوي بها، تحصل على شهادة البكالوريا عام 1828، وإلتحق بكلية الحقوق، أين درس بها الحقوق لمدة ستة أشهر لكنه تخلى عن دراسته ورجع إلى مارساي ليستقر مع مجموعة من التجار هم أصدقاء لوالده، كانت لهم علاقات مع الشرق، أين كلفوه برحلة مكنته من زيارة كورسيكا وسردينيا وصولا إلى إيطاليا، وكان عمره في هذه الأثناء لم يتجاوز 21 سنة[1]. التحق بوالده الذي كان صاحب منصب في المعتمدية العسكرية أثناء الحملة الفرنسية على الجزائر؛ في 30جوان 1820. بعد وصوله إلى الجزائر، أخذ يندمج في أوساط الشعب الجزائري، مما مكنه من تعلم اللغة العربية ومعرفة عادات الجزائريين، خاصة وأنه استطاع أن يقيم علاقات وطيدة مع شيوخ قبيلة بني موسى في عام 1835 عين مترجما للقوات الفرنسية، كما تقلد رتبة ملازم أول في عهد الجنرال كلوزيل. بعد توقيع معاهدة التافنة 1837، وحصول الصلح بين الطرفين الفرنسي والجزائري (ممثلا في الأمير عبد القادر). قرر "روش" الالتحاق بالأمير عبدا لقادر؛ كمسيحي معلنا إسلامه مسميا نفسه عمر، وبالفعل. فقد خرج من الجزائر العاصمة بمساعدة محمد ابن عمر باشا، بأن جعل معه السيد أحمد، وهو واحد من ثقات رجاله، حيث قصد البليدة واستقبله المرابط سيدي بلقاسم، حيث تجاذبا أطراف الحديث، بعد انسحاب الشيخ، استغل الفرصة وأخبره برغبته في الانضمام إلى الأمير،وفرح المبعوث بذلك، على أساس أن الأمير بحاجة إلى من يعرفه بحضارة الغرب. وبذلك استطاع روش- بذكائه

1- Roches (l), **dix ans à travers l'islam** 1ere éd, Paris 1904. p.p 1-7

ومكره- أن يخدع جميع من تعامل معهم و..... بإسلامه المزيف، ليحقق غرضه ويصل إلى مبتغاه ومبتغى بلاده، التي عملت على جعله جاسوسا يمدها بالمعلومات سرًا عن كل تحركات الأمير أقام روش مع الأمير منذ معاهدة التافنة إلى غاية نقضها مما جعله يغادره (الأمير) في 19 نوفمبر 1839[1]، ليعمل مترجما عسكريا من الدرجة الثانية في عهد قالي، ثم كبير المترجمين في قيادة الجنرال بيجو، وبعدها أحيل على المعاش، وكتب مذكراته"dix ans a travers l'islam"، وهي المذكرات الوحيدة التي كتبها أما عن trente-deux ans a travers فقد كان يريد كتابة كل يومياته بالمشرق، لكنه لم يفعل. توفي ليون روش عام 1901[2]

ب- الكولونيل اسكوت: وهو ضابط انجليزي جاء الجزائر متطوعا لمناصرة الأمير عبد القادر ومساعدته لطرد الفرنسيين، ويذكر اسكوت في مذكراته أنه كان يعمل ضابطا في جيش المشاة الإسباني، أثناء عقد معاهدة Vegara وتطبيقا لمواد هذه المعاهدة أُدمج الضباط الكارليون في جيش ايزابيلا الثانية، وبذلك أصبح من المستحيل بقاؤه تحت قيادة مساندي قضية الاستبداد، ونتيجة لإصابته بجروح بالغة قرر المجلس الطبي تنحيته من جيش المشاة ومن ذلك انسحب من الجيش وكله عزم للالتحاق بالأمير عبد القادر. وتطبيقا لهذا العزم، قصد مدريد ومن هناك إلى جبل طارق، ثم وصل إلى بنمهى في الأندلس، ومنها إلى الجزيرة الخضراء أين تعرف على السيد مانوتشي الذي كان قائما بأعمال الأمير كمعتمد في جبل طارق وقبل عرضه على أن يعمل رئيسا

---

1 - ويصف لنا روش في مذكراته الموقف لحظة مغادرته زمالة الأمير، وردة فعل هذا الأخير عندما عرف حقيقته وخداعه له، وما هو ما ستتعرض له في العنصر الموالي.

2 – التفصيل في سيرة روش ينظر: Léon roches; dis ans à travers l'islam

لأركان حرب الأمير؛ وذلك في نطاق مشروع كان الأمير يستهدف من ورائه تدعيم قيادته العسكرية وتعزيزها، على صعيد التخطيط والتنفيذ معا بعناصر من الضباط الذين حاربوا في إسبانيا تحت لواء الحرية وضد الرجعية.

وصل الكولونيل اسكوت إلى تيطوان 26 فبراير 1841 برفقة السنيور "نويل ما نوتشي". بعد رحلة شاقة تعرض أثناءها لمختلف المضايقات والأخطار في المغرب الأقصى، خصوصا بوصفه مسيحيا، على أن عناية السلطان عبد الرحمن بتوفير الحماية والحراسة العسكرية الضرورية، وما لقيه الكولونيل من التكريم والحفاوة من سلطات الأمير، بعدما دخل مملكته، أنسته متاعبه، وحررت نفسه التي تتجه بكل قوتها نحو الهدف الذي جاء من أجله، وهو مساعدة الجزائر[1].

كان من المتفق أن يشغل" الكولونيل اسكوت" منصب المستشار العسكري، ولكن بعد ما تم الاتصال بين الشخصيتين، اكتشف الأمير أن اسكوت ليس ضابطا عسكريا فحسب، بل مفكر سياسي واسع الإطلاع، قرر وباتفاق معه أن يجعل مقر عمله في القيادة المركزية في تاقدمت ثم في الزمالة، ولهذا فقد يجمع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية التي يحولها إليه مختلف الجهات ويخزنها ثم يغربلها ويصفيها وينسقها لتكون أساسا صالحا للقرارات والعمليات العسكرية. وقد استطاع هذا الرجل ولمدة سنة واحدة فقط أن يجمع حصيلة معتبرة من المعلومات المهمة نجدها كلها في مذكراته التي تعد عملا تاريخيا بالغ الأهمية وختم تعاونه للأمير، بأن أقترح عليه أن يكون

---

1 -الكولونيل اسكوت، **مذكرات**، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص.13-16.

ممثلا له وللجزائر في أي ملتقى دولي يعقد لمعالجة مشكلة وحدة الأراضي الإمبراطورية العثمانية، وبالفعل فقد حمله الأمير جملة من الرسائل إلى زعماء دول مختلفة، يوم أن خرج من معسكره قاصدا فاس وتيطوان وصولا إلى جبل طارق[1] وفي مذكراته نجد وصفا مفصلا لهذه الرحلة.

3- **الأمير عبد القادر من خلال مذكرات كل من: روش واسكوت:** لقد مكنت الرحلات والتجارة والدبلوماسية والجوسسة الأوروبيين من التعرف على الجزائر وأتاحت لهم الفرصة لتسجيل مذكراتهم، التي تعد مادة خبرية عالية القيمة، لكل مؤرخ أو باحث في التاريخ: فهي تقدم لنا إطارا جديا وفضاء أوسع لتاريخ الجزائر. -في كل عهد من عهودها- من وجهة نظر غير عربية إسلامية.

ولهذا فقد كان الهدف الأساس من هذه المداخلة، متمثلا في دراسة شخصية الأمير عبد القادر من خلال مذكرات كل من: ليون روش ولكولونيل اسكوت، اللذين يعدان مصدرين مهمين لكل باحث في تاريخ الجزائر عامة وتاريخ الأمير عبد القادر خاصة.

مذكرات ليون روش: "dix ans à travers l'islam": ودون فيها روش كل تفاصيل حياته على مر عشر سنين من 1834 إلى 1844، وهي الفترة التي قضاها في الجزائر معلنا إسلامه كذبا -كما سبق وأشرنا عندما عرفنا به- من أجل الإلتحاق بالأمير عبد القادر والتقرب إليه، أملا أن يحقق مبتغاه في جعل الأمير يتنازل عن محاربة بلاده (فرنسا) ويعلن الصلح معها، من أجل غاية نبيلة واحدة- على حد تعبير روش- وهي مساعدة الشعب الجزائري على الخروج

---

1 - المرجع نفسه. ص ص.165-200

من التخلف والأمية والعمل على تحضره وتثقيفه، وكل هذا بتوحيد جهود الطرفين: فرنسا والأمير.

وبإطلاعنا على هذه المذكرات[1]، حاولنا استخراج أهم المواقف التي يصف فيها روش الأمير عبد القادر، والتي من خلالها، يمكن أن نبرز وجهة نظر "روش"، ليس فقط باعتباره شخصية أوروبية، بل كفرد يمثل فرنسا يدافع عنها، في شخص الأمير، وأما عن هذه المواقف فهي:

* وصفه لأول لقاء بينهما في الرسالة التي بعث بها إلى صديقه: إذ وصف لنا الأمير – من الناحية الخلقية- وصفا دقيقا، ويقول: "... ثم يقول لصديقه: "... وأخيرا فقد رأيت الأمير، ومنذ ذلك الحين انتابني شعور لا أفهمه، فقد حدث منذ رأيت هذا البطل".

* أثناء حديثه عن سياسة الأمير: في هذه النقطة أورد لنا روش وبإسهاب، الحوار الذي كان بينه وبين الأمير عندما حثه هذا الأخير على ممارسة كل شعائر الإسلام، لأن الدين ليس قولا فقط بل عملا. وهنا يتحدث روش عن قوة إيمان الأمير وثقته بالله عز وجل، وأن هدفه هو نصرة شعبه وإخراج العدو من أرضه بأمر إلهي، وأن نصر القائد يقاس بقوة إيمانه.

وقد آثار روش نقطة مهمة توضح لنا استراتيجية الأمير، وذلك عندما سأله عن سبب عقد الهدنة مع فرنسا، إذا كان الإسلام يقتضي منه الجهاد،

---

1 – وتبدأ المذكرات بسيرة دقيقة لروش منذ طفولته حتى وصوله إلى الجزائر، ثم يومياته في متيجة وملیانة وبعدها في زمالة الأمير، ثم في تلمسان والمدية، وخروجه مع الأمير إلى عين مهدي وتاجموت وتقرت، ثم هروبه وعودته إلى وهران ثم الجزائر وبعدها فرنسا، وفيها كذلك وصف لرحلته إلى القيروان ثم مصر ولمدينة ومكة وروما وعودته إلى الجزائر إلى غاية حصوله على المعاش.

وكان جواب الأمير أن المسلمين ملزمين بالصلح من أجل الحصول على فترة يحضرون فيها للحرب.[1] ويختم روش هذا الحوار بقوله: "... هذا هو الرجل الذي سيساعدنا في تحضير الجزائر، وإخراج شعبه من التخلف...".

* معسكر الأمير عبد القادر: يصف لنا بالتدقيق خيمة الأمير وسلوكه اليومي، نراه مركزا على محافظة الأمير على صلواته، وكذا تعامله مع جنوده ورجاله واستعداده العسكري، وفي هذه النقطة نجد روش يتحدث بإعجاب وحيرة عن مدى استعداد الأمير وجنوده النفسي (لا المادي) للجهاد في سبيل الله وعدم خوفهم من الموت

* وصفه لحياة الأمير الشخصية: يبدأ هذه النقطة بوصف جميل قائلا: "... رغم الإمبراطورية التي بناها لنفسه، إلا أن ملامح وجهه تعكس جوهره: فهو عندما يصلي ناسك، وعندما يأمر سلطان، وعندما يتحدث عن الحرب فهو جندي..."

وهنا تعرض روش عن أدق التفاصيل في حياة الأمير الشخصية، من علاقته مع والده واحترامه له إلى حبه لوالدته، وتعامله مع زوجته؛ كما تحدث عن طريقة أكله وصلاته وتعامله مع رجاله[2]

* مرض روش ووقوف الأمير إلى جانبه: وهنا يذكر لنا إصابته بالحمى، وسهر الأمير إلى جانبه ويقول روش في هذا الصدد: "... تلك الليلة أبدت لي

---

1 - ينظر: Léon roche;**dix ans à travers l'islam**; p.72

2 - تعتبر مذكرات روش مادة جد مهمة لكل باحث في تاريخ الجزائر الاجتماعي، ففيها أدق التفاصيل عن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، هذا فضلا عن أدق التفاصيل عن حياة الأمير الشخصية من لبس وأكل وعبادة

الصورة الحقيقية للإيمان، وهكذا يجب أن يكون قديسوا المسيحية..." ثم يختم النقطة بقوله: "فعافيتي كانت بفضل دعاء الأمير"[1].

* مصارحته للأمير بحقيقته: وذلك عندما علم بتجهيزات الأمير من أجل استئناف الحرب مع فرنسا، فتنافس معه عله يقنعه بالعدول عن ذلك، مدافعا أثناء حديثه عن شعب فرنسا من أطفال ونساء، مما جعل الأمير يشك، لكنه لم يتوقع ما سيقوله له، وبعد ذلك يصف لنا روش، وقع الخبر على الأمير. كان آخر ما قال له: "... اذهب، لن أكون أنا معاقبك، بل الله هو الذي سيفعل: اذهب، فلست من اليوم سيدك..." ويقول روش: "... لقد تمنيت الموت على هذا الموقف، فلن أرى هذا الرجل الذي طالما حلمت به"[2] ثم يعقب بقوله أن هذا الموقف يبين شجاعة وشهامة الأمير، ولولا سعة قلبه وتسامحه لكان..."

– كانت هذه أهم المحطات الواردة في المذكرات والتي لها علاقة مباشرة بشخص الأمير عبد القادر، ولكني رأيت من الضرورة الإشارة إلى رسالتين مهمتين بعث بهما روش للأمير عبد القادر، بعد مغادرته لمعسكر.

– **الرسالة الأولى:** شرح له فيها أسباب هروبه، وأنه ما أنضم إلى صفوفه إلا من أجل غاية نبيلة، تتمثل في مساعدته في تحضر شعبه وفي مشروعه القيم الذي لا يكون إلا بالعيش في سلام مع فرنسا.

---

1 – ينظر المرجع نفسه، ص.141

2– Léon roches; **dix ans à travers l'islam**,p.192.

– **الرسالة الثانية:** وفيها ذكر له رحلته إلى القيروان ومصر ومكة والمدينة، من أجل الحصول على فتوى[1] توقف جهاده، وبالفعل فقد أثرت هذه الفتوى على حركة جهاده.

الخلاصة: وبهذا نكون قد تعرضنا لمذكرات ليون روش، الذي انضم إلى معسكر الأمير معلنا إسلامه بالكذب، معتقدا أنه يستطيع إقناع الأمير بعقد الصلح مع فرنسا والتعاون معها لتحضير الشعب الجزائري، وقد حاولنا التطرق إلى أهم المحطات التي تحدث فيها روش عن الأمير والتي نلتمس من خلالها نظرة إعجاب وانبهار. ولو لم يكن هذا الرجل جاسوسا ومخادعا لكانت مذكراته مصدرا تاريخيا بالغ الأهمية للتـــأريخ للمقاومة الأمير وإن كانت تبقى مهمة لكل باحث في التاريخ، عليه الحذر في التعامل معها.

مذكرات الكولونيل اسكوت scott 1841: وتعد هذه المذكرات عملا تاريخيا قائما بذاته، لا مناص لكل باحث في تاريخ الجزائر عامة أو تاريخ مقاومة الأمير عبد القادر خاصة، من الاعتماد عليها، خاصة وأن صاحبها جاء متطوعا لمناصرة الأمير ومساندته في قضيته، على عكس ليون روش–الذي تعرضنا إليه

---

1 – وهي الفتوى التي جاء بها روش صحبة الشيخ التيجاني ، تقتضي وقف أعداء الدين، أمن بها بعض العلماء، ووضعوا أختامهم عليها، وذلك بأن أحكم صياغتها روش، يقول فيها للمجاهدين الجزائريين، ضعوا أسلحتكم لأنكم في بلد الإسلام، وأنه إذا تغلب العدو الكافر على المسلمين، فإنه لا يجوز لهؤلاء مجاهدته ولا تجب عليهم الهجرة، لأن الجزائر دار سلام، ما دام العدو الكافر قد تعهد بترك المسلمين يقومون بأمر دينهم، وليس عليهم أن يتبعوا الأمير ولا أن يشايعوا أي مجاهد جاء لطرد الكفار. ينظر: سعد الله (أبو القاسم)، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830، 1900**، ج.1، ط.1 دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1962

فيما سبق- الذي يعتبر جاسوسا لحساب بلاده (فرنسا). أضف إلى ذلك كونه (اسكوت) الكاتب الأوروبي الوحيد الذي كتب عن المقاومة الجزائرية أثناء عهد الأمير عبد القادر ومن داخل معسكر، وبكل موضوعية، فقد نشر ما كتبه بين بني قومه انجلترا دون أي تدخل، مع الإشارة إلى أن اسكوت رجل يضع الشرف العسكري فوق كل اعتبار. وردت مذكرات اسكوت بمقدمتها وملحقاتها، مترجمة إلى اللغة العربية (من اللغة الإنجليزية) من طرف إسماعيل العربي- في مئتين وواحد وتسعين صفحة، قسمها الكاتب إلى ثلاثة عشرة فصلا هي كالآتي:

- **الفصول الثلاثة الأولى:** تضمنت محطات رحلته من إسبانيا إلى المغرب الأقصى بكل تفاصيلها وتعد مادة خام لمن يريد الإطلاع على الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في هذه الفترة.

- **أما الفصول من الرابع إلى العاشر:** وهي المحور الأساسي الذي تدور حوله مذكرات الكولونيل اسكوت، حيث سجل فيها انطباعاته الحية حول الحوادث التي وقعت فترة إقامته بالمعسكر أولا بأول[1] وهي ما يهمنا في هذه المداخلة. فمن خلالها أمكننا استنتاج وجهة نظر مخالفة لوجهة روش، في الأمير عبد القادر.

---

1 - تضم هذه المذكرات مادة جد مهمة، فقد قدم لنا اسكوت معلومات مباشرة عن صناعة الأسلحة التي استحدثها الأمير، وعن مصنعي المدافع بتاقدمت والأسلحة. كما وصف لنا تدمير الفرنسيين لتاقدمت وصفا دقيقا هذا فضلا على أنه سجل لنا ملاحظات مهمة عن قيمة موارد الثروة الطبيعية، وكل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية في مملكة الأمير، كما تضمنت كذلك الدور الذي لعبه السينيور مانوتشي في اتصالات الأمير مع الخارج.

– والفصول الثلاثة الأخيرة، فتناول فيها تفاصيل رحلة عودته منذ انطلاقة من الجزائر إلى غاية وصوله.

– كما تجدر بنا الإشارة إلى أنه ختم مؤلفه بملحقين أثنين: الأول هو: نص لمعاهدة التافنة، والثاني هو رسالة الأمير عبد القادر إلى بيجو.

أما عن شخص الأمير، من خلال مذكرات الكولونيل اسكوت، فبعد إطلاعي عليها حاولت استخراج أهم المقتطفات التي يتحدث فيها الكولونيل عن الأمير عبد القادر. وكان أول ما شدني ولفت نظري في هذه المذكرات، هو أن الكولونيل، غالبا ما يقرن إسم الأمير القادر بصفة السمو فمثلا يقول حال وصوله: "... وعندما وصلت إلى بلاط السمو الملكي زاد إعجابي به، ووافقت على اقتراحه بأنني سأقوم بمهمة أكبر في خدمته، إذا بقيت في الزمالة كي أعمل لأقدم إلى العالم أجمع صورة دقيقة لدولته وللأحوال السائدة في مملكته"[1]

كما نجده يعلق على معاهدة التافنة بقوله: "... فلو طبق الفرنسيون معاهدة التافنة بإخلاص لبقيت مدينة الجزائر في أيديهم، بل وجميع الأراضي التي تنازل لهم عنها الأمير (...) كلا إن الفرنسيين فضلوا خرق المعاهدة، فقضوا بذلك على الثقة التي وضعها فيهم بطل لا يعرفه سوى سيفه، وهو الآن يستطيع ولا يريد أن يثق في كلمتهم مرة أخرى. وفي مذكراته، لم يكن اسكوت يدافع عن الأمير فقط، بل حتى على الجزائر إذ يقول: "... ولا يوجد مبرر العدوان على الجزائر ولا يمكن للأمة الفرنسية أن تتوقع أي فائدة، في نهاية الأمر.

---

1 اسكوت، **المرجع السابق**، ص 15.

ويشير اسكوت كذلك أن هدفه من كتابة المذكرات هو تبرئة الأمير من الشكوك والشبهات التي قذفته بها الصحافة الفرنسية، ويقول: ... بحيث يرى العالم الخارجي بشخصيته الحقيقية، شخصية بطل ذي عقل مستنير وقلب نبيل، إن بطل غير قادر على الخيانة وسياسة حكومته خليقة لو أتيح له التربع على عرش الجزائر كلها، بأن يجعل من هذا البلد، أكثر بلدان العالم الإسلامي تقدما وازدهارا.

وخلاصة القول: كانت هذه ملامح من شخصية الأمير عبد القادر، عند الكولونيل اسكوت، الذي تخلف عن وطنه وجاء لمناصرة الأمير بأفكاره وحنكته السياسية والعسكرية، وذلك إنما يدل على إيمانه الخالص بقضية الأمير وإعجابه الشديد به وخير ما نختم به هذه النقطة هو ما قاله الكولونيل في نهاية مقدمته للمذكرات: "... وبقدر ما تسمح به بلادي، فإن خدماتي ستكون دائما تحت تصرف سمو الأمير، ولكنني مع ذلك لم أجدد سيفي حتى الآن من غمده للقتال من أجل قضيته، وأنا لا أنوي أن أصنع ذلك إلا إذا بلغ دمي درجة الغليان وعندئذ سأقاتل من أجله" ويقول أيضا: "إن الأمير عبد القادر هو البطل الذي يدافع عن الدين الإسلامي الذي يدين به السلطان عبد الرحمن، فلو قام بأية محاولة، لوجد الشعب المغربي يقف ضده وفي جانب الأمير".

فهرس الموضوعات

* **الأستاذ الدكتور عبد الله بوخلخال:** تقديم 3

* **الأستاذ الدكتور احميده عميراوي:** مقدمة 5

* **الدكتور محمد بوالروايح:** الجدل الفكري حول صلة الأمير عبد القادر بالماسونية -دراسة تحليلية نقدية- 7

* **الأستاذ الدكتور اسعيد عليوان:** الأمير عبد القادر والماسونية 27

* **الأستاذ الدكتور احميده عميراوي:** تيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر (الماسونية أنموذجا) 65

* **الدكتور الطاهر عمري:** تأثير المعلمين الفرنسيين في اتجاهات المثقفين الجزائريين إلى نهاية القرن 19 75

* **الأستاذ خليفة حماش:** الحصانة الدينية للذات الجزائرية في العهد العثماني ... 89

* **الأستاذة فريدة قاسي:** ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر 105

* **الأستاذ طارق لعجال:** خطاب الإخاء الديني في فكر الأمير عبد القادر.... 121

* **الأستاذة وداد بيلامي:** من نفوذ اليهود بعد 1830 وعلاقة الأمير عبد القادر بهم 141

* **الأستاذة ليليا شنتوح:** منهج وآليات انتشار بعض التيارات الفكرية غير العربية الإسلامية في الجزائر 153

* **الأستاذ محمد السعيد قاصري:** وَقْعُ الأمير عبد القادر الجزائري في الكتابات المغربية..... 169

* **الأستاذة حليمة أمقران:** الأمير عبد القادر في كتابات أوروبية (مذكرات روش وسكوت أنموذجا) 203

تمّ الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ☆ عين مليلة
http://www.elhouda.com

9947 - 0 - 1505 - x ردمك